عـزيـز شـراج

العـرّاف والكنز المطمور

رواية

منشورات سوتيميديا

عزيز شراج

العرّاف والكنز المطمور

منشورات سوتيميديا

عـزيـز شـراج

العـرّاف
والكنز المطمور

رواية

الثمن: 20 د.ت - 80 درهم

9 789938 918335

العـرّاف والكنز المطمور

كل نظريات الفيزياء التـي درسها سي رابح وقفت عاجزة في مخيلته وعقله عن تفسيـر ما يجري أمام عينيه، إلى أي قانون فيزيائي يمكن أن يُفسّر طيـران حبّات القمح وتجمّعها بهذا الشكل في الهواء ونُـزولها مجتمعة في مكان معيّن... بعد هذا العرض أصبح الكل كالتلاميذ في حضرة العراف الكبيـر، كلامه لا يُناقش ولو حمل في طيّاته ما يتناقض مع أكبـر قوانين الطبيعة، هنا العراف من يتحكم في كل شيء، في العقول قبل الجُيوب.

القـاسم المشترك بين الجميـع أنهم يحملـون بداخلهـم آلام ومشاكـل، ربما أُغلقت كل الأبواب لحلها في الخارج أو لم تعد تُدَرّس في بـرامج تعليمنا منهجية التفكيـر الصحيحة، لم نعد نُفكر في حل أي طارئ يعترض طريقنا. كل شيء جاهز، الألعاب جاهزة الملابس جاهزة الأُكلات جاهزة وحتى الحلول جاهزة. لماذا إذا نُرهق أنفسنا في التفكيـر في حين أن هناك من يُفكّر بالنيابة عنا؟

منشورات سوتيميديا

العرّاف والكنز المطمور

رواية

المؤلّف

عزيز شراج

الطبعة الأولى : تونس جانفي - 2018

جميع الحقوق محفوظة للناشر

حقوق المؤلف محفوظة

الناشر والموزع

سوتيميديا للنشر والتوزيع

العنوان : ص ب 570 تونس - حشاد 1049 تونس

الهاتف : 00216 31400756 **الجوال :** 00216 97126757

الفاكس : 00216 32400756

contact@sotumedias.tn

www.facebook.com/sotumedias

ر.د.م.ك

978-9938-918-33-5

منشورات سوتيميديا

الطباعة

المغاربية للطباعة واشهار الكتاب - تونس

لحساب سوتيميديا للنشر والتوزيع

تنبيه : يمنع نقل أو إعادة نشر نص هذا الكتاب بأية كيفية كانت إلا بإذن من المؤلف والناشر

عزيز شراج

العرّاف والكنز المطمور

رواية

منشورات سوتيميديا

الفصل 1

المُرناقية وعبق التاريخ

المرناقية يا أرض الخير *** يا أرض القمح والشعير

عندما زار الحسين المغربي مدينة المرناقية في الضاحية الغربية لمدينة تونس الكبـرى، تلك التي لا يفصلها عنها سوى خمس عشر كيلومتر بينما تبعد عنها في الحقيقة مسافة ألف سنة ضوئية. كانت مدينة المرناقية التـي يعود تاريخ تأسيسها إلى حقبة الباي يتوسطها قصر صغير لأحد بايات تونس يُقابل قصر البلدية الحالي للمدينة.

القصر الذي يصارع وحده صمت الزمن في رحلة مُضنية من أجل البقاء وكأني بهم اتفقوا جميعا على إهمال في لا مبالاة مُرعبة تراث نتنفس مناخاته وعَبقه، كان الكل شبه متفق على إهمال هذا التراث وهذه الحقبة التاريخية التي تستحق التفاتة تليق بها لأنها تُشكل جزء مهم من تاريخ البلاد والمنطقة. المبنى عبارة عن قصر صغيـر يُقال بأن أحد البايات الحسينيين اتخذه في السابق مسكنا لإحدى زوجاته الجميلات بعيدا عن ضجيج القصر ومكائده في باردو المدينة.

اختلف الناس حول أصل تسمية «المرناقية» فهناك من يربط تسميتها بالباي الذي سكن المنطقة وأول من شيد فيها بناءً فجاءت تسمية المدينة بالمرناقية على اسم بغلة الباي « المرناقية» التي كان يركبها للمجيء إلى هناك. وهناك من يربط تسميتها بالحقبة الاستعمارية الفرنسية كتصغير لمدينة مرناق في الضاحية الجنوبية للعاصمة المشهورة بمزارع العنب ومعاصر الخمور، ولما كانت أغلب أراضي المرناقية شبيهة إلى حد كبير بأراضي مدينة مرناق، لِتواجد مزارع كبيرة للعنب ومعاصر للخمور فيها، فقد سُميت بهذا الاسم دلالة على التصغير والشراكة بينها وبين مدينة مرناق التي يحمل لحد الآن نوع من أنواع الخمور الحمراء المتداولة في تونس اسم «مرناق» كعلامة تجارية.

عندما زار الحسين المغربي المدينة سنة 1997 في رحلة بحث عن عمل كانت أقرب إلى القرية منها إلى المدينة. يعترضك عند مدخلها معمل البلور على اليسار. تجد بعده أرض خلاء عبارة عن حقل لزراعة الشعير والقمح. يحمل إلى الاذهان الأغنية التي كان يرددها تلاميذ مدارس المرناقية الابتدائية.

المرناقية يا أرض الخير *** يا أرض القمح والشعير

بعد أكثر من مائتي متر على اليمين تجد مقهى «عمر فرح» حيث يجلس أغلب عمال معمل البلور في فترة الصباح والظهيرة، بينما يتخذه المتقاعدين من سكان المدينة الأصليين وأعضاء شعبة الحزب الحاكم في المدينة مكان للعب حجر «الديمنو» والورق بعد العصر. بعد مقهى عمر فرح في الشارع الرئيسي الضيق تجد على اليسار مبنى البريد في بيت قديم يجعلك تتخيل ويستحثك على أن تبحث عن أقفاص الحمام الزاجل حيث ستعتقد للوهلة الأولى أنه لازال يعمل وفق هذا النظام.

في الطريق الرئيسي مباني متناثرة متباعدة لا أثر فيها لجمالية الهندسة الحديثة، تتناثر بعض الأشجار هنا وهناك. قبل أن تصل إلى وسط المدينة يعترض سبيلك مقهى آخر يُسمّى «كوبويات» لست أدري إن كان من أطلق عليه هذا الاسم يعرف ترجمته الحقيقية والتي تعني مقهى الرُّعاة، لقد كانت مقرا للرعاع وتُجار المخدرات ومُستهلكيها تفتح أبوابها عام وتَصدر في حقها عقوبة الغلق لعام آخر.

بعدها تجد نفسك أمام المقهى الكبير للمدينة مقهى القدس على اليمين هذا المقهى كان يحج إليه أغلب سكان المدينة وقتها على اختلاف مستوياتهم والمشهورة بأراجيليه «القابسي» الشاب الأسمر البشوش أصيل مدينة قابس، يُقابل مقهى القدس على اليسار من الجهة الأخرى للشارع الرئيسي المسجد الكبير للمدينة، المشهور بخطب الإمام يونس التي يرى فيها جل سكان المدينة جرأة زائدة جعلت من الإمام بطلا سياسيا في نظر أغلب السكان، في حين لم تُولد في نفس الحسين المغربي عندما سمعها للمرة الألف أي انطباع يُوحي بذلك، يفصل بين المسجد الكبير كما يُسمى في المدينة ومبنى المعتمدية شارع صغير.

أما وسط المدينة حيث يوجد السوق البلدي بدكاكينه التي لا تتجاوز العشرون بين بائعي الخضار واللحوم والدجاج والسمك والبقالة... وأنت في طريقك إلى مبنى البلدية على اليمين حيث يقابلك دار التجمع الدستوري الذي حول معلم أثري مُهم إلى مقر للحزب الحاكم ليؤكد مرة أخرى بما لا يدع مجالا للشك بأن التراث غير مُعترف به هنا كقيمة تاريخية تجسد جمال المدينة وعبق تاريخها، وكأني بهم اتفقوا على طمس جُل معالم المدينة التي توحي بِقِدَمِها وجماليتها.

المبنى الذي أصبح ينحصر نشاطه في عَدْ عدد مُصلي الفجر في المسجد وعَدْ كل نشاط سياسي مهما كان، سيعتبره رجال الحزب الحاكم مُريبا وسيتعرض صاحبه إلى مضايقة واستفزاز أبناء الشعبة إذ يكفي وقتها أن تشتري جريدة الموقف السياسية الأسبوعية لتصبح محل تتبع لأسبوع أو أسبوعين، الحزب حول كنيسة تعود إلى عهد ما قبل الاستعمار الفرنسي حيث كان يقيم مجموعة من الايطاليين في المدينة والذين لازالت ذكراهم وطرائفهم مصحوبة بقهقهات السلطان وجواريه في القصر الصغير للباي يرن صداها في أرجاء المكان. لازالت بعض المزارع تحمل أسماء المزارعين الإيطاليين ولازال من الناس الكبار في السن من يتذكر أسماؤهم وبعض مواقفهم الطريفة.

تحولت الكنيسة إلى شعبة من شُعب الحزب الحاكم لتصبح وكرا من أوكار القوادين والجواسيس المُتمعشين من الحزب الحاكم، كما تحول قصر الباي إلى وكر للقطط والكلاب الشاردة. أمام الكنيسة القديمة ومقر الحزب الحاكم حاليا يعتقد أغلب سكان المدينة وجود كنز كبير، هذا الاعتقاد يصل إلى حد اليقين رغم افتقاره لأي سند على أرض الواقع، أغلب الناس يُؤمنون بشكل راسخ بوجود الكنز أمام الكنيسة، والتي يوجد على مقربة منها قصر الباي الصغير والذي لم يبقَ منه إلا الأحجار تصارع الزمن في صمت مُريب للبقاء.

تحتاج للتعرف على هوية هذه المعالم التاريخية أن تُصادف ذاكرة حية في المدينة ذاكرة مُثقفة ستجدها أيضا في طريقها إلى الانقراض، البناية وكل البنايات الأخرى من أثار غير مُعرفة لا باسم ولا لوحة تُشير إلى تاريخها مجرد بنايات وأطلال مهجورة. في الجهة المقابلة للبلدية على اليسار توجد مخبزة «ولاد فرج» التي تفصل بينها وبين

المقهى الرابع «ولاد سعد» مسافة لا تتعدى المائتي متر حيث يجلس أغلب العمال من بنائين ودهانين والباحثين عن عمل يومي يتخذون المقهى مقرا لهم يقصدهم هناك من يبحث عن عامل يومي من سكان المدينة وضواحيها.

كما يوجد في المدينة مركزين للشرطة واحد ملاصق لمبنى البلدية تابع للشرطة المكلفة بحفظ الأمن في المدينة والأخر يبعد عنه قليلا في الجهة اليمنى للطريق المؤدي إلى قرية سيدي علي الحطاب وهو تابع للحرس الوطني، مكلف بمراقبة وحفظ الأمن في القرى المجاورة لمدينة المرناقية، يستعين كل من المركزين بكم هائل من المخبرين الذين تجدهم في كل مكان يكونون غالبا تابعين لشعبة الحزب كما يتمتعون بهيبة تصل إلى حد الخوف بين السكان، إذ لا يمكن أن تُشاهد دورية أمن غير مرافقة بواحد من هؤلاء الذين يفتخرون في غالب الأحيان بعملهم والتشهير به إذ لا يعتبرونه مُهينا أبدا فهم يعتقدون أنهم يقومون بواجب وطني مقدس، أولئك الذين لا يرون غضاضة في القوادة والتجسس على الناس بل يفتخرون بما يُنسب إليهم.

كانت مدينة المرناقية ذات المقاهي الأربعة والمخبزتين والصيدليتين في النهار وواحدة في الليل وأربعة معامل كبيرة. معمل البلور في مدخل المدينة على اليسار، معمل الحليب في وسط حي السعادة بعد الجامع العتيق على يمين الشارع، معمل «بيبسي» للمشروبات الغازية عند مخرج المدينة في طريقك إلى مقام سيدي على الحطاب حيث يقام هناك مهرجان كل سنة، ومعمل الجندوبي للملابس المستعملة عند مخرج المدينة من الجهة الأخرى في الطريق المؤدي إلى قرية «الفجة» وسجن برج العامري.

في معمل الملابس المستعملة أو معمل الجندوبي كما هو متعارف

عليه عند أغلبية سكان المرناقية سيشتغل الحسين المغربي حارسا ليليا برفقة مجموعة أخرى من الحراس غالبيتهم مغاربة.

لم يكن في حسبان الحسين المغربي أنه سيُغادر يوما ما هذه المدينة غنيا. كل ما كان يهمه وقتها هو أن يحتمي لبعض الوقت من لهيب البطالة التي كانت تلفح جل شباب المغرب في تلك الفترة، الحسين المغربي الذي ينحدر من قرية «الكصيب» قيادة ولاد جرار التابعة لعمالة «تيزنيت» المغربية الجنوبية حيث ترك هناك الجفاف قد حصد كل المحاصيل وأتى على كل ما تملكه العائلة من خراف وبقرات تحول تأمين علفها عبئا يُثقل ميزانية العائلة الفقيرة بعد أن كانت إلى وقت قصير مصدر للرزق والحليب.

الحسين شاب مربوع القد لم يكمل دراسته الثانوية أميل إلى السمرة منه إلى البياض يوحي وجهه بالاطمئنان من أول نظرة. هذا ما ساعده على أن يُقبل حارسا في معمل الجندوبي حيث كان عليه كل مساء أن يقف في باب المعمل رفقة أحد زملاءه، ليفتش كل من يشك في أمرها من العاملات اللواتي يعملن داخل المعمل واللواتي يتمثل عملهنّ في فرز الملابس المستعملة التي تَصدق بها الغرب الكريم علينا أو اشترها الجندوبي وشركاؤه بأبخس الأثمان من هناك، يتم فرز كل نوع على حدة ليتم بيعها فيما بعد لتجار ما يسمى في تونس «الفريب». كن غالبا ما يجدن داخل الملابس أشياء ثمينة نقود أجنبية، حُلي، أجهزة الكترونية حيث يجب إعلام الإدارة عنها وإرجاعها إلى صاحب المعمل ومن تُسول لها نفسها الاحتفاظ بما وجدت وكان حظها سيئا عند الباب يكون مصيرها الطرد الشنيع دون أن تتمتع بِجرايتها لذلك الشهر.

في معمل الجندوبي جيش كامل من النساء تجاوز عددهن في الكثير من الأحيان آلف امرأة، حتى ليعتقد من يراهن يدخلن

المعمل في الصباح من أبوابه الكثيرة المتعددة أنهن يخضن حربا كبيرة ضد العوز والاحتياج بقيادتهن في غياب لمعشر الذكور كلّي.

لم يكن المعمل صغيرا فهو يحتل حوالي الهكتارين من الأرض المجاورة للحي الشعبي عشرين مارس كلها مباني كبيرة تستقبل كل يوم عشرات الشاحنات محملة بالألبسة القديمة ليتم فرزها ومعالجتها بعناية فائقة، حيث يتم نَقل كل صنف إلى مخزن كبير في انتظار أفواج أخرى من شاحنات تجار «الفريب» التي ترابط بأعداد كبيرة أمام المعمل في انتظار دورها للحصول على البضاعة.

كانت شخصية صاحب المعمل شخصية مُثيرة للجدل في المدينة كانت أفعاله وتصرفاته حديث أغلب الناس في المقاهي والشوارع، يحرص دوما على أن يظهر بمظهر الغني بإقامة مجموعة من الطقوس كذبح العجول والخراف داخل المعمل على شرف شخصيات سياسية مرموقة وزراء، كتاب دولة، فنانين... يفعل ذلك بصخب كبير حتى يعرف الناس أي الرجال هو ومن أية طينة هم أصدقاؤه، يكون عمال المعمل دائما وعن قصد من الجندوبي على علم مُسبق بالشخصية التي ستزور معملهم مسبقا لينقلوا هم بدورهم الخبر إلى الخارج. لتبدأ رحلة ترقب موكب الشخصية المرموقة الزائرة. وفي أحيان كثيرة في بعض المناسبات الدينية يطل الجندوبي من نافذة مكتبه عند خروج العاملات ليرمي لهن رزم من الأوراق المالية «صدقة» حسب ادعائه وهو يستمتع بمنظرهن يتصايحن ويتعاركن فيما بينهن وهن يلتقطن ما تَصِل إليه أيديهن من أوراق مالية.

لم يكن الجندوبي شخصية مُتعلمة ومُثقفة بل على العكس كان أقرب إلى الجهل المظلم منه إلى الفهم حتى عند امتلاكه للكثير من المال لم يهذب ذلك من جلافة طبعه. ولم يكن أيضا هو وحده

الشخصية المثيرة للجدل في مدينة المرناقية الصغيرة بل كان كل من يملك شيء من متاع الدنيا محط متابعة من جُل سكان المدينة ليس لطبع سيئ لدى السكان في تقصي أخبار الغير، ولكن لظروف وملابسة الغنى المفاجئ لأصحاب الثروات الجديدة التي لا تجد ما تستند عليه من تفسير موضوعي على أرض الواقع. من بين هؤلاء الذين استغنوا فجأة وشكلوا لسنوات عدة محور حديث الرجال والنساء بسبب غناهم المفاجئ العم لَسْعَدْ كما تعود أن يناديه أغلب سكان المدينة.

العم لَسْعد رجل في الثامنة والأربعين من عمره أسمر الوجه ذو ملامح مقبولة، قصير القامة لا يتكلم كثيرا دائم السكوت وقليل الاختلاط بالناس على عكس التجار، هو رجل غني وميسور الحال في مدينة المرناقية صاحب المتجر الكبير والوحيد لبيع الأثاث المنزلي في المدينة من صالات وغرف نوم إلى غير ذلك بالإضافة إلى كونه صاحب ضيعة فلاحية كبيرة يتوسطها منزل ضخم، المزرعة محاطة بأسوار وأسلاك شائكة من جميع جهاتها الأربعة تعترضك على اليمين وأنت في طريقك إلى قرية الفجة، لكن عم لَسعد فَضّل سُكنى حي الخضراء نهج الخضراء على المزرعة التي يزورها كل نهاية الأسبوع شأنه في ذلك شأن الأغنياء الكبار. اشترى العم لَسعد في حي الخضراء منزلا من منازل الوكالة الوطنية للإسكان المخصص للموظفين ورجال التعليم ليحوله إلى فيلا جميلة، يجاور فيها كل من أساتذة وموظفي الدولة المتوسطي الدخل.

لم يُستقبل عم لَسعد من مُتساكني نهج الخضراء كما يُحب، ولم يدفعه هذا ليفكر في تغيير المدينة التي لم تنسَ أبدا أنه كان مجرد عامل نجارة في معمل بسيط بالمدينة قبل أن يُصبح من أصحاب الثروة بشكل مفاجئ ومُريب، ينحدر العم لَسعد من أسرة توارثت الفقر أبا

عن جد لم يكن بتاتا من عائلته من قريب أو من بعيد من كان يملك بصيصا أو علامة واحدة من علامات الغِنى، كان الفقر ولا يزال هو القاسم المشترك لكل العائلة، احتمى بعض إخوته به فأصبحوا أُجراء عنده في متجره بحيث لم يتغير وضعهم أبدا بينما فضلت إحدى أخواته التي فقدت الأمل في الزواج لتواضع جمالها بل لافتقادها إليه أن تلازم بيته الجديد كخادمة أقرب منها إلى الأخت.

ظلت أخبار وكل مقتنيات العم لسعد حديث الرجال في المقاهِ، لازال الكل يتذكر كيفية حصوله على رخصة السياقة، كيف أنفق الكثير من المال من أجل الحصول عليها، كان الكل ولايزالون يتهمونه ببلادة في التفكير تصل إلى حد الغباء حيث شكل هذا عقدة كبيرة للعم لَسعد جعلته رغم غِناه أكثر انطواء على نفسه.

كان قليل الحضور في المدينة ومناسباتها، لم تتعدى علاقته بالجيران حد القيام بالواجب في الأفراح والأتراح، لم تقتصر هذه البلادة في التفكير على العم لَسعد وحده بل تقاسمها معه وَوَرِثها عنه أبناءه الإناث ووابنه أشرف الذكر الوحيد الذي حاول العم لَسعد أن يصنع منه تلميذا نجيبا بكل الوسائل دون جدوى، جلب له كل من اشتهر صيته من الأساتذة ليقدموا له دروس دعم وتقوية عادت على الشاب بنتائج عكسية أصبحت تنتابه نوبات هستيريا حادة نتيجة الضغط المسلط عليه، جعلت العم لَسعد يتراجع في الأخير عن رغبته في أن يَرَى ابنه الوحيد متحصلا على شهادة الباكالوريا، ليصبح بعد ذلك ساعده الأيمن في أعماله الكثيرة القليلة.

عندما يتكلم الناس عن ثروة عم لسعد تتخيل ويحملك خيالك بعيدا إلى كنوز ابن العلقم، حيث يوجد شبه إجماع بأن المشاريع التي يتدثر وراءها العم لسعد ليُوهم الآخرين بأنه يعمل وما يجده مجرّد ذَرّ رماد على العيون. وأن ما يملكه من متاع الدنيا كفيل بأن يجعل

أحفاد أحفاده يعيشون في بحبوحة من العيش تغنيهم عن العمل طوال حياتهم. ومع ذلك لم يستطع أحد أن ينتزع من العم لَسعد اعترافا صريحا بأنه عثر على كنز رغم كل المحاولات التي قاموا بها في هذا الصدد، منهم من ادعى صداقته فقط ليكتشف السر وراء هذا الغني المفاجئ لكن دون جدوى.

في المقابل كان العم لسعد يقطع صلته مباشرة بكل من تُسول له نفسه حشر انفه في خصوصياته التي كان يعتبرها خطا أحمر، لم تيأس بعض النفوس التي أصبحت مريضة ومهووسة بحال العم لَسعد حيث يقومون أحيانا بتحريض بعض الرعاع عليه ليسبوه أمام الملأ وتذكيره بمصدر ثروته التي لم تخلق منه أبدا شخصا كريما. في حين لم يكن أحد يتجرأ على الجندوبي في حضوره بل العكس الكل كان يتملق له ويسعى إلى كسب وده رغم أنه متهم أيضا بالعثور على كنز كبير.

– خوذها من الغني إلا جاع وماتخذهاش من الجيعان إلا شبع، تقعد طول عمرك جيعان حتى كان ملكت المليارات.

هكذا كانت تنتهي دوما أحاديث الناس في المقارنة بين الجندوبي والعم لسعد في مقاهي وشوارع المدينة.

الفصل 2

رابح وحلم التّغيير

«كثيرون يُفكّرون في تغيير العالم
لكن لا أحد يُفكّر في تغيير نفسه»

ليوتولتسوي

كان من أكثر الناس اهتماما ونقمة على العم لَسعد هو جاره الأستاذ رابح، رجل متزوج أب لثلاث أبناء فتاتين وابن اسماه اسكندر تيمنا بالإسكندر المقدوني، لم يسقط هذا الحسد والاهتمام بالعم لَسعد عند الأستاذ رابح بفعل التقادم بل ازداد أكثر ليتخذ صورا وأشكالا لا تخطر على البال. لم يكن الأستاذ رابح وهو أستاذ لمادة الفيزياء بمعهد الثانوي الفارابي في المرناقية. رجل طويل أبيض البشرة عينان زرقاوان صاحب نكتة محبوب لدى كل رواد مقهى القدس من النادل إلى كل الأساتذة الزملاء الذين يتخذون من هذا المقهى ناد لهم يلعبون فيه لعبة حجر «الديمنو» والورق، في أيام العطل وساعات الراحة الكثيرة، لم يكن الأستاذ رابح يُخفي استياءه وحسده لجاره لَسعد أمام زملائه ولم يكن يتحرج من قول ذلك أمام الملأ أيضا، حيث اعتبر غِناه الفاحش والمفاجئ علامة من علامات

الساعة التي يتساوى فيها الرعاع والجهلة بِعلية القوم ونُخبته في كل شيء والأكثر من ذلك يتفوقون عليهم ويعيشون في بحبوحة من العيش لا تتناسب مع مؤهلاتهم وتحصيلهم العلمي. كان سي رابح يُعبر عن ذلك باستياء وسُخط كبيرين مستعملا في ذلك كلمات نابية لا تليق بأستاذ.

– واحد جاهل مْنَيَّك عايش خير من ز... أنا هذاك لي مزال مالا عيشة وملا بلاد معادش القراية والثقافة توكل فيها الخبز.

كل أصدقاء الأستاذ رابح كانوا على علم بموقفه من جاره الذي تُساعد على تغذيته وتقويته زوجته في البيت بوشوشتها التي غذت ذلك الحنق وقَوتْه، إذ تحرص مريم أو مريومة كما تُناديها كل نسوة نهج الخضراء، على أن تنقل لزوجها كل أخبار الجيران كل يوم وخصوصا أخبار الجار لَسعد الجديدة، مقتنياته ملابس زوجته الفاخرة ..

– اليوم جاب قاجو غلة وفخذ علوش ريحة الجلبانة بالعلوش تسطع احنا الدجاج الأبيض هر لينا معدتنا ملا عيشة.

لم تكن زوجة الأستاذ رابح تكتفي بمراقبة تحركات الجار من النافذة خِلسة فحسب بل استنفرت كلّ حواسها، السمع والشم... كما استعانت ببعض النسوة الاخريات ممن يشاركنها حقدها على أُسرة العم لسعد لمعرفة كل ما جد من أخبار الجار الغير مرغوب فيه، لم يكن زوجها الأستاذ ينهاها عن ذلك، شكّل استماعه لها بكل اهتمام لأدق التفاصيل التي تنقُلها له عن حياة الجيران مزيدا من التشجيع لها للتفنن في البحث عن وسائل جديدة لرصد كل صغيرة وكبيرة في منزل الجار.

كما لم تكن العلاقة حميمية بين الأسرتين طوال عشرين سنة من

التجاور حرص كلا الطرفين على تجنب الآخر وزاد على ذلك عادات وتقاليد سكان المدينة الجديدة في الأفراح والأتراح حيث يتشاركون أفراحهم وأتراحهم في الشوارع، يتم إخراج مجموعة من الكراسي إلى الشارع في الأفراح والأتراح حيث يجلس الرجال بينما تدخل النسوة إلى المنازل، هذا ينطبق على جميع المناسبات الحزينة والمفرحة بل حتى العشاء يُقدم في الشارع إذ يتم إغلاقه في وجه المارة لتنصب فيه موائد أكل الضيوف، لا يتم تبادل الزيارات العائلية بين الرجال إلا في نطاق ضيق جدا وعائلي في أغلب الأحيان.

تستغرب أحيانا ألا يدخل الأخ لبيت أخيه لمدة طويلة، ظل الشارع هو القاسم المشترك لأغلب سكان المدينة في أفراحهم وأتراحهم بينما شكلت المقاهي مقرا لالتقاء الرجال بامتياز. لا يكتفي الأستاذ رابح بالاستماع فقط بل كان يُمني النفس بأن تلتقط زوجته خبرا طائشا عن سر الثروة والكنز في حديث العم لسعد وزوجته عَلّ ذلك يُشفي غليله ويؤكد النظرية التي أصبحت شعاره وشعار جَمْع من الناس غفير في المدينة.

– باش تولي لا باس في البلاد هاذي يلزمك حفرة باهية ولا ورقة رابحة أما الباقي زايد.

يا للمأساة عشرون سنة من التصنت والتجسس ولم تُشف فيها الزوجة غليل زوجها، لم تُوفق لتحمل له ما ينتظره من أخبار حول سر الثروة، تُعبر أحيانا عن فشلها بسخط مُحملة الجار لَسْعد وعائلته المسؤولية في ذلك.

– أنا مانيش عارفة كيفاش يتحدثوا بالكشي بكاكش السخط على ريوسهم مالا هَمْ جُم وتْرَصُّوا بحذانا.

رغم استعانتها بكل نساء الحي اللواتي كن يشاركنها اهتمامها

بزوجة العم لسعد القادمة الجديدة التي تفوقت عليهن في أشياء كثيرة، في اللباس، الخادمة التي تقضي كل شؤونها في الداخل والخارج، الحلي الذهبية التي تحرص على التزين بها بمناسبة أو بدونها...، لكنها رغم ذلك لا ولن ترقى في نظرهن إلى مستوى السيدة المحترمة التي يليق بها أن تقطن نهج الخضراء وتُعاشر نسائه المثقفات اللواتي يتكلمن لغة ثانية، في الغالب يكون كلامهن خليط بين العربي والفرنسية دلالة رُقي وتقدم، في أحيان كثيرة يعترفن بغلاء ما ترتديه زوجة العم لسعد لكنهن في المقابل يشرن إلى ما ينقصه من تناسق وذوق تفتقده أُسرة العم لسعد والذي يبقى منحصرا على عِلية القوم ولا يكتسبه كل الناس ومنهم العم لسعد وأسرته.

– تبقى قُعرة تلبس الحرير وما يواتيهاش زايد القُعر قُعر.

كل هذا جعل من أُسرة العم لسعد أسرة منطوية على نفسها داخل النهج اقتصرت علاقتهم مع باقي السكان على تبادل تحايا الصباح والمساء والمشاركات المستعجلة في الأفراح والأتراح بشكل غير رسمي لا يعكس ما يجب أن تكون عليه علاقة الجيرة بين الطرفين.

كان الأستاذ رابح أول من أخبر العم لسعد بأن ابنه كسول لا يُرجى شفاءه عندما استنجد به الأخير لينصحه ويُشير عليه، رفض سي رابح بشكل قاطع وفظ إعطائه دروس خصوصية رغم العرض المادي المغري الذي قدمه له العم لسعد.

– زايد راسو رزين مايستوعبش من غير ما تخسر فلوسك.

قالها سي رابح بتأفف كبير وصل إلى حد التقزيم.

اشتم العم لسعد رائحة الاستهزاء في نبرة وكلام الأستاذ مما

جعله يُصر أكثر على استشارة من هُم أعلى درجة منه، بل هذا ما دفعه للتمسك بمتابعة مشروعه في أن يخلق من ابنه تلميذا نجيبا مُتحديا بذلك الجار رابح. كان العم لسعد يُمني النفس بأن يُقيم لابنه حفلة كبيرة يذبح فيها عجلا إن هو تمكن من اجتياز امتحان البكالوريا كما وعده بسيارة كهدية إن هو حقق المُراد.

لم يكن كل هذا ليُغير من كسل أشرف أو ليشكل له حافزا بل جاءت ضغوط أبيه عليه وخيمة النتائج، بدأت بوادر اضطرابات نفسية ونوبات هستيرية تظهر على أشرف حيث نصح الأطباء العم لسعد بأن يَكُف الضغط المسلط على ابنه حفاظا على صحته. بعد هذا التحذير والنوبات الهستيرية المتتالية التي أصيب بها الابن، غض الحاج لسعد الطرف عن موضوع الباكالوريا وهو يلوم نفسه لعدم استماعه لنصيحة جاره الأستاذ والتي حَمّلها من سوء الظن ما لم يقصده سي رابح ربما حسب اعتقاده.

تكفيرا عن ذنبه وسوء ظنونه شارك أُسرة الأستاذ رابح احتفالاتهم بمناسبة حصول اسكندر على البكالوريا بتقدير حسن وهو عينه ما جعل سي رابح يتفاخر ويتبجح بذلك طوال العطلة الصيفية لذاك العام. أهدى الحاج لسعد لإسكندر ظرف يحتوي على مبلغ مائتي دينار كانت كافية لتصبح حديث الأسرة بكاملها لشهر كامل.

– بابا شوف عم لسعد جارنا قداش عطاني؟

– محسوب قداش، واحد جيفة قرناط، عشرة آلاف.

– لا بابا مائتين دينار.

اتسعت عينا سي رابح لم يُصدق وهو يَعُد المبلغ، رغم ذلك لم يعتبر سي رابح تصرف جاره تصرفا نبيلا يستحق التقدير والشكر

والثناء، اعتبره استفزازا ورغبة من الأخير استعراض عضلاته وغِناه عليهم، لم يكتف سي رباح بذلك بل حَمّلته ظُنونه إلى أبعد من ذلك لِيتهم الجار برغبته سرقة نجاح ابنهم بل سرقته هو شخصيا عبر إغراءه بالمال ليُفكر في الارتباط بإحدى بناته.

– اسمع انت إسكندر، بينك وبين بنات لسعد حاجة. قولي؟

– والله بابا لا، والله لا.

– اسمع والله نحس بلّي تكذب عليّ نهارك أزرق هذاك لي مازال تاخو بنت واحد جاهل قُعْر.

ارتبط حقد واهتمام سي رابح بجاره بوضعه المادي فكلما كان هذا الأخير في وضع سيء نتيجة الالتزامات الكثيرة للأسرة وغلاء المعيشة الذي أصبح يتصاعد بشكل سريع ومُلفت للانتباه. كان اهتمامه وحقده على جاره يتزايدا ويتفاقم كأنه بذلك يريد أن يُعطي الحق لنفسه في تقاسم ما يملكه الآخر بل يُحمله وأمثاله مسؤولية ما ألت اليه أوضاع النخبة المثقفة في البلاد والطبقة المتوسطة عموما التي بدأت تفقد قدرتها الشرائية تدريجيا.

كان سي رابح يعقد أمال كثيرة على ابنه اسكندر الذي كان يتابع دراسته في معهد الهندسة بمدينة أريانة «INSAT» ليُصاب بصدمة ألزمته الفراش لأسبوع كامل بعد أن تم طرد ابنه من المعهد لعدم حصوله على المعدل الكافي لمتابعة دراسة الهندسة في المعهد العمومي كان هذا أكبر من طاقة تحمل سي رابح، لم يقوَ على إخبار عائلته الكبيرة وأعز أصدقائه بِصدمته في ابنه. وأُعطيت الأوامر الصارمة في اجتماع سري للعائلة الصغيرة، على اعتبار هذا الأمر لم يكن ولم يحصل بتاتا.

– ما نحبش الجن الأزرق يسمع بالخبار اسكندر باش يتخرج

إن شاء الله مهندس.

–كيفاش بابا زعمة تنجم المصاريف نتاع المعهد الخاص راك تخدم وحدك.

–ربي يْقَويني هَاوْ في بالك كي تتخرج إن شاء الله تْهز معايا وذن القُفة شوية.

–هذا كلام بابا نتخرج إن شاء الله نخدم شهريتي كلها ليك.

وهو يقوم من مقامه مُقبلا رأس أبيه ووجنتيه في حب ظاهر أسال هذا المشهد دمع مريومة.

–ربي يفضلك لي يا راجلي يا تاج راسي ويفضلك لوليداتك الله لا ينحيك علينا.

تَقَرر إلحاق اسكندر بمعهد خاص للهندسة ليتخرج منه بعد سنتين مهندس إعلامية. كلف هذا سي رابح الشيء الكثير حيث تنازل عن أهم مبدأ من مبادئ حياته الذي كان يُشكل نقطة مُضيئة في تاريخ ومسيرة تدريسه لمادة الفيزياء.

كان سي رابح يرفض رفضا باتا إعطاء دروس خصوصية بمُقابل، لم يكتف بذلك بل كان يتهم زملاءه من الأساتذة ممن يمتهنون هذه المهنة بالمرتزقة والمحسوبين ظُلما وعدوانا على مهنة التعليم الشريفة، لم يجد سي رابح ما يُبرر به تراجعه المفاجئ أمام زملائه حيث شكل إعلان رغبته إعطاء دروس خصوصية حديث معاهد المرناقية الثلاث لتلك السنة، هذه التضحية الكبيرة لم يُقابلها اسكندر باعتراف وإحساس بتأنيب الضمير بل قابلها بمزيد من الرغبات والاحتياجات التي فرضها عليه انتماؤه لمعهد خاص حيث يدرس أبناء الطبقة البرجوازية، أصبح اسكندر لا يرضى بلباس عادي كما أصبح يختار من الماركات العالمية ما يضمن له

صورة مُشرفة أمام زملائه وزميلاته ويحرص على أن يذهب إلى المعهد بسيارة أبيه «بوجو 205» لم يكن أمام الأب المسكين إلا الرضوخ لطلبات ابنه المتزايدة وهو يأمل أن يُخفف عنه تخرجه بعضا من متاعبه، كان يعقد الآمال الكبيرة على تخرجه ليتحمل عنه جزء من مسؤولية البيت.

– يتخرج إسكندر نرتاح نتفرهد نهز المراكل عام نمشي نحوس من بلاد لبلاد يزي من التعب.

في حين لم يحرص اسكندر أن يكون كما يريده أبوه أن يكون. شاب عصري مثقف يحمل مشعل العائلة ليُخرجها من الوضع التي هي عليه وينقلها إلى مكانها الصحيح حيث كان يأمل الأستاذ أن تكون. سي رابح لم يكن يحب مدينة المرناقية، كانت أمنيته أن ينتقل في آخر أيامه للسكن في أحد الأحياء الراقية حيث يجب أن يعيش لولا سوء الحظ الذي لازمه وجعله وهو الذي وُلِد وتربى في أزقة المدينة العتيقة في تونس حيث كان تسكن الناس «البلدية» أن يرضى بالسكن في مدينة متواضعة كالمرناقية أقرب إلى القرية منها إلى المدينة.

سي رابح ربّى أولاده الإناث والذكور على أن يعتبروا أبناء المرناقية أقل درجة ومستوى منهم وبالخصوص أبناء عم لَسعد. هذا ما جعل من علاقة اسكندر وأشرف علاقة محدودة رغم أنهما تشاركا مقاعد الدراسة في السنة تاسعة أساسي. الكل كان يتصور اسكندر مهندسا ماهرا لسنوات عديدة لم يكن يُنادى إلا بهذا الاسم داخل الأسرة.

– مهندس العائلة.

في تلك الفترة بعد تخرج اسكندر بأكثر من سنة والذي لم

يحمل تخرجه للعائلة أي شيء جديد أصبح يعيش لنفسه ولنزواته. في عطل الصيف بعد أن ينقطع مورد الدروس الخصوصية وفي مقهى القدس بعد صلاة العصر التي يحرص سي رابح على أدائها في المسجد العتيق. بعد الصلاة يمر على بائع السجائر «القُمرق» ليشتري علبة سجائر «كريستال» يتخلص من العلبة بكل حقد وهو يلعن في سره هذا الانحطاط الذي لم يكن في الحسبان لتتخذ سجائر الكريستال مكانها في علبة أخرى غالبا ما تكون «مارس خفيف».

لم يعد سي رابح يترك علبة سجائره فوق الطاولة كما كان يفعل سابقا ليس لبُخل فيه ولكن مخافة أن يتذوق أحد زملائه نكهة السيجارة الجديدة ويعرف حقيقتها، بعد ذلك يتجه إلى مقهى القدس حيث يسبق جميع أصدقاءه ليختلي بنفسه ويعيد تقييم وضعه الجديد الذي لم يكن في الحسبان لساعة كاملة تحت شجرة الياسمين اعتاد طوال الشهر الأول من الصيف أن يجلس وحيدا قبل مجيء أصدقائه.

تذكر كيف تتبخر أحلامه كل سنة تذكر كيف أنه لم يتمكن من صرف راتبه بشكل كامل منذ خمس وعشرون سنة، راتب تتشارك فيه معه البنك وبعض المؤسسات التجارية، تذكر كيف انزلق رغم إرادته وأصبح رهينا للوكالة البنكية، كيف يقف كل نصف شهر ذليلا يتكلم بهمس مخافة أن يسمعه أحد وهو يطلب سُلفة على الراتب الذي لم يتمكن من الظفر به كاملا منذ أمد بعيد جدا.

كيف مَنى النفس والمني بأن يتخلص من هذه البوتقة وعنق الزجاجة كما كان يُسميها كل سنة لكن دون جدوى، في الأخير تشبث باسكندر كان أمله فيه كبيرا، كان يُمني النفس عند تخرجه أن يرتاح أن يُسافر كل سنة ليزور مجموعة من البلدان التي كان

يحلم بزيارتها. فرنسا، المغرب، تركيا، الحج... الآن فقط يكتشف أن اسكندر يعيش لنفسه أناني، كل برامجه كانت جاهزة لا مكان لأبيه وأمه فيها كل ما استطاع تقديمه للأسرة بعد تخرجه واشتغاله أنه اشترى لاقط هوائي بالتقسيط المريح من مغازة البيت السعيد للتجهيزات المنزلية بالمرناقية. كل ما طُلبت منه مساعدة أو مساهمة مادية في شؤون البيت الكثيرة يتذرع.

– مازال نخلص كمبيالة الباربول مائة دينار كل شهر يحب لي عام نخلص فيه راه والله لا عندي.

والأكثر من ذلك لازال اسكندر يطلب المساعدة المادية من أبيه في أحيان كثيرة معتبرا إياها حق مشروع، تذكر كيف كان يعيش قبل مَجيء العم لسعد إلى النهج كان غالبية سكان النهج مرتاحي البال بما يملكون.

غيّر مجيء العم لسعد وجه نهج حي الخضراء أدخل الجميع دون قصد أو وعي منه في سباق محموم لم ينته بعد. عندما حَوّل تصميم منزله إلى فيلا على النسق الغربي، تذكر سي رابح كيف تسابق سكان النهج إلى تقليده من يملك المال ومن لا يملكه. أعلن العم لسعد بدء السباق المجنون كان أول من غيّر تصميم منازل نهج الخضراء التابعة للوكالة الوطنية للسكنى.

كانت المباني عند بنائها سنة 1969 ذات تصميم عربي قديم مدخل كبير تُزينه أحجار «البرمقلي» يحملك إلى فناء غالبا ما تتوسطه شجرة «الليمون» مُحاطة بغرف ثلاث وبيت راحة ومطبخ، لم يكن الفناء مُغطى كان تصميم المنازل وفق المناخ التونسي الذي يغلب عليه طابع الحرارة تصميم قديم حيث كانت تُسمى المنازل «بالحُوش» لم يكتف عم لسعد بتغيير تصميم المنزل بل كان أول

من أضاف دورا آخر لمنزله حيث أصبح مميزا وجميلا كالمنازل الغربية التي نشاهدها في التلفاز. غدا تصميم وشكل منزله حديث سكان النهج والمدينة ككل تسارع الكل للحذو حذوه بما فيهم سي رابح الذي لم يعثر على كنز كان يملك فقط مرتبه.

هنا كانت بداية الانزلاق الكبير انزلق للقروض القرض تلو الآخر قرض بناء منزل، قرض شراء سيارة، قرض تأثيث منزل... أصبح انتظار القرض هو الحل لأي مشكلة أو التزام يعترض طريق العائلة. والآن الكل ينتظر انتهاء القرض القديم والكل يتسارع ليحتكر القرض الجديد لنفسه، الابنة الصغرى تريد أن تُكمل دراستها في أوربا وتعتبر نفسها هي الأولى بهذا القرض، بينما اسكندر لازال يعتبر نفسه الوريث الشرعي لكل شيء. تعرف على أميرة فتاة من باردو تسكن في نهج البرتقال اعتبر موافقتها السكن في مدينة المرناقية والارتباط به تنازلا كبيرا منها، اسكندر يريد من سي رابح أن يُساعده في بناء الدور الأول للمنزل ليتخذه سكنا هو وزوجة المستقبل.

– بابا قريب القرض نتاعك يوفى ماو؟

– علاش تسأل؟

– ماك تعرف باش نبني الفوق نحبك تعاوني.

– مايزيش خذيت الكرهبة باش ناخذ ليك قرض.

– لا بابا الكرهبة باش نرجعها ليك خاطر باش نعمل قرض ناخو به كرهبة جديدة.

– لي باش تاخو به كرهبة جديدة ابني بيه مش خير وهاهي كرهبتي شكون حازها عليك.

– لا عاد بابا أميرة تحب كرهبة جديدة من الجدُد يفتقو تحبها من الباكو في قراطسها.

– لا من ناحية يفتقوا يفتقوا ولدي أما .... خليني ساكت واكهو.

اسكندر يفكر في إقامة حفل خطوبة في قاعة أفراح غالية تليق بمقام العروسة التي اشترطت خاتما من الماس. الكل يعيش من أجل نفسه من أجل أحلامه. ابنته البكر تخرجت معلمة كان كل شيء جاهزا في مخيلتها قبل التخرج، العريس، مكان العرس كأنه غير موجود في حسابات أبنائه وأحلامهم كل ما كان مطلوبا منه موافقة شكلية وأن يدفع.

يُعبر على ذلك بسخط كبير أمام أصدقائه لم يعد يتحرج من قول أشياء كان إلى الأمس القريب لا يجرؤ على البوح بها لكنه شعر مؤخرا أنه سينفجر إن لم يُخرج بعض ما يُؤرقه إن لم يقُله أمام الملأ كان يحتاج إلى من يُخفف عنه ولو بكلمة.

– أنا أُوجد فقط حيث يكون مطلوبا مني أن أدفع أن أُعطي تمنيت أن أحظى بفرصة الأخذ لكنها على ما يبدو لن تأتي أبدا لم أكن حاضرا في أحلام وبرامج أحدا من ابنائي أين يكمن الداء؟

في تربيتي أم أن الأمور خرجت على السيطرة بهذا الشكل المريع، في الليل لا تتركني ابنتي نور قبل أن تحصل على وعد مسبق بمساعدتها وفتح حساب بنكي خاص بها كضمان لاستكمال دراستها في الخارج أحيانا تتشاجر هي واسكندر أمامي كأنني غنيمة يريد كل واحد أن يستأثر بها لنفسه.

– يزيك انت إسكندر بابا قراك في البريفي خلي الفرصة لغيرك زح.

– سكري جلغتك أنت وقتاش تتكلمي قراي هنا كيما قرينا احنا الكل ملا ريق.

– دبر على روحك وعلى خطيبتك مش عليّ أنا ولا أنت غاير مني خاطر باش نتخرج طبيبة.

– اش تقصد والله...

تهرب الأخرى تحتمي بأمها كأنني غير موجود أصبح ينحصر وجودي فيما سأقدمه. ولمن؟ بنتي البكر تزوجت مباشرة بعد حصولها على عمل وانجبت وجعلت من منزلي حضانة لابنها ومن أمها مربية دون مقابل وأصبح مطلوبا منا في أحيان كثيرة أن نشتري الحليب والحفاظات ونستدعي الطبيب إن لزم الأمر في أحيان أُخرى. ليست هذه هي الحياة التي حلمت بها. ليس هؤلاء هم الأبناء الذين تصورتهم، أية لعنة تلاحقني؟

عندما تخرج سي رابح أستاذا لمادة الفيزياء كان يعتقد بأنه سيُغير العالم وأن طريق السعادة أصبح متاحا أمامه دون حواجز، رفض في بداية زواجه أن تشتغل زوجته باعتباره قادر على تلبية كل متطلبات البيت الآن زوجته في هذا العمر بعد أن اشتد الضغط الذي لم يَخِفْ يوما تُفكر أن تلتحق بمعمل الجندوبي لتشتغل هناك ضاربة عرض الحائط كل تعليمات وأوامر زوجها.

– الخدمة ماشي عيب العيب هي نقعدوا محتاجين واحنا نخزرو.

– لا لالة تخدمي في العمر هذا خدامة في معمل عيب وعيب برشة علاش ولادك مايعونوش.

– ها هم قدامك احكي معاهم.

لم يعلق أحد من الأولاد على رغبة الأم في العمل بل اعتبروه

شيئا عادي لملأ الفراغ الذي تُعاني منه الأم حسب رأيهم.

الفراغ نحن في هذا العمر نُعاني من الاحتياج وليس الفراغ الغلاء في تصاعد مستمر بينما المرتب يمشي في خطى السلحفاة يتسابق مع الحلزون هل يريدون منا أن نصدق أن السلحفاة يمكن أن تسبق الأرنب، الآن اكتشفت المغزى الحقيقي من هذه القصة وما هو المقصود منها. يجب ألا تتوقف عن العمل أبدا أبدا بينما الأرنب يلعب، يلهو، ينام يضاجع...، أنت مطلوب منك ألا تتوقف بتاتا هذا ما يجعلك فقط تملك فرصة الوصول إلى خط النهاية مهدود الحيل خائر القِوى بينما يملك الأرنب فُرصا أكثر منك بكثير في أن يجتاز الخط وقتما يشاء عندما يَمل من اللعب واللهو...

أنا الآن وأمثالي كُثر في كل البلدان التي تتشابه وفي البلد الذي أعيش فيها على مقربة من خط النهاية مهدود الحيل أدور في دوامة تسحبني إلى القاع. لم يعد يفصلني عن التقاعد إلا سنة واحدة. مطلوب مني أن أُسلّم آخر أسلحتي وأعيش على الكفاف، مطلوب مني أن أمنح جُهدي وبعض من مُرتبي لأحد ابنائي والذي لا يكفي لتلبية احتياجاتهما معا، مطلوب مني أن اخسر وُد أحداهما مطلوب مني... لا أحد يستمع لطلباتي لصراخي لآلامي. اسكندر عقدة حياتي ابني الذكر الوحيد في مجتمع ذكوري بامتياز.

– من منحه الحق أن يتصرف بأنه مالك كل شيء؟

– هل هي ثقافة مجتمعنا؟

– أم إنني أحصد ما زرعت؟

ابني الذكر يعتبر كل ما أملك مِلكا له السيارة، المنـزل، المرتب. عندما يتكلم أمام خطيبته وأصدقائه.

– بداري بكرهبتي الحمد لله.

أنا رابح المتعلم والمثقف حسب اعتقادي أنا رابح أستاذ الفيزياء أملك الحل لكنني لا أملك الإرادة لتنفيذه. أعتقد، لا أنا مُتأكد، أن سبب بَليتي جُبني وخوفي من الآخرين أو بالضبط ما سيقوله عني الآخرين، أنا لا أعيش لنفسي أعيش كي يرى الآخر، كيف أعيش كي يحدد لي الآخر. هل أنا سعيد أم لا؟ هو من يُحدد ذلك. الآخر الذي يعيش بيننا يُراقبنا يسكن مُخيلتنا يتغلغل فيها، قد يتفق جميع من يرى الصورة الكاذبة على سعادتي بينما أتألم من الداخل. الآن أنا منهار ومُدمر وكل الناس بل أغلبهم يحسدونني ومن لا يحسدني يغبطني.

– اِحمد ربي سي رابح عرست لأولادك ناجحين في قرايتهم ولدك تخرج مهندس بنتك أستاذة ومعرسة دارك ملك آش تحب؟

في هذا العالم الذي تشوه فيه كل شيء لن يسمعك أحد لن يستمع أحد لصراخك أبدا أبدا لأن الصورة الكاذبة طغت على الحقيقة لم اشترِ لباسا جديدا منذ ثلاث سنوات، منذ أن قررت تلبية نداء البهرج الخداع. التضحية بأحلامي بنسق عيشي الذي كنت وقتها مسيطرا عليه على الأقل بنسبة كبيرة من أجل أن ينال ابني وظيفة ولقب مهندس.

شكل اللباس المستعمل لباس «الفريب» من معمل الجندوبي كل مقتنياتي لم أعد قادرا على الاصطياف في شواطئ بلادي الجميلة اكتفيت بمقهى القدس الحارة في المرناقية بينما اسكندر يتمتع في الفنادق هو وخطيبته دون أن يُكلف نفسه مشقة التفكير فيما نحن فيه وعليه.

أتلقى دعوة من ابنتي كل صيف لنشاركهم منـزلهم الذي

استأجروه في إحدى الشواطئ لتعمل زوجتي هناك خادمة تطبخ وتكنس وتغسل أصبحت هي الأخرى تتفادى تلبية الدعوة لا تتكلم لم تشتكِ لكن صمتها يُعبر عن كل آلامها بوضوح يُغني عن أي كلام. ومع ذلك لم يفهم أبنائنا بُكائنا الصامت كان من الممكن لولا جُبني لو أنني لم أتلقَ تربية عَليلة تجعلني احترق من أجل كل ما هو مُزيف احترق فقط لأنني أخاف ما سيقوله الآخرون. الحل أن أبيع منزلي نعم هذا يكفي، راودتني الفكرة أكثر من مرة أبيعه وأتمتع بثمنه أنا وزوجتي أُسافر استأجر بيتا صغيرا في مكان منعزل حيث لا يعرفني أحد، أصوات في داخلي ظلت لأشهر تهتف هكذا مرة تجرأت وسألت السمسار عن ثمنه.

– دارك سي رابح ثروة يفوت توا ستين سبعين مليون.

مبلغ كاف سيجعلني أتخلص من بؤسي دفعة واحدة مبلغ كاف سيجعلني أعيش ما تبقى لي من عمر في سلام وأمان مبلغ قادر على أن يُترجم كل أحلامي ويجعلها حقيقة تُعاش على الأرض، لكننا شعب أدمن الحرمان والشقاء أصبح جزء منا لا يستطيع العيش دونه يُكبلنا يجعلنا دون إرادة نرى الحل أمامنا واضحا جليا وضوح الشمس يُنير لنا طريق السعادة ورغم ذلك نختار طريق العذاب، الشقاء والمتاعب ونحن نُدرك ذلك تمام الإدراك حتى أصبحنا نتلذذ متاعبنا وشقاءنا.

– هبلت يارجل تبيع دارك اش يقولو علينا الناس ماجبناش ولاد لا هذي قالتلهوم اسكتو.

– يامريومة الولاد قريناهم عملنا لي علينا هيا أنا وياك نشيخو شوية نحوسو نحجو تعبنا من حقنا نرتاحو.

– انت ظاهر خجيت وهبلت ياراجل أنا نخلي ولادي ف العمر

هذا ونمشي نتسرمح ونحوس من بلاد لبلاد لا لا لا هبلت.

زوجتي رفضت الاقتراح شكلا ومضمونا. اقتراح رفضته أنا مضمونا وإن كنت قد قبلته شكلا، أنتظر فقط من يُشجعني على رفضه استسلم لقدري أتوه وأتوه أفكر وأفكر وأعود لموضوع القرض الذي يُنتظر مني أن اتخذ فيه موقفا، قرارا واضحا، في المساء سأجد الكل يسألني عن قراري الجديد القديم لا أجيب. أكتفي بالصمت بينما الكل يتشاجر ويحاول إقناع الآخر بصحة وجهة نظره وصحة مشروعه، في الأيام الأخيرة طلب مني اسكندر أن أتنازل له كتابة عن الدور الأول الافتراضي الذي سيتم تشيده لأن أميرة خطيبته تريد أن تسكن في بيت يملكه زوجها ملكا حقيقيا.

– أميرة تحب دارها ملك سبحان الله الحياة فيها موت.

الكل يعطيه الحق في ذلك لست أدري من أي تشريع أُستمد هذا الحق، لم يستنكر أحد طلبه إلا قلبي هو الوحيد الذي اعتبر طلبه وقاحة قلبي اعتبر ذلك وقاحة لكن لساني لم يستطع أن ينطق ويُعبر عما يجول في قلبي، قلوبنا تغلي وتتمزق وألسنتنا تلهج بالشكر والرضا، أي انفصام نعيش فيه؟ زوجتي تعتبر وجود ابن ابنتنا في حضانتها أمام الجيران فرحة ملأت حياتها من جديد بينما تعتبر وجوده أمامي عبأ أثقل كاهلها.

– يزيني ما ربيت ربيتهم هم ونربي ولادهم يا شومي ما يحس بيك حد

–ماني قلت ليك وانت ماحبيتش تسمعي للكلام.

في هذا العمر الذي أحتاج فيه للراحة وأحتاج فيه إلى أنثى إلى امرأة تحسسني بوجودي كذكر كزوج. أعود لأجدها حطام امرأة ومع ذلك فهي دوما تحرص على إرضاء أبنائنا ولو كان ذلك على

حساب راحتها وراحتي كلامها معي يكون نوع يحمل ألف شكوى وتذمر وكلامها في وجودهم يكون نوعا آخر كله رضا بل تكون متحفزة ومستعدة للانقضاض عليّ مخافة أن أتذمر في وجودهم. في هذا الوقت والعمر الذي بِتُّ فيه في حاجة ماسة إلى دعمها ومواساتها. استأثر ابنائي بكل شيء بالحب والاهتمام لم أعد تحت تأثير الضغوط والاحتياج قادرا على أن أُعطيها الحب الذي تنتظره مني جعلها هذا أكثر استفزازا وغضبا أكثر من أي وقت آخر صرت عاجزا، صُودر كل شيء المرتب، القرض، المتعة، الإحساس بالراحة. أصبح كل شيء حِكرا على الأولاد ومن حقهم يجب أن ندفن أحاسيسنا رغباتنا من أجل أن يتمتعوا هم.

اسكندر يعود كل يوم متأخرا من العمل بسيارته الجديدة ورائحة العطر النفاذة تفوح منه تشمها على بعد أمتار تختلط بها رائحة خطيبته أميرة يحرصا على أن يتمتعا بكل وقتهما قبل الآوان، أميرة ذات الملامح والوجه اللغز تقف حائرا في تحديد ملامح وجهها عند رؤيتك لها أول مرة وهي بكامل زينتها لا تملك إلا الإعجاب بها كلما اقتربت أكثر اصطدمت بالحقيقة اكتشفت أن الملامح الحقيقية تتستر وراء أسطول كامل من المساحيق والعطور رموش مزيفة، حواجب منتوفة يعوضها شيء آخر حبر صباغة... أظافر اصطناعية، شعر يتغير لونه بتغير الفصول، كما يستحيل تحديد لون بشرة الوجه الحقيقية كل شيء اصطناعي.

أما الشيء الذي يجعلك تنشغل عن ملاحظة الحقيقة والتمعن فيها هو طريقة لباسها وطريقة كلامها المثيران يجعلانك تنشغل بهما دون سواهما عن رؤية والتدقيق في ملامح الوجه الحقيقية لا تستطيع أن تحدد طبيعة الملامح من لون البشرة، شكل العينين،

شكل الحواجب، لون الشعر، كل شيء قد طالته ألة التغيير حتى مخارج الحروف ليست طبيعية تقف مشدوها أول الأمر أمامها جسم مصقول تحرص على أن تُظهر كل ما هو مُثير فيه كل كبيرة وصغيرة نهر ثدييها يكون دائما مُطلا على من يُحدثها أو يقترب منها بلونه الأبيض الغض يجعلك في غنى عن التمعن في الوجه مباشرة تنتابك الرغبة في رؤية ما يوجد في الأسفل تصطدم بركبتين جميلتين لفخذين مكتنزين. كل لباسها فاضح ركبتاها عاريتان دوما خريفا، صيفا، شتاء.

أميرة هي زميلة اسكندر في المعهد الخاص الذي استنزف كل مُدخراتي وجعلني أسير القروض والديون وزميلته الآن في العمل، عندما تخرج اسكندر اعتقدت أنه سيتفرغ لمساعدتي لكنه لم يفعل حصل على وظيفة مهندس إعلامية في إحدى الشركات الأجنبية في ضفاف البحيرة بمساعدة صهر المستقبل الاستاذ الجامعي في مادة الإعلامية. ليصبح ابني أنا ابنهم هُم لم يعُد منزلي يُشكل بالنسبة له إلّا فندقا للنوم أو مكان للاستجمام هو وأميرة آخر كل شهر عندما يكون قد صرف كل مرتبه في الخرجات والنزهات وشراء الجديد في عالم الموضة والعطور.

يصحبها إلى المنزل يوم السبت يختلي بها في غرفته يعاشرها كأنهما زوج وزوجة دون أي شعور أو حرج أحيانا تصل إلينا أصوات تأوهاتهما وضحكهما، لا تتوانى أميرة في غنج ظاهر في أن تطلب من زوجتي أن تطبخ لها كل ما اشتهته حسب قولها من أكل عربي.

- والله خالتي مريم لي يجبني عندك نتوحش كسكسي نتاعك بلحم العلوش وحدك الحاصيلو.

-لا تجيبك العص... والز ...أكثر مش الكسكسي قح.. معيز.

يكون دوما هذا جوابي عندما استمع إلى تُرهاتها وهي تُثني على ما تقدمه لها زوجتي من طعام، جواب لا أجرؤ على قوله لأحد أكتفي به بيني وبين نفسي المتعبة.

تشترط أن يكون الكسكس بلحم الخروف كما تحبه الأميرة والذي يجب عليّ أن أدفع ثمنه، حيث أصبح يوم السبت من آخر كل شهر عيدا في منـزلي يحرص الجميع على حضور مأدبة الغذاء فيه ليـرمي أتعابه على كاهلي المتعب، تحضر ابنتي المتزوجة رفقة زوجها حيث تفضل أحيانا المبيت واسكندر وخطيبته التـي تحرص بدورها على استدعاء أمها معها أحيانا لتتذوق كسكسي أمي مريم الذي لا يُعلى عليه حسب رأيها.

أُمي مريم رغم أن زوجتي طلبت منها مرارا بأن تُناديها بمريومة لأنها أصبحت تُحس مع مرور الزمن أن اسم مريم غريب عنها ولأنها تحب أيضا اسم مريومة. لكن أميرة باردو الجديدة تُصر على تجاهل طلب بسيط كهذا، زوجتي لم تقم برد فعل تكتفي أحيانا بزم شفتيها يمينا ويسارا دلالة عدم الرضا فقط.

المطلوب منـي أن أُمثل دور الأب السعيد بالتفاف أبنائه حوله في مثل هذا اليوم السعيد لكنني لم أكن يوما سعيدا وهل يسعد من يقف أمام ولد عمارة الجزار ليقترض منه ثلاث كيلو غرام من لحم الخروف كل آخر شهر لتتعمق مأساتي أكثر. أحيانا أطلب من زوجتـي أن تُفاتح ابننا وتطلب منه بعض المال كمساعدة يتناهى إليّ صوته وهو يُبـرر لها حاله ووضعه المادي المزري.

– منين ماما والله لا عندي ف الروج أنا القرض نتاع الكرهبة ليسونس والدخان أنا نتسلف كل شهر باش نكمل الشهر.

اسكندر أصبح مسؤولا عن نفسه ومتعه فقط وفوق ذلك فهو

غير قادر على أن يُكمل الشهر دون قروض.

–ماذا سأقول أنا المسؤول عن بطون وأحلام ومُتع جيش كامل وأفواه عِدة؟ كيف انـزلقت هكذا؟ هل أُكذب ابني أم أُصدقه؟

هو ببساطة يعيش لنفسه ويعيش وِفْقَ نسق جيله من الشباب هكذا انحصرت وصُورت السعادة والمتعة، اندثـرت مجموعة من القيم لتفسح المجال أمام قيم وظواهر أخرى انتشرت انتشار الوباء بسرعة منقطعة النظيـر الكل يتهافت ويتسابق ورائها. كلنا نعيش في سباق مجنون مع الآخر نُحاول أن نظهر فيه بأننا الأفضل الأسعد نتستر وراء مجموعة من الأقنعة كل واحد فينا يحمل قناعه بل عدة أقنعة في جيبه يـرتدي المناسب منها حسب ما تفتضيه الظروف.

أنا رابح في الظاهر والخاسر بيني وبين نفسي لم أعد قادرا على التأقلم مع وضعي الحالي الذي يسوء يوما بعد يوم كما لم أعد قادرا على الاعتراف أمام الآخرين بفشلي بإفلاسي أحرص دوما على أن أظهر بأنني بخيـر بألف خيـر كل أصدقائي يعرفون أن علبة سجائري مزورة أقرأ ذلك في عيونهم ورغم ذلك أُصر دوما دون إرادة مني على أن استبدل العلبة رغم يقيني أنهم يعرفون الحقيقة، في حين يُصرون هم على التظاهر بعدم المعرفة لم يتجرأ أحد على قول الحقيقة أمامي عارية أُصر على إعطاء مبـررات واهية لكل شيء لا تُقنعني رغم اعتقادي أن لا أحد يقتنع بها أيضا ورغم ذلك أتمسك بها.

اختفت روح الدعابة من أحاديثي أحس في ساعات كثيرة إنني عبء على من حولي لم أعد قادرا على خلق حوار مُمتع كما كنت في السابق حيث كان الكل يتسابق لحجز مقعد في الطاولة التي أجلس فيها، الآن أحس أن هناك من يتحاشى مجالستي من الزملاء،

أصبحت انفعاليا وأغضب لأتفه الأسباب.

ابنتي نور الصغيرة المشاكسة هي التي تتكلم أحيانا بصوت مسموع لتعبر عما أفكر فيه، لكنها لا تلقى إلا القمع ممن حولها بل يكون مطلوبا مني في أحيان كثيرة أن أستهجن كلامها واعتبره غير لائق رغم إيماني التام بصدقه ورغبتي الدفينة في تزكيته وتبنيه.

– انت لالة شدي ولدك هزيه الحضانة أمي راهي تعبت.

– سكري جلغتك قليلة التربية شكون شكا ليك.

– أنت سي اسكندر كي يكون عندك الفلوس العشا في المطاعم مع لالة أميرة نتاعك كي تقين وتفلس العشا في دار سي رابح وزادة مع لالة أميرة مالة حالة ومالة رُجلة.

– والله نقوم نكسر ليك جلغتك بابا شد بنتك قليلة التربية هذه.

الفصل 3

بين الحال والإمكان

«أعمل كيف جارك ولاّ بدّل باب دارك»

مثل شعبي

كان سي خميس الرجل الخمسيني أصيل مدينة الفحص، زميلا لسي رابح في معهد الفارابي وأستاذا للغة العربية، ميسور الحال يقطن في حي «المستيري» في المرناقية، كان أول من تفطن لخلوات سي رابح. لم يتفطن الأخير لوجود زميله الذي حرص على مراقبته لأسبوع كامل دون أن يقتحم عليه خلوته، كان يتظاهر مع الساعة الخامسة بأنه جاء لتوه إلى المقهى مع بداية لعبة «حجر الديمنو» التي كان سي رابح بارعا فيها حيث يحرص كل الزملاء أن يكون شريك لهم في اللعبة، إلا أنه وفي هذا الصيف بالذات لاحظ الجميع شرود رابح أثناء اللعب، سي رابح الذي كانت تُعتبر خسارته في لعبة «الديمنو» سوء حظ فقط الآن أصبح يُعتبر انتصاره ضربة حظ إذ شكلت الهزائم المتتالية على الطاولة القاعدة ليشكل الانتصار الاستثناء.

– اشنو سي رابح نوليو نسموك سي خاسر على الدزة هذه.

– سمو لي يظهر ليكم عطاكم الوقت.

كان غالبا ما يعتذر عن متابعة اللعب ليفسح المجال لأحد زملائه الجدد ويكتفي بالمشاهدة.

– اشنو سي رابح اشنو أحوال جارك معادش تحكينا عليه وين وصل.

– نشوف وين وصلت أنا الساعة ومن بعد نتلهى بجاري.

– علاش مافيبالكش؟

– خيـر إن شاء الله.

– خطب لولدوا بنت البوزيـري باش يعملو حفلة تفتق في صالة صابـرين، ياخي مستدعاكش؟

– منك نسمع مازال ماجاني شيء أنا لتوا.

– خويا جماعة الكنوز يناسبو في بعضهم.

بعد صلاة العشاء في مسجد القدس كالعادة دائما يعود سي رابح إلى المنـزل ليجد زوجته بانتظاره في أحيان كثيـرة يتناولان وجبة العشاء وحدهما تكون نور عند صديقتها في حومة السوق بينما يعود اسكندر غالبا مع منتصف الليل تفوح منه رائحة جعة «السلتيا» وعطر أميـرة.

– ياخي جانا استدعاء نتاع خطوبة ولد لسعد جارنا؟

ارتبكت الزوجة لم تتوقع هذا السؤال وهي التـي توقفت منذ مدة عن سرد أخبار الجيـران لسي رابح وارتاحت كثيـرا لعدم سؤاله واستفساره المعتاد عن أحوالهم والجديد من أخبارهم.

– ايه جات، علاش ناوي تمشي؟

– وعلاش لا مش جيـران.

– خاطر اسكندر تغشش بـرشة كيسمع.

– علاش يتغشش سي اسكندر، اش مدخلو؟

– قال شوف بو أشرف آش عمل لولدو شرالو كرهبة وتوا خطوبة في أكبـر قاعة في الولاية مش كيفي حايـر في جرد خاتم لتوا مسكين. غاضو حالو.

توقف فجأة سي رابح عن الأكل احمر وجهه تطايـر الغضب من عينيه نظر إلى زوجته بكل حقد ولأول مرة ينظر إليها بكراهية.

– معناتها أنا رهنت روحي على خاطر سي شباب نتاعك وهو مش عاجبو.

– لا باهي ويقارن فيا بواحد جاهل آش عمل لولدو؟

– اش عملّي هو؟ نهار كل يتسرمح مع الق...ة نتاعو يأكل ويشرب هنا تقول في أوتيل لا نهار دخل في يدو كيلو غلة.

– والله باهي ومش عاجبو الحال اش عملتلو؟ أنا معملتش شيء ماقريتش ماسهرتش الليالي مانيش قاعد نضحي لتوى باش سيادتو يشيخ.

– صلي على النبي يا راجل صغيـر مازال ما يعرفش.

– اسكت عليّ إنت، إنت سبب البلا إنت خرّطهم عليّ. جيب يا رابح، ولادك يارابح، عاد شبيه يارابح، اعمل يارابح....

– ياراجل صلي على النبي كمل عشاك.

– أخرج عليّ خليني وحدي كان تعمل مزية.. أخرج عليّ

مانيش ناقص.

لم يعرف النوم طريقه ليلتها إلى سي رابح، في أوج غضبه اتخذ مجموعة من القرارات كانت الطريق واضحة وكان الحل واضحا أمامه لا يحتاج إلا إلى إرادة إلى عزيمة لتنفيذه، تذكر كيف انقلب حاله نتيجة السباق المجنون الذي أطلقه جاره لسعد.

حَمَلَ الجار لسعد معه إلى نهج الخضراء الرياح الغربية. كانت البداية عندما قُمنا بتغيير تصاميم منازلنا من التصميم العربي إلى الغربي، كنا نعتقد وقتها أننا غيرنا مجرد تصميم هندسي لكننا في الواقع تغير فينا كل شيء لم نعد كما كنا نعيش في مجموعة أصبح كل واحد يعيش من أجل ذاته فقط نفسه يعيش داخلها يعبدها ويتعبد فيها حتى في الأسرة الواحدة، الكل مُختلي بنفسه لم تتغير تصاميم المنازل فقط تغيرت النفوس والقلوب كل شيء تغير كنا في نهج الخضراء قبل هبوب الرياح الغربية نعيش كأسرة واحدة الآن داخل الأسرة الواحدة نعيش كالأغراب كل واحد يعيش لنفسه وينتظر من الآخر ما سيقدمه له فقط. قيمة الأشخاص تتحدد بما سيقدمونه من أشياء مادية لم يعد يهتم أحد بالعواطف بالمعاني...

اسكندر يحرص على أن يزور منزل خطيبته مُحملا بالهدايا والغلال والمكسرات، يعتبر ذلك من باب الأدب والبرتوكول لكن في المقابل لا يجد أي حرج في أن يدخل إلى بيت أبيه خاوي الوفاض بل أحيانا يتذمر لأن أمه لم تطبخ ما يعجبه ويشتهيه من الأكل.

ابني الذي كان لفترة كبيرة أملي حُلمي كنت أُريد أن أراه يحقق ما عجزت أنا عن تحقيقه أُريد أن أراه لامعا مهندسا كبيرا، احترقت أنا من أجل أن أُنير له طريقه أجعله نجما مُضيئا لكنني

الآن أراه أمامي قد ابتلع الطعم قبل الأوان يعيش لنفسه لملذاته لرغباته انحصر حدود اهتمامه فيها، لم أراه يُطالع كتابا يحضر منتدى ثقافيا يُطور مؤهلاته العلمية، كل ما يهمه. ماذا سيشتري من ملابس وعطور؟ أين سيقضي عطلة نهاية الأسبوع وليلة رأس السنة؟ أراه محتارا.

ماذا سيُهدي لأميرة في عيد ميلادها وعيد الحب؟

مُرتبه لا يكفيه وحده ومع ذلك يندب حظه كالنساء والأكثر من ذلك يُحملني المسؤولية بل يلعن الظروف التي جعلت منه ابنا لي هذه هي الحقيقة العارية لم يُقدر تضحياتي كفاحي من أجله والأتعس من ذلك يعتبرها دون المستوى المطلوب، يقارنني بالجار لَسْعد، الفاشل يتعلق بورقة قمار «برمسيور» لتُغير وضعه وتنقله إلى حيث يحلم، نَسِي كل ما يحمله من مؤهلات وشهادات أصبحت الورقة هي الحلم وهي الملاذ.

- هزُلت.

قلدنا قشور الغرب فقط لم نمتلك القدرة على فهم العمق لم نمتلك القدرة على كسب طريقة عيشهم منهجية تفكيرهم.

-كيف يخلقون من أشياء بسيطة سعادة؟

-كيف يمتلكون القدرة على صناعة المتعة؟

قلدنا قشور المتعة فقط الرجل الغربي لا ولن يسمح أن يبتزه أولاده بعد تَخرّجهم لن يسمح أن يصبح بيته حضانة لأحفاده، سيقول لهم بعد تخرجهم:

الآن عيشوا حياتكم بعيدا عني أتركوني أنْعَم ببعض السلام سيُسافر، سيطالع، سيعيش، ربما طَلّق زوجته أو طلقته هيَ ليكتشفا

وجها آخر للحياة، أولاده سيفهمون وسيتفهمون دون غضب ما طُلب منهم وسيتقبلونه بصدر رحب.

تخيل سي رابح حياته الجديدة وقد تحرر من عبء البالغين من أبنائه، تخيل نفسه في الصباح يقول لابنته كفى ابحثي عن حضانة لابنك أحتاج زوجتي أحتاجها لنفسي وهي تحتاج نفسها يجب أن تتمتع أن تستيقظ متأخرة أن... أن... أن... سأنتظر اسكندر وسأقول له يكفي هنا. يجب عليه أن يشق طريقه في حياته بعيدا عني يمكنه زيارتي في الأعياد في عطل نهاية الأسبوع، لن يعيش معي ولن أعيش لأجله هذا يكفي.

سأقول لنور إنني لن أحترق من أجل أحلامها التي ستهديها لرجل آخر في المستقبل لعل ملامحه حاضرة الآن في مخيلتها وهذا حق من حقوقها لا أُنكره عليها ولكن من حقي أنا أيضا أن أقول لها يجب أن تحلم وفق إمكانياتنا المتاحة لن أرتهن نفسي مجددا لن أتذلل في كل منتصف الشهر في الوكالة البنكية وأنا أطلب في ذل يشيب له شعر الرأس سُلفة على الراتب المسكين الممزق إربا إربا. مُرتبي يكفيني أنا وزوجتي أديت رسالتي وهذا يكفي.

عند منتصف الليل تفطن سي رابح أن علبة السجائر فارغة هذه الأيام العجاف لم تعد علبة سجائر واحدة تكفي لتُعدل مزاج سي رابح خرج من المنزل إلى فتحي «الحماص» المقابل للمسجد العتيق اشترى علبة كريستال أخرى وعاد أدراجه وهو مُصمم على مواجهة اسكندر والذي لحسن الحظ أو لسوئه لم يَعُد ليلتها فضل النوم في منزل خطيبته.

في الصباح حيث استيقظ سي رابح متأخرا على غير عادته، تركته مريومة إلى أن استفاق وحده نادما، طرد كل الهواجس والخواطر

التي راودته البارحة مُعتبرا إياها ساعات شيطانية يحظر فيها إبليس اللعين ليُدمر حياة الأسر السعيدة بِوسوسته.

- كيف يُعقل أن يطرد ابنه الوحيد من منزله؟

- كيف سولت له نفسه التفكير في ذلك مجرد التفكير في ارتكاب جريمة كهذه؟

- كيف؟

هذا جنون حقيقي كما تقول مريومة.

- هل يمكن أن يتصور يومه حياته دون رؤية إسكندر؟

- مُحال.

رؤيته تبعث في نفسه الروح والأمل إنه زمن عاهر وابنه على حق وصواب العيب ليس فيه ولا في ابنه، إنه زمن الجُهال زمن ابن لسعد الجاهل الأمي وأمثاله الكُثر. سيخطُب وسيُقيم حفلة خطوبة في قاعة كبيرة في فندق ربما بينما ابنه المهندس المثقف يقف عاجزا، واعتبر أنا وأمثالي أن ما يُنفقه إسراف، والأكثر من ذلك أنا الرجل المثقف ألومه واعتبره مسرفا مائعا.

- عن أي إسراف أتحدث؟

- أليس من حقه أن يمتلك سيارة؟

- أليس من حقه أن يحب؟

- أليس من حقه أن يتمتع بشبابه؟

ما نعتبره نحن إسراف وميوعة يعتبره غيرنا حق مكتسب.

- من المسؤول عن غياب هذه الحقوق؟

- من المسؤول عن مُصادرتها؟

– من يسرق فرحتنا بأبنائنا وفرحتهم بأنفسهم؟

مُرتب مهند س في بلادي لا يتجاوز ثمانمائة دينار عندما تُحوله إلى العملة الأجنبية تصطدم بقيمته الحقيقية لا تعدو أن تمثل هناك أقل من منحة البطالة. في حين علينا نحن أن نعيش منها أن نشتري بها نفس الأغراض والأشياء التي تُباع هناك بأرخص الأثمان. سهل أن تشتري سيارة صغيرة في بلاد الغرب في حين عليك هنا أن تتمتع بدعم البنك الدولي للحصول على واحدة في بلدنا الحبيب، نشتريها بأضعاف ما يشترونها به هم هناك ومرتباتهم أضعاف مرتباتنا. كيف يستقيم هذا الأمر؟ كيف يمكن للفرد أن يعيش بمرتب كهذا وسط هذه الإكراهات التي تصل إلى حد الابتزاز؟

– صباح الخير مريومة ياخي اسكندر مجاش البارح؟

– الحمد الله على سلامتك، كي صبحت لا باس؟

– الشيطان حضر مريومة سامحني.

– تحب الصراحة أنا كلمتو البارح قلتلو ما تروحش خاطر حسيتك تحب تعمل معاه عركة.

– أحسن ما عملت مريومة والله منين سكن جار النحس هذا بحدانا واحنا من مشكلة لاخرى كلها من جرايرو.

– ها ها ها جيت لكلامي قلت ليك راهم عيلة منحوسة منين شفناهم ما شفنا الربح.

– والله مريومة عندك الحق، وينو ادم ولد بنتي توحشتو نحب نبوسو.

في ذلك الصباح عاد سي رابح إلى رشده كما قالت مريومة، أرجعت الفضل في ذلك إلى بخور الصباح، حيث عمدت إلى تبخير

المنزل كله «بالفاسخ والوشق» طردا للأرواح الشريرة كما يبطلان تأثير أعين الحاسدين والشامتين التي تتربص بهم، يحسدونهم على تفوق أبنائها في دراستهم. وخصوصا أعين الجار لَسعد وزوجته وأولاده الذين لم يفرح أحد منهم بشهادة البكالوريا. كيف لا يحسدونها على أبنائها ويوم السبت من آخر كل شهر تصطف أمام المنزل ثلاث سيارات واحدة تعود إلى اسكندر والثانية لزوج ابنتها الأستاذ والثالثة لزوجها والأكثر من ذلك كل هذا من فضل الله ومجهوداتهم لم يعثروا على كنز،

ما حصل لزوجها أمس كان نتيجة عين حاسدة حقودة والدليل أن هذه البوادر تظهر دوما كلما اقترن الأمر بذكر العائلة المنحوسة، الحمد لله تخلصت منها بتبخيرة الصباح عاهدت مريومة نفسها كما اتهمتها بالتقصير في حماية أسرتها وبيتها، الكثيرات من الجارات يُعلقن حذوة حصان وعظام الحوت على أبواب المنازل ناهيك عن حجاب التحصين الذي حصلن عليه من عراف مغربي مشهور لدرء خطر أعين الحاسدين، عاهدت مريومة نفسها بأن تقوم بنثر حبات «السينوج» السوداء في مدخل البيت بل حرصت على وضع القليل منها في سترة زوجها. هذه الحبات المشهورة بفاعليتها وقوتها العظيمة في تحصين حاملها من العين والحسد.

بعد عودته من محل حلاقة النهج عند عادل الحلاق الصامت دائما والمتهم من قبل مريومة بعينيه الحسودتين. حضّرت له مريومة بيت الاستحمام بعد أن قامت بتبخيره وتبخير كل ملابسه.

– ويني لالة نور يا مريومة نحب نشوفها.

– نور باش تفيق توا يحبلها نص نهار باش تفيق مكوخرة تلوج على قهوة.

– خليها صحة لبنيتي حتى هي تعبت مسكينة من القراية إن شاء الله العام الجاي نفرحوا بها في الباك ونبعث بنتي تقرا وين ما تحب علاش الواحد يجري ويخدم مش على ولادو.

– والله يا سي رابح أولادنا تبارك الله ما كيفهم حد ديما مفرحينا قراية وتربية العباد الباك تلوج تشريه بالفلوس الحاصيلو فرحتو وحدها الله لا تحرم منها مؤمن.

في ذلك اليوم قرر سي رابح أن ينـزل عند رغبة ابنتهم للاصطياف معهم على شواطئ مدينة المعمورة وقرر أيضا أن يتخلص من كل الكوابيس والخواطر التـي تُراوده، وعقد العزم على أن يكون اليوم آخر يوم يختلي فيه بنفسه تحت شجرة الياسمين في مقهـى القدس، اليوم لن يلوم الظروف لن يفكر في أنانية ابنه اسكندر وابنته اليوم سيضع خطة لاقتحام مشاكله لمواجهتها تستحق عائلته الأفضل بل يستحق ابنه حياة كريمة تتوفر فيها كل مقومات السعادة والثـراء.

اليوم سيضع خطة عمل جديدة سيتخلص من كل المبادئ التـي كبلته لسنوات عديدة سيُضاعف حِصص دروس التقوية للتلاميذ بل سيبحث عن فرصة عمل آخر في مؤسسة خاصة يستطيع أن يتحصل على سنة مرضية في الموسم الدراسي القادم في المؤسسة العمومية إسوة بالكثير من الزملاء الذين كان يلومهم في السابق ويعتبرهم مرتزقة ومصاصي دماء، من أدراه ربما كانوا يعانون كما يعاني هو الآن الانحدار هو اضطرار أكثر منه اختيار، لم يختر سي رابح يوما أن ينحدر إلى هذا المستوى لكنه وجد نفسه مضطرا لذلك رُغما عنه. من يتحمل المسؤولية في ذلك؟

كفى مبادئ سامية التـي لا تُوّرث إلا الفقر والهم لن يخجل من الدروس الخصوصية لن يعتبـرها جريمة بل هي حق مكتسب

لكي تتم محاسبة رجل التعليم يجب أولا إنصافه الالتفات إليه وإلى مشاكله أصبح راتب رجل الشرطة الذي لا يتجاوز تحصيله الدراسي المستوى أساسي ورغم ذلك فمرتبه يكاد يُعادل مُرتب رجل التعليم. عن أي عدالة نتكلم أو يتكلمون هؤلاء الحمقى من السياسيين. أنا لست ضد مرتب رجل الشرطة ربما يستحق أكثـر من ذلك لكنني مع العدالة الاجتماعية الحقيقية التـي تُراعي وتُعطي قيمة حقيقية للمؤهل العلمي الذي بدأت قيمته تتبخر أمام سيطرت الجهال أمثال عم لسعد والمهربين على مراكز القرار والنخبة في البلاد.

بينما سي رابح غارق في أفكاره تحت شجرة الياسمين في مقهى القدس أيقظه زميله سي خميس.

– سي رابح وَحِد الله.

– لا إله إلا الله من وقتاش أنت هُوني سي خميس.

– كل نهار نشوفك وحدك مسافر تخمم ما نحبش نضايقك.

كانت علامة الامتعاض ظاهرة على مُحيا سي رابح ولم تكن لتخفى على رجل كسي خميس الذي لم ينتظر دعوة صديقه للجلوس.

– اسمع سي رابح نعرف راني قلقتك ونعرف تحب تقعد وحدك قبل ما يجيو الجماعة أما حاجتي بيك في موضوع مهم.

– صلي على النبـي يا راجل والله لا صار احنا صـحاب تفضل إن شاء الله خيـر.

– من غيـر مقدمات عندي مالية، كنـز نحب نشاركك فيه.

في الأول اعتقد سي رابح بأن صديقه يستهزأ به، قرأ أفكاره بل أحس بتأزم وضعه وهو الذي لم يُسدد له إلى حد الآن ما عليه من دين ويـريد أن يتلاعب بمشاعره.

– كيفاش طلعتها وتحب تشاركني فيها سي خميس هذا حديث توا.

– طول بالك شوية عليّ سي رابح أهو جايك الحديث.

– منك نسمع خويا تفضل.

الفصل 4

الحسين المغربي

سأل الممكن المستحيل: «أين تُقيم؟»
فأجابه: «في أحلام العاجز».

في نفس المقهى الذي اعتاد سي رابح أن يختلي فيها بنفسه وفي الركن المقابل لطاولة سي رابح وفي نفس الوقت. كان الحسين المغربي يجلس أيضا وحده مُختليا بنفسه، يُفكر في وضعه الذي لم يتغير ولن يتغير بناء على ما هو مُعاش حاليا، سنتين من العمل في المرناقية لا جديد لا تَقدّم يُذكر لا هنا ولا هناك في قرية «الكصيب» أصبحت العائلة الكبيرة كلّها عَالة على الحسين، الكل هناك ينتظر ما سيبعثه الحسين، ما سيُقدمه، كان عليه كل آخر شهر عندما يتحصل على مُرتبه أن يستقل الحافلة الصفراء رقم 23 «زينة وعزيزة» كما يُسمونها كل التونسيين إلى تونس المدينة في رحلة عذاب تستمر أكثر من ساعة لتقطع مسافة لا تتجاوز الخمسة عشر كيلومتر وهي مُحملة بضعف حمولتها، في كثير من الأحيان هناك من يتسلق

الأبواب ليصل إلى تونس، في الصيف تتمتع بجميع الروائح المنبعثة من الأجسام المُتعرقة، المتعبة رجالا ونساء. عندما يصل الحسين إلى محطة «الباساج الجمهورية» يتجه مباشرة إلى مقهى البرلمان في باب الجزيرة حيث يجتمع أغلب المغاربة المقيمين في تونس والوافدين إليها من مُدن أخرى، هو سوق وملتقى جل المغاربة كل شيء كان يُباع هناك تذاكر الطائرة، العملة الصعبة...، حتى سماسرة التشغيل يقدمون خدماتهم للوافدين المغاربة الجُدد الباحثين عن عمل، من هناك تتم الحوالات المالية أيضا. ما عليك إلا أن تُسلم النقود لأحد السماسرة المغاربة في المقهى مُقابل عمولة يقتطعها من المبلغ طالبا منك أن تترشف فنجان قهوة حتى يأتيك التأكيد من المغرب بعد ساعتين على الأكثر بأن الحوالة قد وصلت إلى صاحبها.

لم يكن مسموحا ببعث حوالات من العملة الصعبة إلى الخارج من تونس لغير المقيمين والذين يكونون مجبرين هم أيضا على استخراج ترخيص من البنك المركزي لبعث الحوالة. هذا ما جعل بعض السماسرة المغاربة يتخذون من تحويل النقود والمتاجرة بالعملة الصعبة عملا، ما إن يتحصل على المبلغ المراد تحويله حتى يطلب من أحد شركائه في المغرب تحويل ما يُقابل قيمته بالدرهم المغربي للشخص المستفيد من الحوالة.

كانت كل العمليات تتم في الغالب في جو خالي من الغش، أحيانا تكون العمولة مُشِطة نوعا ما لكنها تبقى الحل الوحيد والأسرع للكثير من المغاربة الذين يعملون كحراس وعَملة في بعض الحرف كالجبس والفخار لتحويل بعض من أموالهم لأسرهم هناك التي تكون في أمس الحاجة إليها. لم يكن مُرتب الحسين كبيرا فهو يتقاضى كل شهر مبلغ مائتي وخمسون دينار يُحول مائتين

ويحتفظ لنفسه بخمسين دينار والتي لا تكفي في الغالب لسد احتياجاته الشخصية يُساهم بثلاثين دينار كمعلوم الأكل المشترك بين الحراس الأربعة المغاربة حيث يكون لحم الدجاج ضيفا عليهم يوم الأحد فقط موعد السوق الأسبوعية في المدينة القرية بينما تقتصر جُل أكلات الأسبوع على البقوليات العدس، اللوبية، مرق الخضار دون لحم. في الليل تكون غالبا الحريرة «أزكيف» بالأمازيغية هي الأكلة الرسمية مالم يذبح الجندوبي عِجلا أو مجموعة من الخراف أو يهب لهم خروفا صغير افي عيد الأضحى.

هذه هي المواسم التي يتذوق فيها الحسين ورفاقه اللحم الأحمر ما عدا ذلك لا يفكرون فيه أبدا فثمن الكيلو الواحد من اللحم الأحمر في تونس وقتها أغلى بكثير من أن يُفكر فيه من يتمتعون بدخل كدخل الحسين وزملائه، يصل أحيانا إلى خمسة عشر دينار للكيلو الواحد، الحسين عاش ولا يزال يعيش على الكفاف في المغرب وتونس شأنه شأن أغلب سكان المغرب الغني، لا مُتع ولا نزهات لا يعرف من المغرب إلا الطرق والمقاهي الرخيصة التي يَلِجُها دوما ليس طلبا للراحة والاسترخاء وإنما للبحث عن عمل أو من يُساعده على إيجاده.

لم يتمتع الحسين وأمثاله بشواطئ المغرب الجميل وفنادقه ومطاعمه الفخمة والرخيصة على حد سواء، لا يمتلك بطاقة الولوج المخصصة في الغالب إلى خُدام الدولة وأتباعهم، في المغرب يُوجد صنفين من الشعب خُدام للدولة واتباعهم وخدام حزام في الدولة والفرق شاسع بين الصنفين الصنف الأول لا يُمثل إلا العشر من سكان المغرب لكنه يستحوذ على تسعين في المائة من ثروة البلاد، بينما يُمثل الصنف الثاني تسعين في المائة من سكان البلاد مطلوب منهم أن يتقاسمون عُشر ثروات المغرب الغني.

الحسين خدام حزام في الدولة وليس من خُدامها ولا أتباعهم. في تونس التي لا يعرف منها أيضا إلا مقهى البرلمان ومحطة «البساج» والمرناقية. يستيقظ غالبا بعد منتصف النهار يقوم بتنظيف «الاستوديو» المتكون من غرفتين ومطبخ صغير وبيت راحة، بعد ذلك يتشارك هو وزميله الذي يُشاركه في الحراسة ليلا في إعداد وجبة الغذاء في انتظار زميليهما اللذين يتشاركان الحراسة في النهار. تمام الساعة الثانية بعد الزوال يتناولون وجبتهم يحتسون بعدها كأس الشاي «المُشحر» والمُنكه في الصيف بالنعناع وفي الشتاء «بالشيبة ستي مريم» كما يُسميها التونسيون.

حرص الحسين المغربي في العام الأخير على أن يختلي بنفسه في مقهى القدس، ينطلق إليها مع الساعة الثالثة بعد الزوال ليعود عند الساعة الخامسة مساءً، تحت شجرة الياسمين المقابلة لشجرة سي رابح كان الحسين يختلي بنفسه. يبحث عن حل لما هو عليه. هل ستستمر الحياة على هذا المنوال المخيف؟ هناك في «الكصيب» لا أحد يبحث عن حل وعلى الأرجح اطمئنوا لما هم فيه، ماتت البقرتين وتم بيع كل الخراف الأخرى، الجفاف عقد عقدا مطولا مع المنطقة قطعة الأرض التي يمتلكونها لم تعد تُنتج شيئا.

حول الجفاف جل سكان القرية إلى متسولين يعيشون على تحويلات الأبناء والازواج المنتشرون في كل مكان في المغرب وخارج المغرب. لكن الأفاق هنا ليست بأفضل مما هي عليه هناك لا حلول جذرية مجرد احتماء ظرفي من البطالة والعوز مُهدد في أي وقت، عمل مؤقت في معمل مؤقت جل العاملين والعاملات فيه دون تغطية اجتماعية أو عقود عمل واضحة، الكل يعمل وفق مزاج الجندوبي ورضاه يستطيع أن يطرد من يشاء من يغضب عليه دون أن يتابعه أو يسأله أحد.

هنا أيضا عليك أن تختار وتختار لم تغزو وسائل الاتصال بعد المجتمع التونسي، لتحصل على صحن فضائي تحتاج إلى قرض من البنك الدولي سعره في تونس يتجاوز الألف دينار في حين لا يتجاوز سعره في المغرب مائة دينار فضلا على وسائل الاتصال الأخرى لتحصل على شريحة هاتف جوال تحتاج هنا إلى طلب تنتظر بعدها أشهر عديدة قد تتلقى إجابة أو قد لا تتلقاها، فضلا عن ثمنها المرتفع في حين هي متاحة في المغرب للجميع لمن يملك النقود فقط عذرا، انطلق هناك السباق المسعور مبكرا أصبح الحلم كما تُصوره وسائل الاتصال الجديدة لم تعد القناعة شعار الجميع أصبح الحصول على سيارة مسكن لائق امرأة جميلة وشقراء مما حذا بفتياتنا السمراوات إلى صبغ شعورهن بالأصفر وهن يأملن في الحصول على عريس في أقرب وقت.

الأصفر البراق لون العصر حلم الشباب رجالا ونساء، إعراض عن الزواج، انتشار العلاقات الغير الشرعية...، مزيد من اللقطاء لا تُعلمنا هذه الوسائل كيف نصطاد السمكة تكتفي فقط بإبراز مفاتنها وجمالها سينطلق السباق المسعور في تونس آجلا أم عاجلا يكفي بأن يتم الترخيص لشركة اتصالات أجنبية أُخرى لتُعطَى إشارة الانطلاق إشارة اللاّعودة، سيُعتمد معيار جديد في تقييم الناس سننتقل من مرحلة الاهتمام بالشخص إلى ما يُحيط به إلى ما يملكه من متاع وليس مواهب هذا المتاع المادي هو الكفيل بتحديد مكانته وموقعه في المجتمع.

- نخدم تحت الحيط.

عبارة يرددها أغلب الشباب التونسي الذي يتشارك مع الحسين نفس وضعه ومصيره، تعمل تحت الحائط المهدد بالسقوط

والانهيار فوق رأسك في أية لحظة لأنك تعمل وفق رضاء العرف لا عقد عمل ولا تغطية اجتماعية ولا حقوق وجودك رهين برضاء العرف عليك.

مرتب مائتي وخمسون دينار بالإضافة إلى بعض الحقوق المهضومة والتي يحرص صاحب المعمل أن يُعطيها كَمِنة منه وليس حقا مكتسبا تأتي في شكل هبات أو صدقات عندما تنتاب الجندوبي نوبات كرم حيث يقوم بنشر النقود من نافذة مكتبه في منظر مُهين لكرامة العاملات لا يقبله أي تشريع سماوي أو وضعي لكن الغريب في الأمر. لا أحد نظر إليه هكذا بل اعتُبر تصرفه رمزا من رموز الشهامة واحتقار المادة وليس العاملات.

– حقرها الفلوس ما يهموش فيها.

في حين يحصل الحراس المغاربة على ظرف يحوي بعض الأوراق المالية تتجاوز أحيانا المائة دينار. لولا تلك الهبات لكانت حالة الحسين أصعب مما هي عليه الآن بكثير.

– ما العمل؟

الكثير من المغاربة استطاعوا العبور إلى الضفة الأخرى مبلغ ستمائة دينار يكون كافيا للعبور وقتها، أغلب الرحلات كانت ناجحة. لم تُثني الرحلات الفاشلة ومنظر الجثث التي تطفو أحيانا على البحر المتوسط لم تثني شباب أمثال الحسين من التفكير في ركوب قوارب الموت أو الأمل حيث ينبثق من المغامرة بالحياة أمل جديد في مخيلة هؤلاء الشباب يستحق أن يُقامروا في سبيل تحقيقه بأرواحهم. في المغرب لم يعد بالإمكان العبور إلى بلاد الغرب الحراسة مشددة على الواجهتين البحريتين بين المغرب واسبانيا هناك إشاعات تقول بأنهم يقومون بقتلهم داخل البحر.

لا يمكن للوضع أن يستمر على ما هو عليه الآفاق كلها شبه مسدودة عائلتي في المغرب لن تقوم لها قائمة لعشرين سنة أخرى وأعتقد جازما بأنهم راضون تمام الرضا على الوضع الذي يعيشونه، أنا وحدي هنا أحترق أحلامي، طموحي، رغباتي ، في أحيان كثيرة أتغاضى على بعض السرقات لكي أنعم بلحظة حب مع إحداهن في المعمل أُقامر وأُجازف بعملي بقوت عائلتي من أجل متعة زائلة تفرض نفسها عليّ تجعلني لا أرى إلا هي مستعد أنا وقتها للموت من أجل تلبيتها أن أخفف من حدتها في لحظات كتلك يُصبح فيها حضن المرأة رائحتها، شفتيها، مهبلها أغلى من كل شيء في العالم، مُستعد أنا وقتها عندما تسيطر تلك الرغبة الجامحة حيث تفرض سيطرتها وجبروتها على كل الحواس والعقل، مستعد للتضحية بكل شيء من أجل أن ألتحِم مع امرأة أن أغوص في بحر جسدها. من أين يستمد هذا الجسد الأنثوي العجيب جاذبيته؟ لماذا يصبح في لحظات كثيرة هو منتهى أحلام الفرد؟

عامين في المرناقية لم يُفكر الحسين الذي قتله الشوق، في زيارة المغرب ليس لأنه لا يرغب في ذلك لكن اليد قصيرة والعين بصيرة يكتفي بالاتصال مرة في الأسبوع من إحدى مخادع الهاتف القار الكثيرة «تيلي بوتيك» في المدينة يتصل ببقال الحي حيث يكون أحد من عائلته هناك في انتظار مكالمته التي لا تتعدى السؤال عن الصحة والأحوال لا جديد يذكر، كان الحسين يسأل عن المطر الغائب أكثر مما يسأل عن الجميع لو تمكن فقط من ادخار ما يكفي لشراء بقرتين لعاد إلى المغرب لكن بقرتين دون مطر يعني الموت، تحالف المطر مع الأوضاع هناك ليعمق من مأساة وآلام الفقراء.

في مقهى القدس حيث يحرص الحسين بأن يجلس وحيدا يستجيب أحيانا لمداعبة نادل المقهى الذي يحرص على أن يتكلم

معه بصوت مرتفع مسموع مُرحبا به.

– مروكيبي كي العادة قهوة إكبـريس في طاس.

كان هذا كافيا ليعرف كل حرفاء المقهـى في تلك اللحظة بأن الجالس الصامت هناك تحت شجرة الياسمين مغربي الجنسية. لم يهتم سي رابح بذلك بتاتا ولم يكن ليعنيه باعتباره رجل يؤمن بالنخبوية ويكره الاختلاط مع من هم دون مستواه الفكري والاجتماعي بل يعتبـر ذلك من علامات الساعة. لكن سي خميس لم يكن مثل زميله سي خميس كان لأسبوع كامل يُـراقب كل من الحسين المغربي وزميله التونسي لم يكتف بذلك بل طلب من النادل وهو يضع دينار كاملا في يديه بأن يجمع له كل ما يستطيع من معلومات عن هذا المغربي الذي يجلس هناك بصمت.

– وليد زوالي خاطيه يصلي يخدم عساس في معمل الجندوبي.

– من أي بلاصة هو في المغرب؟

– كان صدقني ربي سمعتو يقول من أكاديـر في الجنوب نتاع المغرب.

انفرجت أساريـر سي خميس كان هذا كل ما يبحث عنه هذا هو الرجل المطلوب، الآن اكتملت الخطة في ذهنه لم يبقَ إلا إقناع سي رابح بأن يشاركه الأمر. لا، هو سيقتنع دون أي مجهود هكذا قال سي خميس محدثا نفسه لا يملك الخيار وإلا طالبته بأداء ما عليه من دين تُجاهي سيكون أمام أمرين لا ثالث لهما قرض جديد مني أو أن يُؤدي ما عليه من دين قديم.

لم يكن سي خميس الرجل الخمسيني القصيـر القامة الأسمر الوجه ذا ملامح حادة تُنبئ عن طبع صارم، لم يكن بالرجل الفقيـر

بل بالعكس فهو رجل ميسور الحال حسب شهادة كل زملائه، منهم من أجزم بأن سي خميس ليس في حاجة بتاتا لمرتبه الذي لا يحرص على سحبه من البنك. أصيل منطقة الفحص حيث ورث عن أبيه هو وإخوته ضيعة فلاحية مجهزة تُدِر عليه من الأرباح ما يجعله في غنـى تام عن مرتبه، سي خميس يملك سيارة تجارية نوع «رونو اكبـريس» ورغم ذلك فهو لا يستعملها أبدا إلا في سفره إلى الفحص، يحرص على أن يستقل الحافلة الصفراء في ذهابه وإيابه إلى تونس أو مشاركة أحد زملائه سيارته حيث يُعبـر دائما عن ذلك بمقولته المشهورة.

– أنت ماشي ماشي ليه الخسارة زوز كراهب.

اشتهر سي خميس ببخله الشديد، في المقهـى يحرص على دفع ثمن مشروبه مسبقا تجنبا للإحراج. ومع ذلك فكل الزملاء حريصين على صحبته والتغاضي عن بخله بل منهم من يسبقه أحيانا إلى دفع ثمن مشروبه لكسب رضاه، سي خميس كان بنك كل الزملاء في المعهد، يكفي أن تحمل في يدك صكا بنكيا بقيمة المبلغ الذي يـريد أي زميل اقتراضه حتى يجد سي خميس رهن إشارته كان يتلذذ بذلك. سي رابح من أكثـر المتمتعين بقروض سي خميس وأيضا كان من القلائل المتمتعين بتسامحه أيضا حيث يغض الأخيـر الطرف عن كل التواريخ التـي حددها سي رابح كآجال لتسديد ما عليه ويمكنه كل مرة من مزيد التأخيـر حتى خروف العيد الأخيـر لم يدفع سي رابح ثمنه إلى حد الساعة لزميله في العمل.

كان كل ما يُقلق سي رابح ليس كرم زميله وصديقه وتسامحه ما يقلقه أنه تجاوز السقف المسموح به ولم يعد باستطاعته أن يطالبه بقرض جديد والذي هو في أمس الحاجة إليه في هذا الصيف، نفس الشيء مع مدير الوكالة البنكية الذي اعتذر بجفاء ظاهر هذه المرة

باعتبار حساب سي رابح البنكي قد تجاوز كل الحدود الحمراء المسموح بها، يتردد كثيرا في مفاتحة زميله لطلب سلفة جديدة لكنه في الأخير يتراجع كان يشعر بالخجل والإحراج كلما جمعته طاولة «الديمنو» مع زميله لم يكن يقوى على وصف سي خميس بالغباء كما يفعل مع شركائه الآخرين في اللعب عندما يقترفون خطأ فادحا في نظر سي رابح ملك «حجر الديمنو» في المقهى والمرجع الأول لكل خلافات اللاعبين فيها.

كانت الخطة الآن مكتملة المعالم في ذهن سي خميس كل العرافين الذين تم جلبهم من قبل أكدوا بما لا يَدع مجالا للشك بأن الكنز موجود ويحوي ثروة هائلة من الذهب الروماني لكنهم وقفوا عاجزين أمام هذه الثروة الهائلة غير قادرين على استخراجها لأنها حسب تقارير أغلبيتهم محروسة من قبل جيش كبير وقوي من الجن الأحمر، لا يستطيع العرافين التونسيين التغلب عليهم.

هذا الكنز يحتاج إلى عراف مغربي خبير وعارف بأمور الجن، هؤلاء العرافين المغاربة غالبا ما ينحدرون من الجنوب المغربي ومن مدينة أكادير وضواحيها بالتحديد معقل العرافين المختصين في الكنوز.

كان سي خميس يعرف بأن تكلفة استقدام العراف من المغرب لم تكن رخيصة، انطلاقا من خبرة ورثها عن أبيه الذي كان أكبر حلمه أن يتم استخراج الكنز لكن الموت فاجأه قبل أن يتمكن من ذلك، صُرفت أموال طائلة لكن دون جدوى، الآن سي خميس وأخيه المنجى سيُغيران الخطة تماما سيجلبان عراف مغربي لم يُفكرا في غلاء البخور «ولُبان الذكر» الذي يجب أن يكون حقيقيا غير مُزيف باعتباره العنصر الأهم في مكونات البخور للتغلب وتنويم

واستحضار الجن والتحكم فيهم.

كان سي خميس يعرف كل هذا ولذلك فكر في شراكة مع سي رابح ليس لعدم قدرته على مصاريف الكنز وحده بل لطبيعة الحرص المتجذرة فيه إذ يحسب الخسارة قبل الربح يريد من يشارك أخاه في المصاريف وإذ تم استخراج الكنز فهو يريد لسيي رابح الذي يحب له الخير ويريد أن ينتفع إسوة بجاره لَسعد. سيُقنع سي رابح باستثمار القرض القادم لاستخراج الكنز، الثروة التي ستحقق كل أحلامه وأحلام أولاده وسيحقق هو أمنية أبيه سيبرهن للجميع بأنه الأقدر على المهمات الصعبة.

ما كان يقض مضجع سي خميس هو أنه لم يهتد بعد للوسيلة التي سيتخذها ضمانا من الحسين المغربي عندما يُكلفه بالبحث عن عزام مغربي وجلبه فأخوه وسي رابح هما من سيتكلفان بمصاريف الرحلة كاملة له وللشيخ المزمع جلبه.

صحيح أن سي رابح لا يملك مالا وهو متأكد من ذلك لكن أن يعطي نقودا لسي رابح كسلفة يأخذ في مقابلها صكا بنكيا خير من أن يعطي جزء من شقاء عمره للحسين المغربي دون ضمانات، لثلاث ليال وهو يفكر وأخيرا اهتدى إلى هذا الحل العبقري، لن يدفع مليما أحمر من جيبه هكذا قرر وإلى هذا الحل اهتدى، أخوه المنجي هو من كلفه بالبحث عن رسول إلى المغرب لجلب العزام بل في أحيان كثيرة طلب منه أن يُسافر هو بنفسه. ولولا ارتباط المنجي بالأرض ورعايتها لسافر منذ أمد بعيد.

-أنت استاذ عندك الوقت العطل برشة بر سافر لوج لينا على عزام صحيح ويجي.

الفصل 5

مريومة

«تأمل الأم أن تجد لابنتها زوجا أفضل من أبيها..
وتؤمن بأن ولدها لن يجد زوجة مثل أمه»

حكمة عربية

في ذلك المساء عاد سي رابح إلى منـزله بغيـر الوجه الذي اعتاد أن يعود به دوما، عاد مُنشرح الصدر والأسارير. لم ينسَ بعد خروجه من المسجد الكبير أن يشتري جل الفواكه التـي تحبها مريومة أضاف إليها كل المكسرات والفواكه الجافة. لوازم السهرة الصيفية التونسية التـي تبدأ من الساعة التاسعة إلى ما بعد منتصف الليل، وجد مريومة في الباب أعطاها الفواكه مقبلا إياها على جبينها.

– ربي يخليك لي يا نوارة داري مريومة.

– انت عمارة الدار وتاج راسي الله لا ينحيك علي ويدوم دخلتك ومجايبك ربوحتي.

كانت مريومة امرأة بيت بكل ما تحمل الكلمة من معنـى. هي

حب الطفولة والشباب لسي رابح خطبها قبل تخرجه ليعقد عليها وتُزف إليه بعد تخرجه أستاذا، امرأة في الثامنة والأربعين من عمرها لازالت علامات الجمال تطبع مُحياها. وجه مستدير أبيض يتوسطه فم صغير كالخاتم، أنف أصغر بينما تطبع الوجنتين خالة سوداء تطبع الجمال العربي الأصيل بطابعها، عينين سوداوين واسعتين مع شعر أسود قد غزاه الشيب قبل الآوان، تحرص مريومة على صبغه «بالمردومة» التي تُعدها بنفسها، قد مربوع جمال عربي لا يرقى الشك إليه ولا يختلف حوله من يراه.

مريومة تحب كل ما يحبه سي رابح وتكره كل ما يكرهه إلا أبنائها لم تكن تحب أن يمسهم سوء حتى سي رابح عندما يُعاقب أحدهم تُخاصمه، يصل في أحيان كثيرة غضبها عليه من أجل الأولاد إلى حد المقاطعة وحرمانه من المعاشرة الزوجية.

أبنائها خط أحمر الكل يعرف ذلك في النهج والحي على حد سواء. جميع معاركها وخصوماتها في النهج كانت من أجل أبنائها الذين هم دوما على حق ومظلومين تراهم ملائكة لا يمكن أن يأتوا أفعال البشر ولا تريد مناقشة أي اتهام ضدهم مهما كان صغيرا، بناتها الاثنتين لا يساعدن مريومة في أشغال المنزل لا تحب مريومة ذلك والأكثر من ذلك هي من كانت تُحممُهما حتى بعد أن كبرن.

الآن نور تستيقظ قبل الزوال بقليل لتسأل أمها في دلال وغنج ظاهر تتقبله مريومة بصدر رحب منتظرة إياه كل صباح لا تزعجها في نومها المتأخر أبدا تُغلق نافذة غرفة نومها وهي تحرص كل الحرص ألا تثير ضجة وتسدل الستارة، أحيانا عندما يكون الحر شديدا تقوم بتشغيل المروحة في غرفتها لتنعم بنوم هنيء.

– ما ما وينووو فطوري؟

– هاهو في الكوجينة بنيتي الكيك نتاعك وياغورط صحة وبالشفاء لبنتي.

أما اسكندر فهو يتمتع بحصانة مريومة ألا مشروطة، هو الكل في الكل تقبلت مريومة خطيبته رغم نفورها منها في الأول ورغم إيمانها الأكيد بأنها تفتقر إلى الجمال الذي تتدثر به وتحاول جاهدة اظهاره واكتسابه بطرق اصطناعية، لكنها مادامت منبع السعادة ومن اختيار اسكندورة فلا بأس كل شيء يهون في سبيل سعادة سكندورة عندما تزورهم الخطيبة رفقة ابنها ويرغبان في الاختلاء ببعضهما كانت مريومة تفرض حضر تجول صارم في المنزل، يُمنع فيه التجول والحديث إلى أن يغادر اسكندورة وخطيبته، ترفض خلال هذا الحظر استقبال أعز صديقاتها منانة بنت حطاب الشابي المعروفة بحسها الفكاهي في النهج.

كانت هذه هي نقطة الخلاف الوحيدة أحيانا بين سي رابح ومريومة الذي يُحملها مسؤولية تربيتها التي لم تُفرز إلا الأنانية وحب الذات في نفوس أولادهما، لا يفكرون إلا في مُتعهم وما يخصهم فقط لكنه في قرارة نفسه كان يشاركها كل أحاسيسها بل يتمنى لو يستطيع تحقيق كل أحلام أبنائه.

– الآن أصبح الحلم ممكنا.

يبدأ يوم مريومة في أيام العمل والعطل على حد سواء مع السابعة صباحا حيث تستقبل كل يوم بحب ظاهر حفيدها وابنتها التي تحرص على تناول فطور الصباح في بيت أبيها بل حتى زينتها تأخذها هناك قبل الذهاب إلى المدرسة الابتدائية حي السعادة القريبة من منزل أبويها، أُم آدم لا تفكر أبدا قبل مجيئها بأن تغير حفاظاته وأحيانا تتناسى جلبها عن عمد لتقوم مريومة بشراء كل

ما يلزم الصغير من خميس العطار الذي يُسجل بدوره كل مقتنيات الأسرة في كراسة «الكريدي» ليدفع رابح آخر كل شهر.

– قداش الحسبة الشهر هذا خميس؟

– آه الحسبة سي رابح الشهر هذا مائتين دينار.

– ابب علاش؟

– ماك تعرف ساعات يتعدى إسكندر ياخو باكو دخان يقلي سجلوا على بابا، تي نور وحدها تاخو كل يوم قضية بألفين شكالط وبيمو..

في منـزل مريومة تتكفل الأخيـرة بكل ما يتعلق بحفيدها إضافة إلى تحضير وجبة الفطور الصباحية. بعد مريومة يستيقظ كل من سي رابح واسكندر يتناولون فطور الصباح مجتمعين حيث يحرص إسكندر بعد الفطور أن يُوصل أباه بسيارته الجديدة إلى المعهد إذا كان الأخيـر مرتبطا بحصص تدريس صباحية. كان ذلك يلبي غرور سي رابح أمام زملائه.

– ولدي مهندس يدخل التسعة يوصلني معاه ف ثنيتو للخدمة.

بعد ذلك تقوم مريومة بتنظيف شامل وكامل للمنـزل حيث اشتهرت بنظافتها. مع الساعة الحادية عشر بالضبط هذا الوقت المقدس عند مريومة حيث تُعيد مشاهدة حلقة الأمس من المسلسل المكسيكي «كودالوبي» مريومة وهي تحتسي قهوتها التركية جالسة على الأريكة تستمتع هذه المرة بالحلقة وحدها تُعيد كل المشاهد كل كلمات الحب وحدها تتذوقها من جديد تستشعر لذتها، يختلف الأمر كثيـرا عن مشاهدة المسلسل رفقة نور ورابح الذي ينتقد المسلسل في أحيان كثيـرة ورغم ذلك يحرص على مشاهدته.

هذا المسلسل الذي تُفرغ له الشوارع عند عرضه على الساعة التاسعة من كل مساء باستثناء يوم السبت والأحد، يُتابعه الكل الصغيـر والكبيـر نساء ورجال،

– أين كان كل هذا الجمال مختبئ؟

كيف تحولت «كوادلوبي» الفتاة المعاقة الفقيـرة إلى غنية وسليمة وجميلة كيف يستطيع المال أن يُقَوّم كل شيء؟ كيف تحول «الفريدو» الشاب الجميل والوسيم المحامي من رجل غشاش كان يـريد الإيقاع بكوادلوبي في حبه من أجل سلبها ما تملك من مال كثيـر ورثته عن خالها الغنـي، إلى عاشق ولهان يـسعى إلى كسب ودها من جديد بكل ما أُوتي من قوة.

هذا المسلسل ذو الثلاثمائة حلقة أصبح حديث الناس في الأسواق والحمامات والشوارع وحديث الرجال أيضا. هذا المسلسل الذي أحدث عرضه تغييـرا جذريا في المجتمع جعل جُل قاعات الحلاقة للنساء ممتلئة تسارعت بنات حواء إلى تقليد فتيات المسلسل تقليدا أعمى. الكبيـرات والصغيـرات قلدن فتيات المسلسل في طريقة اللباس، تصفيف الشعر، في أدق التفاصيل...، أصبح عاديا أن تشاهد في الشارع التونسي والعربي فتاة سمراء بشعر أصفر أو أحمر، أصبح عاديا أن تشاهد فتاة في وزن الفيل ترتدي تنورة قصيـرة أو سروال ضيق يجعل الذكور يُصرون أكثـر على مشاهدة المسلسل لأن التقليد الأعمى أسفر عن تشوه مُريب جعلهم يكتشفون الحقيقة المرة لمقومات الجمال عند فتياتنا التـي كانت مختبئة ومتحصنة في اللباس القديم.

المناظر الجديدة تنقلك إلى غابات أفريقيا حيث الفيلة والقرود. ولا ينفي هذا أن هناك من الفتيات من استطعن أن يظهرن مفاتنهن

بشكل جيد وأنيق لكنهن يظللن نسبة قليلة بالمقارنة مع ذوات الأرداف الثقيلة والشعور الصفراء.

بعد العرض والنجاح المنقطع النظير لهذا المسلسل المخدر في جميع أنحاء الوطن العربي. في المغرب عقدت الحكومة المغربية اجتماعا عاجلا لِتدارس أثار الجفاف والبطالة ومقاومة أحياء الصفيح والحد من الإحساس بالفقر، تَقرر في الأخير جلب بطلة المسلسل «كوادلوبي» نفسها بلحمها وشحمها وشعرها إلى حلبة الفروسية بدار السلام صُحبة أميرات البلاد حيث حَج الناس هناك كل يوم بالآلاف لرؤية الفاتنة المكسيكية.

بعد نجاح التجربة التي أثبتت كل التقارير السرية والعلنية فعاليتها والتي أكدت بالإجماع بأن المغاربة وقتها تناسوا بل نسوا وضعهم وما هم فيه من فقر وتهميش حيث رُفعت أكف الشكر والحمد والهتاف للحكومة العبقرية التي استطاعت بضربة واحدة القضاء على كل مظاهر الشقاء في البلاد، طالبين من الحكومة في مسيرة مليونية سلمية أن تُخصص مبلغ محترم من ميزانية الدولة لخلق مهرجان سنوي يستضيف أكبر وأشهر النجوم العالميين لتخفيف حدة الفقر والجفاف على الشعب المغربي.

كانت الفكرة تقتضي أن يُطلق على المهرجان اسم موازين وهي كلمة مشتقة من كلمة ميزانية، الميزانية في خدمة موازين رمز القوة والحب والفساد في البلاد، في هذا المهرجان الصيفي سيرقص المغاربة ويغنوا وسيتبرع كل النجوم بل ستتبرع الدولة على النجوم بجزء كبير من ميزانية الدولة لتخفف بذلك العبء على كاهل المواطن لشهر كامل سينسى فيه كل آلامه وأحزانه وفقره.

في حين كان الرجال الذين لم تستهويهم مسلسلات العشق

المكسيكية يتابعون المسلسلات السورية الفوارس، الكواسر، العوسج...

حملت إلينا الصحون الفضائية الحب المزيف والبطولات المزيفة لتُعمق من جهلنا وعزلتنا وعبادتنا لذواتنا. بعد المسلسل تتابع مريومة إعداد وجبة الغذاء التي تسمى في تونس «الفطور» منتظرة سي رابح الذي يعود من المقهى أو العمل بعد صلاة الظهر في المسجد الكبير. في حين لا تشاركهم نور وجبة الغذاء إذ تفضل الانزواء في غرفتها وهي تطالع بعض القصص، كانت نور الوحيدة المواظبة على المطالعة إلى درجة تصل إلى النهم.

في تلك الليلة حرص سي رابح أن يشارك مريومة سهرتها لم يقدح هذه المرة في مسلسل «كوادلوبي» بل شارك مريومة أحلامها ورغبتها في أن ترى أحد أبنائها يمتلك بيتا كالذي تشاهده على التلفاز وأن يتزوج إسكندر فتاة ذات جمال حقيقي يُضاهي جمال ممثلات المسلسل، ليلتها استمع سي رابح بصدر رحب لكل مطالب نور ووعد بتنفيذها.

– شنو بابا ماتقوليش باش تطلع كنز.

– لي عند ربي مش بعيد بنيتي إن شاء الله.

قالها وهو يُمني النفس ويتذكر كل ما قاله له سي خميس كما حمد الله بأن صديقه لم يلجأ إلى أحد غيره. اليوم فقط تأكد بأنه يحب سي خميس، رجل مقتدر وغني كان يستطيع أن يستأثر بالكنز لنفسه لكن شهامته وحبه لصديقه جعله يفكر فيه، كذب من اتهمه بالبخل، الناس في هذه الأيام تفتقد إلى معايير التقييم الصحيح، تلك الليلة نسيَ سي رابح أو تناسى بأنه كان أكثر الناس اتهاما لصاحبه بالبخل وأحيانا ينعته بما هو أكثر.

– قرناط وقُعر أما الله غالب الدنيا تعطي الفول لي ماعندوش ضروس.

كانت مريومة تنتظر بفارغ الصبر بأن تأوي نور إلى غرفتها لتستفرد بسي رابح، هي تعرف بأنه لن يقوَ على الصبر، هو نفسه ينتظر أن تأوي ابنته ليسرد لها القصة كاملة رغم تحذير سي خميس له بأن هذه الأمور لا يجب أن تتدخل فيها النساء ولا يجب أن تكون على علم بها أصلا، لكن سي رابح لا يستطيع أن يُخفي سرا على مريومة هي تقرأ ذلك في عينيه تعرف بأنه يُخفي شيئا.

الليلة منذ دخوله منشرح الصدر مُحملا بكل ما تحب يجب أن يكون هناك شيء جديد ومُفرح، هو لا يرغب الليلة في ليلة حمراء نظرات عينيه خالية من الشبق والرغبة. لم تقوَ مريومة على الصبر إلى حين أن تأوي نور إلى فراشها، طلبت منها بكل صراحة أن تأوي إلى غرفتها.

– هيا نور عندي مانحكي مع بايك لبيتك يعيش بنتي.

– باهي لالة تحبو تقعدو وحدكم من بعد ماتلومش علي كي مانحبش نخرج من بيتي.

– عيش الزين والعين بنتي الدكتورة ربي يخليك لي يارب ونشوفك طبيبة.

– إن شاء الله مريومة تصبح على خير با.

لم تكد تغيب نور في الممر الذي يفضي إلى غرفتها حتى بادرت مريومة سي رابح.

– ربوحتي شنو الوجه المنور والدخلة الحنينة والبوسة المتوحشتها؟

– آه يا مريومة ادعي معايا ربي يسهل نغطيك بالذهب.

– ذهب جملة ما قلتش حرير مالا حكاية كبيرة هذه احكي لي احكي لي ربوحتي احكي.

– الحكاية فيها كنز يامريومة.

– زعمة زعمة رابح بالمجد الحكاية صحيحة آش خص.

– الحكاية صحيحة فيها سي خميس هذاك ما يدخل في حكاية إلا فيها فلوس.

– اوه ماتقوليش تستنى في الربح من هذاك الجيفة القرناط.

سرد عليها القصة كاملة مُدافعا عن صديقه مُزيلا عنه كل التهم المرتبطة في ذهن مريومة والتي جعلها هو تعتقد بها وتؤمن بها فهي لم تقابل يوما سي خميس هذا، لأول مرة يعترف سي رابح أمام مريومة ويُقر بظلم سي خميس مُعتبرا الرجل أكرم من الكرم، لقد اقترح عليه أن يُقرضه مبلغ الفين دينار مُقابل صكوك بنكية يسترجعها عندما يتحصل على القرض البنكي الذي ربما سيتزامن مع حصولهم واستخراجهم للكنز المقدر بجرار كبيرة مملؤة ذهبا صافيا.

غَدَت مريومة على علم تام بكل تفاصيل الخطة التي اقترحها خميس حيث سيعرضون غدا على الحسين المغربي بأن يُسافر إلى المغرب على نفقتهما ويجلب لهما من هناك شيخا كبيرا عارفا يكون قادرا على استخراج الكنز، معتبرا خطة سي خميس ذكية وناجحة إذ كانت الخطة الأولى تقتضي بأن يسافر سي خميس ولأن الأخير خبير بارع في الحسابات والمصاريف فقد اهتدى بأنه يستطيع بثمن النقل والإقامة هناك فضلا عن ثمن التذكرة أن يتخلص من كل هذه الأعباء والمصاريف عن طريق تكليف مغربي استقصى كثيرا

عنه وعرف من مصادره الخاصة بأنه إنسان طيب وتَقِي،

– لا الولد نفس مؤمنة وزوالي سألت عليه الجماعة غادي في المعمل ماعندوش الزايد.

هذا سيوفر علينا حسب تعبير سي رابح الذي استعمل ضمير الجمع باعتباره شريك في العملية، هذا ما سيوفر علينا نصف المصاريف والوقت وكذلك النجاعة كي لا نسقط هناك في شراك الدجالين والنصابين. هذا الفتى حسب شهادة كل من يعرفه مثال للاستقامة والصلاح فهو يصلي ويحرص على صلاة الجمعة في مسجد الإمام يونس.

– وقداش باش تعطي انت سي رابح؟

– في الأول خمسمائة دينار أكهو.

– أكهو.

التكلفة الأولية حسب برنامج وحساب سي خميس تقتضي ألف دينار فقط سيتم منحها للحسين المغربي وهي على الشكل التالي. مائتي وخمسون دينار ثمن تذكرة الطائرة للحسين ومثلها ثمن تذكرة الشيخ المزمع استقدامه والخمسمائة الأخرى نصفها هدية للحسين المغربي لوازم التنقل بينما النصف الآخر لشراء بعض البخور إن استلزم الأمر.

– هاهي ساهلة الحكاية معناتها أنت توا ماكش دافع حتى فرنك.

– ايه لالة وزادة تقعد لي مليون ونص نتفرهدو بيهم في الصيف ويا من حيا للقرض.

– ولا ربي زعمة يسهلها وتطلع المالية فك علينا من القروض.

– لي عند ربي مش بعيد مريومة ادعي إن شاء الله نشيخك.

– اوه رابح نعمل لاسكندر سيفت عرس تحكي بيه المرناقية لعشر سنين القدام.

– اللطف علي من المرناقية أنا مازال باش نسكن فيها كي نطلع كنز تسخايليني جارنا لسعد البهيم.

– زعمة. وين نسكنو؟

– نشري فيلا في المرسى إن شاء الله خليها بالستر مريومة رد بالك تحكي لحد.

– هذا كلام ربوحتي.

وهي تقترب منه تتحسس عضوه وتقبله على وجنتيه وشفتيه.

– لاباس عليه توا ولا مزال كيما العادة.

– هيا نشوفو مريومتي ربي يهديه الليلة ونشيخك.

– نحبو واقف كيما أيام زمان رابح تذكر.

– والله مريومة الضغط والتعب نتاع المخ سألت قالو لي الضغط والارهاق يعمل يخليه يتفش فيسع.

ليلتها لم تكن العملية كما كانت مريومة تُمني النفس سرعان ما فقد سي رابح قدرته على الانتصاب لم يلبث عضوه داخل مهبلها دقيقة كاملة ليخرج رخوا متهدلا، كانت مريومة ليلتها في مزاج رائق جعلها تُخفف عن زوجها ما هو فيه حيث شكل عجزه المفاجئ إضافة إلى ما يعيش فيه من مشاكل مادية أكبر هواجسه لم يعد قادرا على المحافظة على انتصاب عضوه أكثر من دقيقة على أبعد تقدير، يستسلم وهو يلهث كمن كان يعدُو في جبل بينما تظهر علامات

الامتعاض والغضب على مريومة عند فشل كل عملية تزداد حدتها تُعطيه بظهرها في غضب ظاهر بينما يتسلل هو منهزما إلى غرفة المعيشة حيث يقضي ليلته هناك.

في الصباح يستحم مبكرا مُتجنبا ما استطاع الحديث مع مريومة لا يتجرأ عن سؤالها أبدا عن برامجها كالمعتاد، ماذا ستطبخ في فطور الصباح؟ إلى غير ذلك، يذهب إلى المقهى مبكرا قبل أن تستيقظ حيث تحرص هي الأخرى أن تستيقظ متأخرة بعد فشل كل عملية.

عند الظهيرة يجد وجبة الغذاء على طاولة المطبخ وفي أحيان كثيرة لا تتوانى من النيل منه بكلماتها الجارحة وهي تُلمح من بعيد إلى فشله في اقتحام حصنها كأنها تقول له: أنت لست أهلا لتركب فرسا مثلي.

– سي رابح هاهو فطورك أنا ماشية مع منانة للحمام ، العملة الكلبة لي عملتها في روحي.

لم يكن يُجيبها بتاتا، يتحصن بالصمت كما يحرص على تجنبها وإرضائها بكل الوسائل، أحيانا عندما يتكرر عجزه أكثر من المعتاد في السهرة تستفز مريومة ابنتها نور لتتغزل بأبيها كي تُمرر وتقول ما لم تستطيع قوله صراحة وعلى شكل حوار. تُخرج ما بجعبتها بالتلميح.

– ماحلاه بابا زين وعين ينجم ياخو مرة أخرى عاد شبيه. تتغزل نور بأبيها وهي لا تدري أنها قد سقطت في فخ أُمها.

– هههههه عندو جهد نتاع وحدة باش ياخو زوز الزواج بنتي يحب لو جهد سيُودة.

– شبيه بابا أستاذ ألف وحدة تتمناه لاباس عليه عيون زرق أبيض طويل زين وعين وثقافة.

– الفايدة مش فالطول وزروقية العينين الفايدة في الصح كان عندو جهد أنا موافقة علاش لا مرا أخرى نمشيو أنا وهي للحمام هههههه.

– تفدلك وتضحك ماما خاطر عارفة ممنوع في تونس المرا الثانية هذاك علاش مطمانة.

– لا من ناحية مطمانة أنا مطمانة مش من ناحية القانون بنتي من ناحية بوك مطمانة وحاطة في بطني بطيخة صيفي كيما يقولو المصريين هههههه.

– خاطر يحبك با مش هكا با.

لا يجيب سي رابح أحيانا يتصبب جبينه عرقا وهو يستمع إلى تلميحات واستهزاء مريومة منه، يفهم ما لا تفهمه نور في أحيان كثيرة يخرج ليدخن سيجارة في غضب ظاهر، لا تختفي نظرات الغضب من عين مريومة غالبا إلا في اليوم الثاني للعملية لِتَحُل محلها نظرات العتاب.

غضبها هذا يختلف تمام الاختلاف عن كل غضب يعرفه حتى عندما يكون عاجزا عن تلبية بعض الشراءات من أغراض وملابس لا تغضب هكذا ساعة أو ساعتين على الأكثر وينتهي الأمر كأنه لم يكن، أما أمام عجزه الجنسي فغضبها يستمر ولامبالاتها به تستمر ليومين لتحل محل نظرات الغضب في اليوم الثاني نظرات العتاب.

– هل صحيح ما يقوله الرعاع في المقهى ويتبناه الكثير من زملائه؟

– المرا جوعها في كل شيء إلا الز.. رد بالك عطيها العص...ة وسيبها.

أصبحت ممارسة الجنس عند سي رابح عذابا حقيقيا وأصبح اقتحام جسد مريومة عملا مُرعبا بالنسبة إليه دائما يتحاشى استفزاز غريزتها لكنها دوما تكون هي السباقة لم تفقد الأمل بعد.

– كي تجي تجي مع بعض.

– وكي تتفرهد تتفرهد مع بعض رابح صلي على النبي ما وقع شيء أنا مريومة مرتك نعرفك من زمان سيد الرجال أنت رابح، أزمة وتعدي حبي إيجا نمصو شوية كيما بنات توا بالكشي يفيق.

ليلتها استسلم لها رابح بعثت كلماتها في نفسه هذه المرة الأمل من جديد لم يهرب إلى بيت المعيشة كان الأمل في غد أفضل قد جعل من مريومة نفسها أكثر تسامحا، شيئا فشيئا وهي تمص قضيبه بنهم الجياع استعاد العضو صلابته لتعيش مريومة ليلتها ليلة من الليالي التي افتقدتها منذ سنين مضت.

– ماحلاه المصان يفرهد القلب خلاني نشبع منو قداش توحشتو قداش مالا ذري آش تطلع.

– ومنين عرفت انت الشي هذا مريومة؟

– النساء في الحمام علاش تحكي حسب رايك على السياسة ولا الترجي والافريقي تحكي كان عل العص..ة والز...

– البرابول هبل العباد.

– ايه رابح والله حتى أنا ريت نهارتها اسكندر بالتخبية يتفرج في قناة اش نقولك خلاتني نرعش كلي.

– ماتقوليش تفرجت معاه؟

– مانجمتش مانتفرجش بديت نشوف وأنا نرعش وخايفة يشوفني

– ماشافكش؟

– وين باش يشوفني كان شارب سكران دايخ وزادة يتفرج في هاذوك مركز شيء كبير.

– تعرفيها القناة مريومة؟

– شيء من غدوة لوجت عليها لين شبعت شيء ما لقيتهاش.

عادت الرغبة تنتعش داخل سي رابح مجرد أمل نافذة صغيرة من الأمل أحيت النفس أعطتها دافع لتقاوم لتتشبث لتبحث عن مكامن ومنابع اللذة أينما وُجدت، آه لو يتحقق الحلم. لا. سيتحقق شهور قليلة على حد تعبير سي خميس على أبعد تقدير ثلاث أشهر وينتهي هذا الكابوس ما أفظع الفقر والعوز، صدق علي بن ابي طالب عندما قال: لو كان الفقر رجلا لقتلته.

– العام الدراسي جاي تدخلو وصدرك منفوخ إن شاء الله سي رابح.

– من فمك لربي اخر عام مازالي حتى هو على التقاعد.

– مالا يا سيدي تضرب ليك زوز ولا ثلاث جرة ذهب وشيخ حوص كيما تحب من بلاد لبلاد

استسلمت مريومة للنوم وهي مبتسمة، للحظات ظل يراقبها سي رابح وهي نائمة مرتاحة البال والمُحيا. هذه المرأة التي رافقته في رحلة طويلة أصبحت الآن أميل إلى السمنة لكنها لم تفقد جاذبيتها وجرأتها فرس هي في كل شيء على الفراش ظل يتأمل هاتين الشفتين الجميلتين اللتان بعثتا الحياة لعضوه وجعلته ينتصب من جديد.

–لماذا غابت كل هذه اللذة في الأيام الخوالي؟

–هل كنا ننتظر أن نشاهد الأفلام الإباحية لنكتشف هذه اللذة؟

-لماذا يغيب حس الابتكار والابداع في جميع نواحي حياتنا؟

في أحيان كثيرة كنا نمارس الجنس في الظلام وبنصف ملابسنا استيقظنا متأخرين جدا، لم أتمتع بمشاهدة جسد زوجتي وهي شابة عارية لم تلمس شفتيها عضوي إلا اليوم بعد أكثر من ثلاثين سنة زواج ربما راودتها الرغبة لأكثر من ثلاثين سنة وهي تعيش داخلها ولم تجرؤ على البوح بها فضلا عن تطبيقها.

كم تمنيت فيما مضى أن أمص مهبلها لكنني لم أتجرأ اعتقدت بل أمنت بأن ذلك لا يجوز، من أي تشريع استمددنا عادتنا هذه؟ مريومة بجانبه بلحمها الأبيض المكتنز وهي تتنفس بانتظام لازالت جميلة وجذابة كم يحبها ليت اللاقط الهوائي جاء قبل الآن، شكرا لاسكندر الذي لم نجن من مرتبه إلا هذا اللاقط الذي فتح أعيننا على أشياء لم تكن لتخطر على البال.

أصبح العالم قرية صغيرة تسافر عبر أرجائه وأنت في مكانك تتعرف على ثقافات وعادات شعوب أخرى وترغب في شراء كل ما يُعرض عليك من خلاله، الكل يتسارع لتغيير نمط الحياة القديمة أ صبحت في خبر كان، مناظر المأكولات الجديد وطُرق طهوها، الارائك، ديكورات المنازل لا تكتفي بالمشاهدة فالتجار كانوا أذكى من الجميع تسارعوا إلى جلب كل ما يُعرض على الشاشات إلى أسواقنا وقاموا بعرضها في محلات فاخرة، لندخل نحن في سباق من يشتري الأول هو من ينعم بالسعادة الجديدة والحقيقية.

لم يعرف النوم طريقه إلى سي رابح كان يتمنى أن ينجلي الليل بسرعة كان متشوقا للقاء سي خميس بل للقاء المغربي كيف غابت خُطط كهذه عن ذهنه طوال هذه السنين وهو يرى جاره يتمتع بخيرات كنزه لم يعرف الفقر والخصاصة الطريق إلى منزله أبدا،

وهو الذي يُغير كل سنتين سيارته كما اقتنى مؤخرا واحدة أخرى لابنه أهدى لابنته المتزوجة شقة، كيف غابت هذه الحلول عن ذهنه شكر من كل قلبه سي خميس، بل اعتبره تؤام روحه.

- نشيخ عامين ولا ثلاثة من بعد نمشي للحج نتهنى على الأولاد في الأول ومن بعد الحج مكة ماهيش هاربة.

- زعمة اسكندر يقعد مع العبيثة نتاعو من بعد ما نطلع المالية، إلا عندو الفلوس برشة مصاب كان يبعد عليها يلزموا وحدة ز.....ة بالمجد.

طوال الليل وهو يفكر ويحلم يبني قصورا من السعادة، يحلم ويخطط ويعقد العزم على تنفيد كل المشاريع المعطلة ستبدأ رحلة التمتع والمتع الآن من الغد سيبحث عن منزل للاصطياف في إحدى شواطئ تونس الراقية، نعم سيكون هذا آخر صيف يتشاركه مع ابنته، هذا آخر صيف سيقضيه في تونس استحضر قائمة الدول التي كان يرغب في زيارتها إيطاليا على بعد أميال من تونس ولم يتمكن من الذهاب إليها فرنسا، مصر ،تركيا، المغرب نعم المغرب فالمغاربة أصحاب فضل في ثروته القادمة يجب أن يتكرم ويزور بلادهم ربما زار منزل الشيخ المزمع جلبه، مريومة ستكون سعيدة بهذه الجولات العالمية، هذا آخر صيف في تونس سيحرص على التمتع فيه أكثر من قبل سيُخفف حمل الطهو على مريومة في هذا الصيف سيقترح عليهم كل ليلة تقريبا العشاء في أحد المطاعم. تلك الليلة لم يعرف سي رابح متى استسلم للنوم.

في الصباح بعد الحمام كان في انتظار سي رابح فطور العريس خاطبته مريومة كعريس بكل غنج يعيد إلى الذاكرة الأيام الخوالي.

- فطور العريس عسل وزبدة عربي العسل لمول العسل.

– يعطيك الصحة مريومة ازربني بالكشي سي خميس يستنى فيا.

– كل شيء إلا سي خميس كلنا نستناو أما هو لا مايستناش هيا افطر وربي يجيبك في الصواب. اش نطيب لربوحتي في فطور القايلة؟

الفصل 6

الأمل المنشود

«يصبح الانسان عجوزا حين تحل الأعذار محل الأمل»
جون ناريمور

كالعادة قبل أن يصل سي رابح إلى المقهى في كل صباح يشتري سي رابح جريدة «لابـريس» التي تصدر باللغة الفرنسية علامة للثقافة والرّقي حيث يفتخر بأنه لا يجيد الكتابة والقراءة بشكل جيد باللغة العربية.

– قرتني مدام ريباز أنا قريت سيستيم فرنساوي.

في صباحات عطل الصيف عندما يلتقي الزملاء الأساتذة في مقهى القدس لا يلعبون لعبتهم المفضلة «الديمنو» يكتفون باحتساء فناجين قهوتهم مع تبادل قراءة الجرائد ومناقشة ما تحتويه من أخبار، لم يكن وقتها مسموحا الحديث في السياسة الداخلية للبلاد. أن تتحدث في السياسة وفي المقهى يعني ذلك تمجيد الجنرال، كل الصفحات الأولى للجرائد التونسية تُمجد الجنرال بن علي تعتبره الخيار الوحيد للدولة التونسية الحديثة، هو من وقف سدا منيعا

وحماها من الإرهاب والإرهابيين بل وحماها بفضل حكمته من كل الأزمات السياسية والاقتصادية التي عصفت بأكبر الدول في العالم باستثناء تونس التي بقيت في مأمن من كل الازمات، هكذا كانت تتكلم كل القنوات والإذاعات والجرائد في البلاد التونسية آنذاك أن تمجد الجنرال هذه هي السياسة.

لم يعد هو الخيار الوحيد بل انتقل إلى الخيار الأوحد، رجال الشعبة للحزب في كل مكان يترصدون أي كلمة شجب أو انتقاد تُوجه بقصد أو عن غير قصد ضد النظام يكفي ذلك لتُسلط وتُفتح ضد من تَفوه بكلمة كل الملفات سيكتشفون بقدرة قادر، بأنه لم يدفع ضرائب البلدية لعشر سنوات خلت ويجب عليه دفعها الآن بل أحيانا يجد بعض الموظفين الذين تفوهوا بكلمة عن غير قصد نفسه قد تم نقله لمكان ناء ليذوق الأمرين.

كان الأساتذة المجتمعين والمثقفين مُجبرين على تحليل المباريات الرياضية كباقي الشعب، هذا مُتعصب لفريق الترجي والآخر للأفريقي بينما يتعصب من ينحدر من الساحل لفريق النجم الساحلي والمنحدرون من صفاقس للنادي الصفاقسي. ويشجع الرجال المتقدمون في السن فريق الملعب التونسي «البقلاوة» الذي بدأ نجمه في الأفول، بينما لازالت فئة صغيرة في طريقها للاندثار تتذكر وتتحسر على فريقها الذي أندثر فعلا الأولمبي للنقل.

كانت الحصة الصباحية في المقهى التي تبدأ من الساعة العاشرة صباحا إلى اذان صلاة الظهر مُنحصرة في هذه المواضيع حتى عندما يفرض حدث سياسي داخلي نفسه كان الرفاق يفضلون التلميح عن التعبير الصريح. أحيانا يشُكون في بعضهم ويحترسون من أنفسهم في ظل حكم كحكم بن علي يشك المرء أحيانا في نفسه.

في ذاك الصباح لم يكن يهم سي رابح انتصار أي فريق على الآخر، ما يهمه أن ينتصر هو في معركته ضد الفقر والاحتياج، أن تنتصر رغبته في الحياة الحقيقية التي حلم بها ولازال يحلم بها والتي وَرّثَها لأولاده على العجز الذي بدأ يشق طريقه بتصميم واضح داخل حياته، هو من علمهم بأن الحياة مُتعة. فكيف يلومهم إذن؟ الأحرى أن يُساعدهم وهذا ما سيفعله. كان الشغل الشاغل لسي رابح ذلك الصباح أن يعرف متى سيتسلم الالفي دينار من سي خميس، حتى الصك البنكي وقّعه وحمله معه للاحتياط، ربما يعطيه سي خميس المبلغ اليوم سيساهم بخمسمائة دينار والباقي كفيل بأن يجعل من صيفه هذه السنة صيفا ممتعا.

انتظر سي رابح طويلا قبل مجيء زميله وشريكه الذي كان آخر من وصل من الزملاء، ولحرص الأخير على عدم مناقشة أمور كهذه أمام الآخرين، فقد استسلم سي رابح استسلام اليائس الفاقد للأمل من أن تداعب الالفي دينار جيبه ذاك اليوم.

بعد صلاة الظهر أخبره سي خميس على انفراد بأن عليه أن يعود مبكرا إلى المقهى قبل الآخرين وقبل صلاة العصر حيث سيلتقيان مع المغربي ليناقشا ويعرضا عليه مسألة السفر وأمر الشيخ.

- زعمة يقول لا سي خميس.

- الأمور مش هكا سي رابح احنا يلزم نثبتوا لشكون نعطيو فلوسنا هو ماعندوش علاش يقول لا.

- كيفاش؟

- يا اخي ساهل تلقى واحد في الشارع السلام عليكم خوذ ألف دينار وبرا لبلادك وجيب لي شيخ من غادي لا يلزم نثبتوا ونتأكدوا منو قبل كل شيء.

– الي تشوفو سي خميس مع ماضي ثلاثة ونص تلقاني إن شاء الله هوني.

– أوكي صاحبي شهية طيبة.

لم يكن سي رابح يملك أدنى فكرة أو تصور لما ستؤُول إليه أمور الكنز المزمع استخراجه، كان يعتقد ببساطة وصلت إلى حد السذاجة أنهما سيلتقيان بالمغربي يُسلمه سي خميس ألف دينار ويتسلم هو ألف وخمسمائة دينار وينتهي الأمر.

كانت خطة سي خميس مختلفة تماما عما يُفكر فيه سي رابح كان يبحث عن وسيلة ليضمن بها الألف دينار، بمشاركة سي رابح ضَمِن عودة المبلغ. عليه الآن أن يُفكر في كيفية إنجاح العملية وضمان استخراج الكنز والتأكد بأن المغربي سيقوم بما هو مطلوب منه على أحسن وجه، فالمخطط واضح في ذهن سي خميس لن يسلم أي مبلغ للمغربي إلا في اليوم الأخير وهو من سيقوم بحجز تذكرة السفر ذهابا وإيابا إلى المغرب وسيسلمه بقية النقود في المطار قبل دخوله إلى الباب المخصص للمسافرين ليضمن بذلك على الأقل سفره إلى المغرب.

عيون المغاربة ورغبتهم في السفر وركوب الأمواج الصعبة إلى إيطاليا لا تخفى على أحد وما تونس إلا محطة عبور واستقرار ظرفي عند أغلبهم. كما كان سي خميس يعرف أيضا بأن زميله حريص على السلفة أكثر من أي شيء آخر لكنه مع ذلك قرر أن يُماطله لبعض الوقت إلى أن يتأكد على الأقل بكون المغربي قادر على إنجاز ما هو مطلوب منه وأن يتحصل هو على الدعم والضوء الأخضر من أخيه المنجي، الدعم المرتبط برضائه وموافقته عن المغربي المُختار.

في ذلك الوقت كان اليأس قد بلغ من الحسين المغربي مبلغه،

أصبح واضحا أن وجوده وعمله في تونس لا يُمثل حلا حقيقيا لمشاكله، إنما هو مجرد تأجيل لها فقط، سيظل الحال على ما هو عليه لعشرين سنة قادمة إن ظل على هذه الحالة. ما يُكبل يديه وقراراته احتياج عائلته له، لو استطاع أن يتخلص من هذا العبء، أن يرتاح لعام فقط من هذه المسؤولية التي أُلقيت على عاتقه وارهقته، أُلقيت فجأة هكذا اعتُبِر وهو الصغير الكبير بعد مرض الأب المسؤول عن عائلته، هجر مقاعد الدراسة ليتفرغ للعمل في قطعة أرض أبيه الصغيرة، التي لم يكن منتوجها يكفي لسد احتياجات الأفواه والبطون الجائعة.

اضطر للعمل في المواسم الفلاحية كعامل فلاحي يُساعد في الحرث والحصاد والغرس في كل ما يُطلب منه من أعمال فلاحية مُقابل دراهم معدودات، كان هذا قبل مجيء الجفاف الذي قضى على كل أحلامه، قضى على بقرتيه. صار هو الأب لإخوته وأمه وأبيه الكل ينتظر ماذا سيقدم الحسين والكل يتعامل معه كأب وينتظرون منه ما ينتظره الابن من أبيه.

أصبح مع مرور الوقت قادرا على تدبر أمره «الحاجة أم الاختراع». آه لو كان غير مُضطر لبعث الحوالات كل شهر لأصبح معه الآن مبلغ يفوق الستة آلاف دينار مبلغ قادر على بعث أي مشروع صغير في المغرب، يفتتح دكان بقالة في إحدى المدن الكبيرة أُسوة بشباب المنطقة المشهورين في كل أنحاء المغرب بشطارتهم ونجاحهم في التجارة، يستأجرون دكانا يصبح هو مقر العمل والإقامة دكان لا تُغلق أبوابه أبدا بعد سنة أو سنتين يعودون إلى قُراهم أغنياء ميسوري الحال، منهم من أصبح من كبار التجار في تلك المدن الغربية والشمالية للملكة، حتى أصبح عمل التجارة مقترنا في المغرب بكلمة «السوسي» نسبة إلى منطقة سوس الممتدة من

أكادير إلى نواحي مدينة تيزنيت والذين يتكلمون اللهجة السوسية الأمازيغية هؤلاء هم المشهورين بتجاراتهم الناجحة.

هو الآن مُكبل اليدين عليه أن يدفع ويدرأ الاحتياج عن عائلته. في طريقه إلى مقهى القدس في ذلك اليوم من شهر جوان لم يكن ليدُر بخلده لحظتئذ بأنه سيتلقى عرضا كالذي تلقاه يومها سيَقلِب حياته رأسا على عقب.

كثيرة هي الأحيان التي كان يسأله زملائه في العمل إن كان يستطيع أو يعرف من له قدرة على استخراج كنز، لكنه كان دوما ينفي أية علاقة له بذلك مستغربا تساؤلاتهم.

– لوكنت نعرف نطلع كنز غنجي نخدم عساس هنا.

كان السؤال يذكره بسي بوعزة فقيه قرية «الكصيب» والذي يكرهه الحسين أشد الكراهية.

– أنتم المغاربة سحارة نتاع البوخوخو.

لم يقتنع زملاء الحسين بكلامه والأكثر من ذلك كان هناك من يُعزي معاملة الجندوبي الطيبة للحراس المغاربة لكونهم سحروه وإلا لماذا يحرص دوما بأن يُعطيهم أكثر ما يعطي الآخرين من زملائهم التونسيين من مِنح وامتيازات مادية، كانوا الوحيدين الذين يتمتعون في الحق في اللباس مرتين في السنة ناهيك عن الهدايا والظرف المالي الذي يمنحه الجندوبي عندما يُقرر أحدهم زيارة أهله في المغرب. ورغم كل هذا كان الحسين يعتبر تهكم زملائه نوع من الدعابة ليس إلا، لكن أن يصبح الأمر جديا ويُطرح عليه ما طُرح ذاك اليوم من قبل شخصين مثقفين في المدينة فالأمر يستحق أن يُدرس وأن يُفكر فيه.

– سي رابح عطي للحسين عشرة دنانير إلا كان عندك ماجبتش

معايا سطوشي.

– باهي باهي سي خميس باهي.

وهو يلعن في داخله معتبرا بأن سي خميس أبخل من البخل فهو لم ينسى محفظته كما يدعي.

– ز.... أُمو طامع فيَّ أَنا نعطيه عشرة الاف باهي.

– هذا الحسين نتاع اتصالاتك اتصل بشكون تعرف غادي نهار الحد الحي نتلقاو باش نمشو في كرهبة سي رابح إلى الفحص تشوف البلاصة وتتعرف على خويا المنجي ونزيد نحكو.

– زادة في كرهبتي عطاتك الأيام احكم كيما تحب.

دائما داخل نفسه المشتعلة كان يتكلم سي رابح الذي كان يومها يُمني النفس بالمبلغ الذي وعده به سي خميس. لكنه في المقابل وعلى عكس توقعاته يجد نفسه مطلوبا منه بأن يدفع ومطلوبٌ منه أيضا أن يَقلّهم في سيارته وبطبيعة الحال فسي خميس لن يفكر ولو للحظة واحدة أن هذه السيارة تحتاج إلى بنزين لتتحرك من مكانها، كالعادة وعندما يتعلق الأمر بالمال فهو لا يسمع ولا يتكلم ولا يُحس ولا يفهم، حتى ثمن المشروب في المقهى ذاك اليوم كان سي رابح من دفع ثمنه.

حرص سي خميس بأن ينتهي اللقاء بالمغربي قبل آذان صلاة العصر أي قبل مجيء بقية الزملاء مُتذرعا بأنه لا يُفوت صلاة الجماعة أبدا لما فيها من الأجر المضاعف والثواب ولأنه مستعجل ليتوضأ فقد غادر المقهى قبل سي رابح دون أن يحاسب النادل تاركا الأمر لزميله.

عاد الحسين إلى معمل الجندوبي وهو غير مُصدق ما عُرض

عليه. هكذا فجأة ودون سابق إنذار يَعرض عليه شخصان لا يعرفهما ثمن تذكرة طائرة ومبلغ مالي ليسافر إلى المغرب ويجلب لهما شيخا قادرا على استخراج كنز. آه كم تمنى لو يحصل على مبلغ مماثل في القريب العاجل لربما سافر إلى صفاقس حيث أفواج الهجرة إلى إيطاليا تنطلق كل أسبوع، إذ يكفي مبلغ الستمائة دينار للعبور إلى الضفة الأخرى، يُحوِّل الباقي. أربعمائة دينار مع مُرتبه إلى المغرب، مبلغ كاف لتتدبر به العائلة هناك أمرها لثلاث أشهر أُخرى يكون قد وصل إلى الديار الغربية وتدبر أمره. هكذا كان يفكر الحسين وهو في الطريق إلى المعمل مستعرضا كل الاحتمالات الممكنة.

لكن سي خميس هذا على ما يبدو ليس بالرجل السهل فهو حريص كل الحرص على أن يعرف استراتيجية عملي وخطتي قبل أن يُعطيني المبلغ. احتار الحسين في كيفية تعامله مع سي خميس لكنه قرر بأن يغتنم الفرصة التي لا تُعطى كل مرة، لن يتصل ولن يبحث على الشيخ المزعوم، لكن في المقابل سيُوهم سي خميس هذا بأنه يعرف وسيجلب له الشيخ المراد بعد أن يتحصل على الألف دينار ربما لن يعود إلى تونس، إيطاليا هي الوجهة المقصودة، الفرصة التي ظل ينتظرها ويتحسر عليها بين يديه الآن.

ما أجمله من إحساس أن تُفتح لك نافذة من الأمل هكذا فجأة في ظلام الليل الحالك، عندما تعتقد بشكل جازم أن الأبواب كلها موصَدة يأتي الفرج هكذا دون سابق إنذار من حيث لا تدري لينقلك إلى عالم الأحلام من جديد ويجعلك تحس وتعتقد بأن المستحيل أصبح ممكنا، ليلتها لم ينم الحسين ظل طوال الليل ساهرا يفكر ويضع الخطط والبرامج ليقنع بها سي خميس هذا، أصبح هو الأمل يجب أن يتشبث به، أن لا يجعله يفلت من بين يديه لم يخبر الحسين أحدا من زملائه بما عُرض عليه فهو ذو طبع كتوم لا يتشارك مع الآخرين

أسراره، لا يعرفون أين يقطن في المغرب بالتحديد يكتفي دوما بذكر أكاديـر كولاية وأمام إصرار بعض المتطفلين من زملائه المغاربة يجيب أحيانا بحدة ظاهرة.

– أنا من انـزكان في أكاديـر.

لم يكن سي رابح أفضل حالا من الحسين المغربي فالاثنين تجمعهما أشياء كثيرة كما أصبح يجمعهما سي خميس الذي شكل عرضه لهما حبل النجاة مما يعيشانه من ضنك، فقد فتح هذا العرض المفاجئ والمُغري بين أمل ويأس ورجاء فسحة من الأمل فُتحت فجأة وجعلت من مريومة أكثـر انشراحا وانفتاحا وإدمانا على مص قضيب رابح كل ليلة وهي تحاول أن تعيد إليه بعض صلابته.

لولا هذا الأمل وهذه الفسحة التي غيرت طباع مريومة لانهال سي رابح بالسباب عل خميس الذي يثبت كل يوم بأنه أبخل من البخل، لكن مريومة هذه المرة لم تنظر إلى سي خميس من نفس الزاوية التي ينظر منها زوجها، على العكس وعلى غير العادة أيضا هذه المرة قابلت مريومة طلب سي خميس استعمال سيارتهم بصدر رحب واعتبـرت الأمر طبيعيا وعاديا باعتبار سيارة الأخيـر تجارية لا تتسع لثلاث أشخاص، أصبح خميس شخص مقدس عند مريومة يقترن ذكر اسمه دوما «بسي» بل اقترحت على سي رابح استعمال سيارة إسكندر «الفيات بونتو» الجديدة. اسكندر الذي لم يعترض لكنه لم ينس هو الاخر أُسوة بكل من يحيطون برابح في هذه الفترة الكالحة السواد من عمر رابح بأن يذكر أباه.

– بابا الكرهبة مافيهاش إيسونس صب ليها حمراء راهي كان تعمل مزية اعمل ليها «بلان».

اسكندر أيضا لم يـرحمه أصبح مطلوبا منه أن يدفع أين حل

وارتحل لكن هذه المرة كل شيء يهون في سبيل الكنز المطمور. اليوم سيطلب من سي خميس الوفاء بوعده وأن يُمكنه من القرض الذي وعده به وإلا سينهار نسق حياته الذي لم يتحمل المصاريف الجديدة والطارئة، كان عزاء سي رابح في ذلك أن المتعة والسعادة عادت لتُعشْعِش في بيته من جديد في تلك الأيام، هذه المرة لا يريدها أن تَفِر إلى غير رجعة يجب أن يستغل هذه الفرصة لأنها الأخيرة بالنسبة لرجل مثله مُقدم على التقاعد ومطلوب منه أشياء كثيرة والتزامات مادية تُجاه أسرته الصغيرة.

حرص الحسين المغربي يوم الأحد بأن يستيقظ باكرا وأن يكون في هندام لائق وهو ينتظر أمام المعمل قدوم كل من سي رابح وسي خميس، كانت الرحلة إلى ضواحي مدينة الفحص مرورا بقرية الفجة وقرية عين عسكر أكثر من رائعة استسلم فيها الحسين لأحلام اليقظة التي شرع في نسجها بعد العرض الذي تلقاه. تخيل نفسه في شوارع مدينة تزنيت وهو يتجول بسيارة كهذه التي يملكها سي رابح عائدا من إيطاليا ونظرات الإعجاب والتودد من كل من يقابله.

اكتشف الحسين أن ما يعتبره منتهى حلمه وشرط اكتمال سعادته متوفر عند كل من سي رابح وسي خميس ومع ذلك يحس بأنهما غير سعيدان وراضيان بما يملكان والأكثر من ذلك يعتبرانه تافها ولا يجسد تطلعاتهما وما يستحقانه، استغرب الحسين تلُهفْ أناس كهؤلاء ورغبتهم في المزيد في حين تجدهم يملكون وظائف محترمة منازل سيارات أبناء...، طمع الانسان لا حدود له كما أعتبر كل من سي خميس وسي رابح أغنياء بما يملكان وهما في نظره في غنى تام عن رحلة البحث عن كنز لن يُضيف لهما شيئا فهما يتوفران ويملكان ما يحلم به أمثال الحسين هكذا ظل الحسين يتحدث ويحدث نفسه بصمت طوال الرحلة إلى مزرعة سي خميس

ضواحي مدينة الفحص.

قبل الوصول إلى مدينة الفحص ببعض كيلومترات اعترضتهم لافتة تُشير إلى مدينة رومانية أثرية تسمى «توبوبوماجيس» طلب سي خميس من الحسين المغربي أن ينتبه إليها لأنها تَحُد ضيعته من الاتجاه الآخر. بعد ذلك وقبل الدخول إلى مدينة الفحص في المفترق الأخير انعطف سي رابح يمينا عبر طريق فرعي حيث تشير اللافتة إلى اتجاه كل من مدينتي «جبلاط» و«مجاز الباب». بعد كيلومترين على أبعد تقدير انعطف سي رابح على اليمين في طريق غير معبدة حيث ظهرت عليه علامة التذمر والخوف وهو يشتكي من أن طريقا كهذه كفيلة بأن تُسبب عُطلا لسيارة ابنه المهندس الجديدة.

بعد أقل من خمسمائة متر كانوا داخل ضيعة فلاحية مجهزة بكل ما يلزم. هناك في تلك الضيعة وجد الحسين أحلامه ما كان يحلم به ويناضل من أجله قبل أن يُصادره الجفاف. وجد الحسين هناك عند سي خميس كل ما كان يحلم بتحقيقه في قرية «الكصيب» سي خميس الذي لا يُوحي مظهره بالغنى، حيث اعتقد الحسين لأول وهلة بأن سي رابح رجل ميسور الحال أكثر من سي خميس، لكن يومها فقط اكتشف الحقيقة. ضيعة تمسح حوالي خمسة هكتارات مُشجرة بأشجار الزيتون واللوز ومسيجة بنبات الصبار الذي بدأت أزهاره بالتفتح لتُعطي جمالا ومنظرا يبعث على الارتياح، بئر مجهزة بمحرك لضخ المياه، حوالي نصف هكتار مخصصة للزراعة السقوية خضروات، فواكه موسمية، بطيخ أحمر وأصفر ...، أكثر من خمسين رأس غنم. إضافة إلى البقر.

منزل ريفي قديم يسكنه أخوه الكبير وأسرته رفقة أمهما العجوز، استقبلهم «المنجي» أخ سي خميس الكبير بكل حفاوة كان

على علم مسبق بقدومهم، كانت حفاوته بالحسين باعتباره مغربي أكثر من سي رابح. لحظتئذ شك الأخير بأنه ربما على معرفة مسبقة به منذ زمن طويل. وكيف لا وهو ينتظر قدوم مغربي منذ سنوات خلت، كل هذا زاد من استغراب الحسين في رغبة سي خميس وأخيه الحصول على كنز وهما يملكان مثل هذه المزرعة التي تمثل بالنسبة للحسين أكبر كنز. مجرد تواجد الحسين في مكان كهذا جعله يعيد حساباته كلها من جديد دخل في دوامة من التردد والحيرة.

كانت وجبة الغذاء أكثر من شهية، كسكس بلحم الخروف مع فواكه طازجة ولبن، كل ما هو طبيعي ويحبه واشتاق إليه الحسين كان حاضرا هناك. بعد الأكل مباشرة طلب منهم سي خميس زيارة المكان المقصود باعتبار الحركة تقل في وقت الظهيرة حيث يستسلم الكل للقيلولة أمام هذا الحر الشديد تفاديا لأعين الجيران المتطفلة والذين يراقبون أي تحرك غير عادي ومريب بعيون يقظة لا تنام من مسافات بعيدة.

استقل الجميع جرار الضيعة ليشق بهم الطريق وسطها في اتجاه ربوة تابعة للضيعة تحاذي المدينة الأثرية الرومانية السابقة الذكر. يفصل بينها وبين الضيعة أسلاك تحيط بالمدينة الأثرية من كل الجهات مع لافتات تجدها مكتوب فيها بخط أحمر واضح «ممنوع الدخول»، كان كل شيء في الربوة يُوحي بوجود كنز، الصمت الغريب، الحجارة الرومانية المتناثرة هنا وهناك، بعض الأعمدة الرومانية التي لازالت تقاوم في صمت.

كان المكان ساحرا يحملك إلى البعيد البعيد وأنت تتخيل رجلا روماني ثريا يقوم بحفر حفرة كبيرة ليخفي فيها كنزه وذهبه، المكان يجعل من مقولة: تونس مطمورة روما كلمة ذات معنى

ووجود حقيقي على الأرض، لحظتها تمنى الحسين لو كان يعرف فعلا من يستطيع إخراج هذا الكنز المزعوم الذي يتحدث عنه سي خميس وأخيه كحقيقة ثابتة غير قابلة للنقاش والشك. رؤية المكان زادت من تردد الحسين أصبح وجود الكنز أقرب إلى الواقع مما استوجب إعادة التفكير في خطته بناء على المعطيات الجديدة.

اقتنع الحسين بأن الأقدار تسوقه إلى حيث الكنز فهو لم يُخطط لأنه كف عن التخطيط منذ زمن بعيد كان يمشي بقوة الدفع وهي وحدها من قادته إلى هنا، أصبح فجأة في حيرة بعد أن كان قد حسم أمره. إيطاليا الكنز، إيطاليا الكنز، هكذا ظل يفكر طوال طريق العودة إلى المرناقية، أعطاه سي خميس كيس بلاستيكي صغير مملوء بتراب المكان ليعرضه على الشيخ المزعوم جلبه ليتأكد بنفسه من وجود الكنز.

– هز معاك شوية تراب عطيها للشيخ غادي هو يعرف كيفاش يتصرف معاه.

لم يكن سي خميس في حاجة لإقناع سي رابح أكثر ما كان في حاجة لإقناع أخيه المنجي بخطته. يومها فقط اطمأن سي خميس. عاد إلى تونس قَرِيرَ العين وهو يُعيد حساباته من جديد بموافقة المنجي واطمئنانه للحسين، جعل سي خميس خارج الخسارة بشكل كُلِّي وفي جميع الاحتمالات. سيتكفل كلّ من المنجي وسي رابح بالمصاريف، صحيح أنه سيُقرض سي رابح لكن بضمانات بنكية تجعله في منأى تام عن أي خسارة وفي حالة استخراج الكنز فسيحصد الذهب الذي انتظره منذ زمن طويل، هو من سَيُدير العملية، الإدارة تُساوي المشاركة المالية هكذا أقنع سي خميس نفسه، ألا يكفي أن أخاه يأخذ الثلثين من إيرادات الضيعة بداعي الإدارة والعمل بينما يكتفي هو

بالثلث ويُقسم الثلث المتبقي على أخواته البنات وأمه،

يومها أظهر المنجي حماسا واضحا للحسين المغربي، أعطى لسي خميس مبلغ ألفين دينار تسبقة على المصاريف، وهكذا لم يدفع الأخير من جيبه ولا دينار واحد.

في طريق العودة وفي قرية الفجة طلب سي خميس من رابح التوقف في مقهى «ولاد الطيب حمودة» لوضع اللمسات الأخيرة للخطة قبل الوصول إلى المرناقية بعيدا عن أعين المتطفلين من الزملاء والأصدقاء الذين لا يجب أن يعرفوا صلتهما بالحسين المغربي.

في المقهى أعرب الحسين عن استعداده السفر إلى المغرب في الخامس من شهر جويلية 1999 حيث سيكون قد تحصل على مرتبه واستأذن من صاحب المعمل. سي خميس الذي سيتكفل هو بحجز تذكرة الطائرة، ما على الحسين إلا أن يمده بنسخة من جواز سفره ليمكنه من التذكرة ومن المبلغ المالي المتبقي والمتفق عليه يوم الرحلة وفي المطار، بدا سي خميس حريص كل الحرص على هذه النقطة بالذات، كما طلب من المغربي أن يُسلمه في الغد نسخة من جواز سفره بشكل سري، وأن يتصرف بعدها في مقهى القدس إن حصل والتقيا صدفة كأن لا علاقة ولا معرفة تجمعهما بتاتا تفاديا لعيون الجواسيس التي تتابع كل شاردة وواردة بعيون لا تنام.

يومها لم تكن العين لتُخطئ تضايق سي رابح من قسمات وجهه المكفهر فهو طوال الرحلة وفي المزرعة لم يُطلب رأيه بتاتا في أي نقطة في الموضوع والأهم أن سي خميس لم يتطرق أبدا لموضوع السلفة كأنها لم تعد مُدرجة أو أُلغيت من برنامج الأخير بشكل تام، كأنه لم يعده، سي رابح كان في أمس الحاجة إلى المبلغ، فقد توازنه المادي بشكل نهائي لا رجعة فيه منذ دخول ابنه اسكندر إلى الجامعة

الخاصة، عندما تخرج واعتقد سي رابح بأنه سيرتاح باغته زواج ابنته الذي أتى على كل ما بقي من توازن مادي، كان يراهن على مساعدة أبنائه له، ليكتشف أنهم لازالوا يطمعون في مساعدته لهم.

لم يعد سي رابح مرهونا للبنك فقط بل للجزار والخضار والبقال وسي خميس، كل ما عليه فعله آخر كل شهر عندما يتحصل على بقايا مرتبه، يحاول فقط أن يكون بارعا في اقتسامه ليُرضي كلّ الدائنين. لن يعود اليوم إلى مريومة فارغ اليدين، سينتظر نزول الحسين المغربي ليطالب سي خميس بالوفاء بوعده لن يخجل الوعد وعد. لكن سي خميس وفي الدقيقة التسعين أعفاه من ذلك، كان كمن يقرا أفكاره ما إن نزل الحسين من السيارة حتى بادره.

- اشنو سي رابح جبت معاك الشيك؟

- ايه سي خميس معايا.

وهو يحاول جاهدا أن يخفي فرحته ويتغلب عليها.

- تفضل سي رابح هاي زوز ملايين احسب فلوسك وعطيني خمسامائة دينار نتاع الراجل.

- ايه سي خميس هذا كلام نحسب عليك.

- مثبت ماو أش قاعد تعمل سي رابح ولا لا؟

- اشنو سي خميس ولاد صغار احنا.

- أكهو نذكر فيك واكهو خاطر الواحد يلزم يعمل حساباتو ما تقولش غدوة سي خميس هو لزني خمم مليح وحط في بالك الربح والخسارة.

- ما يكون كان الخير سي خميس إن شاء الله ربي معانا ومربوحة هههه.

ارتاح سي خميس للحل الذي وصل إليه وخصوصا اقتناع المنجي بتمويل عملية استخراج الكنـز بالتشارك مع سي رابح، حيث سيتم اقتسام الكنـز على ثلاث أقسام. قسم له هو وقسم لسي رابح وقسم الأخيـر للعراف الذي سيتم جلبه على هذا الأساس وعلى هذا الشرط وهو من سيحدد نصيب الحسين المغربي الوسيط من نصيبه.

لم تعد تفصله عن تحقيق الحلم الكبير إلا أشهر معدودة، أخيرا ستتحقق كل الأحلام سيفتتح المدرسة الخاصة التي ظل لسنوات يحلم بإنشائها. فهو يمتلك أكثـر من قطعة أرض صالحة للبناء في مدينة المرناقية والتي لا توجد فيها إلى حد الساعة مدرسة خاصة. رصيده في البنك في تصاعد مستمر، كل شيء يسيـر وفق خططه العبقرية اعتبـر نفسه ذكيا كيف لا وهو يحمل بذور ومبادئ الرجل الرأسمالي المعاصر، ابتسم لعبقريته، مشروع بصفر مليم يمكن أن يَعود عليه بالملايين وإن فشل فهو لم يخسر ولا مليم.

الفصل 7

الحيرة

«تبدو الأشياء دائما مستحيلة إلى أن نقوم بها»
نيلسون ما نديلا

لم يكن خميس وحده المبتسم بعد ذلك اللقاء أو الاجتماع بعبارة أدق، افترق الجمع كله مبتسم من أعطى باليسار وهو ينتظر أن يقبض باليمين ومن وقع ورقة وأخذ مقابلها مالا الكل يبتسم ويُبشر نفسه بمستقبل زاهر، إلا الحسين الذي احتار أمام العرض الذي قُدم له فهو من جهة بعد زيارته لضيعة سي خميس ومعاينته للمكان المشكوك في وجود الكنـز فيه حيث تُشيـر كل الدلائل المرئية والغير مرئية بأن نسبة وجود الكنـز هناك كبيـرة جدا، فالمكان يعُج بالآثار الرومانية القديمة فضلا عن السكون المريب الذي يؤكد حراسة جيش من الجن له حسب رواية أحد العرافين التونسيين.

كانت مشكلة الحسين تتمثل في كونه لا يعرف من العرافين في منطقته إلا سي بوعزة فقيه قرية «الكصيب» سي بوعزة رجل مُسن لن يتحمل مشقة السفر إلى تونس وفضلا عن ذلك لم يسمع الحسين

لا من قريب ولا من بعيد بأن لسي بوعزة خبـرة في استخراج الكنوز، صحيح أنه ذُو مواهب متعددة فهو إمام مسجد القرية ومُعلم ابنائها وخطيب مسجدها وكذلك طبيب القرية سي بوعزة شريك غيـر مُعلن لكل أُسر القرية في كل ما يملكون من متاع الدنيا البسيط.

شخص مُهاب في القرية الكل يتجنب غضبه تُدفع له الإتاوات في جميع المناسبات الأفراح والأتراح، هو من يذبح خروف أي مولود جديد في القرية ويُحي ليلة عقيقته. هو من يقوم بختان الذكور في القرية. وهو من يقوم بتوديع أموات القرية، وكذلك هو من يُعيد الأزواج الشاردين والخائنين إلى رشدهم في القرية، يكفي حجاب واحد منه وبعض من البخور حتى تتغيـر حالة الزوج ويصبح مُطيعا. سي بوعزة محبوب نساء القرية وناصرهن ضد ظلم الرجال تجد منـزله يعج كل أصيل بعدد كبيـر من النسوة الراغبات في حجاب لجلب الرزق، لجلب حب الحبيب حتى العوانس منهن يبقى سي بوعزة هو أملهن الوحيد سي بوعزة هو طبيب القرية يُداوي جميع الأمراض يكفي لمن يشكو آلاما حادة في الأسنان تعويذة من سي بوعزة حتى ينتهي الألم كأنه لم يكن.

رغم أن بعض شباب القرية المتعلم حاول أن يُشكك في قدراته لكن النتيجة كانت مخيبة للآمال لا يمكن لأي عريس لم يحظى بموافقة ومباركة سي بوعزة أن يحظى بليلة دخلة هنية عادية، يجد نفسه عاجزا تماما أمام عروسه هنا تتدخل النسوة ويطلبن بإلحاح يصل إلى حد التوسل من سي بوعزة مسامحة الشاب والتدخل لفك لغزه وعجزه، أصبح الكثيـر من الشباب يشكون بأن سي بوعزة هو من يقوم بتصفيح أي عريس ناشز تمرد على سلطانه، سي بوعزة هو من يكتب رسائل القرية ويقرأها يعرف كل صغيـرة وكبيـرة في القرية.

لكن الحسين لا يحتفظ بعلاقة طيبة مع سي بوعزة كان هو من بين الشباب القلائل الذين تمردوا على سلطانه ولم يتم ترويضهم، سي بوعزة نفسه يُكن للحسين حقدا عميقا لسلاطة لسانه واستهزائه المتكرر منه حيث اعتبـرت أم الحسين بأن النحس الذي يلازم ابنها وموت بقرتيه كان نتيجة طبيعية للعنة سي بوعزة التـي تلاحقه وعدم رضاه عنه، طلبت منه مِرارا أن يحمل إليه ديكا أسودا مع سلة من البيض وبعض الدراهم ويقبل يديه ورأسه ليسامحه ويُباركه لعل النحس الذي يُلازمه يـرحل عنه إسوة بكل شباب وبنات القرية الذين كانوا يَشكون مما يشكو منه لكن بفضل مباركة وحجاب من سي بوعزة تغيرت أحوالهم إلى الأفضل فُتحت كل الأبواب الموصودة في وجوههم فجأة دون سابق إنذار.

كان الحسين يعتبـر ولا زال بأن سي بوعزة لا يَعدُو أن يكون دجالا كبيـرا اختلط عليه عمل الكاهن بعمل الفقيه. وهذا ما يؤكد في نظره أن الإسلام لم يُغيـر الشيء الكثيـر في طبيعة المجتمع الأمازيغي الذي ظل طوال هذه السنين الطويلة ينظر إلى رجل الدين الكاهن والكاهنة كإنسان مقدس يمتلك من القدرات والتفويض الإلهي ما يجعل منه شخصا مُقدسا، لم يُغيـر حفظ القران بالكامل في سي بوعزة والكثير من أمثاله شيئا والأكثر من ذلك منحه مزيدا من القُدسية والهبة باعتباره العارف بأسرار الله والمتحدث باسمها فغضب سي بوعزة في القرية يعني في أحيان كثيـرة غضب الله. يختلط عمل رجل الدين بعمل الكاهن في جل القرى الأمازيغية المغربية سي بوعزة نسخة واحدة من آلاف النسخ التـي تعيش وتستمد سلطانها وثـروتها من المزج بين عمل رجل الدين والكاهن ومنهم فعلا من يتمتع بقدرات خارقة يعجز الانسان المثقف عن تفسيـرها في أحيان كثيـرة.

لم يهتدِ ولم يستقر الحسين بعد على رأي، عمّق قرار سي خميس من ترددِه، لو سلم له النقود كما كان يتمنى لكانت وجهته إيطاليا لكن الأخير كان أكثر من حريص، سيسلم له المبلغ في المطار وربما عند مدخل المسافرين. لم يبقَ على موعد السفر إلا عشرة أيام.

في مكتب الجندوبي الفاخر حيث طلب عطلة لزيارة أهله في المغرب أجابه الجندوبي.

– باش تمشي للمغرب ولّا لـمّيت الدزّة باش تحرق كيما الجماعة لي سبقوك لإيطاليا.

– لا والله عرفي باش نطل على دارنا.

– أنا ميهمنيش ربي معاك حتى كان ماشي تحرق المهم تغيب أكثر من شهر من غير ما ترجع.

– باهي عرفي.

– استنى خوذ مائتين دينار قول الجندوبي خايب معايا.

– لا بارك الله فيك عرفي يرحم والديك.

كل شيء تحت السيطرة أصبح أمام الحسين شهر واحد في المغرب يعثر على شيخ أو لا يعود وليذهب كل من خميس ورابح للجحيم.

– شيخ من المغرب يطلع الكنوز تسطاو في ريوسهم أجي وهز شيخ لقيتو أنا لراسي.

قبل السفر بأيام قليلة كان الحسين على موعد مع مفاجأة أخرى لم تخطر على البال زاره المنجي أخو خميس وحده في المعمل طلب منه أن يحرص كل الحرص على جلب الشيخ ووعده إن تم الأمر فله مكافئة خاصة منه، لم ينتظر المنجي جلب الشيخ ليكافئ الحسين

أعطاه يومها مبلغ ثلاثمائة دينار إضافية.

– هذه من عندي نعرف خويا خميس قرناط شوية وما يعرفش حق الرجال أنا شفتك طمأنت ليك مازال باش نشيخك كان تقضى المراد إن شاء الله.

زادت هذه المكافئة الغير المتوقعة من اطمئنان الحسين أصبحت إيطاليا مُتاحة الان، أصبح بإمكانه السفر إلى صفاقس وركوب إحدى قوارب ما يسمى بالموت في قاموس المجتمع الدولي وبقوارب الأمل والحياة في قاموس كل بؤساء العالم أمثال الحسين القاصدة إلى الديار الإيطالية دون تأشيرة. أصبحت الرحلة إلى هناك مُتاحة دون أن ينتظر ما سيقدمه له سي خميس اعتبر الحسين بأن أيام سعده قد اقبلت تذكر المثل القائل.

«إذا أقبلت باضت الدجاجة على الوتد وإذا أدبرت بال الكلب على الأسد».

أيام سعده هذه يجب أن يستغلها أبشع استغلال اقتنع الحسين بوجود الكنز وقرر أن يغض النظر عن الهجرة إلى إيطاليا، سيسافر إلى المغرب وسيبحث عن العزام المطلوب، أين أمه لتتأكد بأن النحس الذي تسببت فيه لعنة سي بوعزة حسب زعمها. قد زالت بطُلت ذهبت مع الريح لم يعد لها أثر. النقود تتساقط عليه من السماء وهو الذي كان يفكر لعشر أيام خلت والشوق يقتله، كيف السبيل لزيارة المغرب؟ المغرب يناديك الحسين يفتح لك ذراعيه مدينة أكادير تستعد هذه السنة لاستقبال مهرجان ضخم كل وسائل الإعلام العالمية تتحدث عنه، أكادير المدينة تتزين كعروس لاستقبال نجوم العالم أُعلنت سنة 1999 بداية لمهرجان موازين العالمي الذي تُراهن الدولة عليه لتحقيق التوازن بين مكونات المجتمع تحت شعار.

«لنحارب الفقر بالفن، لنحارب الجفاف بالفن»

«لنحارب الإقصاء بالفن، لنحارب الإرهاب بالفن»

كما أعطت وزارة الثقافة المغربية كسابقة تاريخية من نوعها في المنطقة الضوء الأخضر لترجمة جميع المسلسلات المكسيكية التي أدخلت بحلقاتها الاربعمائة الفرحة والسرور إلى الأسرة المغربية يجب أن يُترجم الحوار العظيم والملحمي إلى اللهجة العامية لينتشر الفن، العلم، والاحساس بالسعادة بين جميع أصناف المجتمع لتتحقق العدالة، من حق الجميع التمتع بمسلسلات الحب الثروة العاطفية والإباحية للجميع من حق أي واحد أن يحظى بنصيبه منها ستقوم وزارة الثقافة من هنا فصاعدا بدعم مادي ومعنوي لكل عمل يتماشى مع السياسة الجديدة للدولة، والتي تتبنى شعار.

«أتركوا لنا نحن من رضي بالقناعة ثروات البحار والفوسفاط والبترول نحن القيادة القانعة بالأشياء الزائلة تمتع أنت أيها الشعب الكريم بالمجد والحب واترك لنا المادة والثروة فهي لنا وحدنا لن نزعجكم في الصيف لن نتشارك معكم نجومكم سنكون في أوروبا نتبضع ونصطاف على شواطئها لتهنؤوا أنتم بنجومكم».

لم يكن الحسين وحده من يُمني النفس بشواطئ أكادير وبالثروة التي تنتظره لم يكن الحسين وحده من اقتنع بأن أيام السعد قد أقبلت شاركه في ذلك سي رابح الذي عاد ليلتها إلى المنزل منشرح الصدر مما شجع اسكندر وبإيعاز ظاهر من مريومة.

- بابا مانلقاش عندك مائة دينار لراس الشهر.

كانت نظرات التشجيع من مريومة التي عرفت بأن النقود موجودة من ملامح وجه زوجها كافية لتجعله يحس بالضعف ويستسلم.

- أي تاخو سي اسكندر ولو أني عارف ما كش باش ترجعلي راس الشهر أما تفضل قبل ما تتغشش عليّ المديرة.

هاتف اسكندر حبيبة القلب أميرة مباشرة بعد حصوله على المبلغ.

- حضري روحك حُبي أَنِي جاي نهزك نسهرو الليلة في الحمامات حُبي.

- واو واو واو حُبي حتى هي مقينة عرفتك منهونش عليك باش دبر فلوس نتاع السهرية أنا فُريرة ونكون حاضرة.

في حين امتزج الاحساس بالفرحة والندم عند مريومة ناصحة ابنها وهو يتعطر قبل الخروج بالتمهل وملازمة الحذر في السيارة وأثناء الطريق فهي لا ترتاح أبدا لأميرة هذه ورغم ذلك تُصر على التظاهر برضاها التام على علاقتهما إكراما لابنها فقط.

- رد بالك على روحك ماتشربش برشة راك باش تسوق عيش ولدي.

- باهي مريومة ياخي أنا نشرب.

- جملة نعرف بالله طمني رد بالك على روحك.

- باهي مريومة المزيونة باهي.

في الغد كان سي رابح ومريومة يتبضعان من المركز التجاري الجديد «كارفور» الذي افتُتح مؤخرا في ضاحية المرسى، المكان المفضل لسي رابح حيث يقطن عِلية القوم وحيث يجب أن يكون. وهو يتجول بين أروقة المتجر الكبير بعربته المحملة بكل ما لذ وطاب أخبر سي رابح مريومة بأن أيام العز قد أقبلت وأن حياتهم من هنا فصاعدا ستكون على هذا النسق لم تعد تفصلهم عن الثروة إلا أيام

معدودات فالحسين المغربي سيُسافر في السادس من شهر جويلية. المندوب المالي الذي سيجلب لهم شيخ الرخاء من المغرب ليتمتعوا ليودعوا الضنك.

في السيارة في طريق العودة إلى المرناقية أكد سي رابح لمريومة بأن أيام المتع قد أقبلت ولن تختفي مُجددا لن يسمح لها بان تُديـر لها ظهره هذه المرة الكنـز موجود في لحظات عديدة هناك في مزرعة سي خميس كان يسمع صوتا هاتفا مع الرياح يقول له أنا الكنـز الذي استعصيت عن الجميع منذ آلاف السنين من أجلك سي رابح فقط ولكي أُعطي لاسمك معنـى حقيقيا على الأرض، لا يكفي بأن يكون اسمك رابح بل يجب أن تربح وأن تربح كنـزا. مريومة لم تكن تنتظر إشارة وتأكيد سي رابح لتتصرف على هذا الأساس حيث طمأنت كل أبنائها وهي تشتري من المركز التجاري كل الأشياء التي يحبونها شكولاطة مستوردة لنور، حفاظات من نوع رفيع لحفيدها، عطر فاخر لاسكندر... متحررة من الخوف من نفاذ النقود اشترت كل ما يلزم من مُؤن لعطلة الصيف.

نعم كل أحلامهم ستتحقق هذه السنة بعد المصيف ستكون بانتظار مريومة أعمال كثيـرة لن تسمح لأم أميـرة بأن تُملي عليهم أوامرها لن تتغاضى عن تصرفاتها المتعجرفة، ستقوم بإنـزالها من بـرجها العاجي لن تقف عند ذلك بل ستحاول بكل ما أُوتيت من قوة صرف نظر ابنها عن هذه المتحايلة الشمطاء التـي استحوذت عليه، كانت مريومة تُحس وتشعر بأن ابنها قد سُرق منها لم تتمتع به كِفاية وكما كانت تحلم وتتخيل أصبح وجوده في المنـزل كالضيف وإن حدث ومكث في المنـزل كثيـرا فبـرفقة أميـرة حيث يحرص أن لا يزعجهما أحد ويكون دور مريومة شرطي الحراسة لا غيـر أحيانا

تُحس بان اسكندر لا ينتبه لوجودها تتألم كثيـرا لذلك مما يجعلها تتفق في أحيان كثيـرة مع رأي زوجها في خصوص أنانية اسكندر وحبه لذاته الذي لا يـراعي بتاتا في أفعاله المشينة في كثيـر من الأحيان مشاعر أُسرته وحُرمتها.

اسكندر لم يعد يـرَ في حياته إلا أميـرة هذه، اكتسب كل طباعها وطباع أبيها السكيـر الذي يشاركه في أحيان كثيـرة جلساته الخمرية أصبحت مريومة تُوافق زوجها وتميل إلى تصديق شكوكه بأن أميـرة بدورها تحتسي الخمر، لكنها مع ذلك لا تقوَ على إغضاب ابنها ومواجهته بكل شكوكها وشكوك زوجها. نقطة ضعفها اسكندر هي التـي تطبخ كل الطعام في المنـزل بناء على ذوقه ورغبته، فكرت مريومة وقررت أن تطلب من الشيخ المغربي أن يُنقد ابنها من سحر هذه الشمطاء، ابنها ليس كما هو ليس هذا اسكندر الذي ربته ابنها يستغيث يجب أن تُنقده فهو ضحية سحر أميـرة، كيف لم ينتبه إلى حد الآن إلى جمالها المزيف، كيف؟ لا يفل الحديد إلا الحديد، لن تتسامح مريومة مع أميـرة ستكون إزاحتها من حياة اسكندر على رأس قائمة بـرامجها إن تم استخراج الكنـز الذي يجب أن يخرج.

الفصل 8

سي خميس

«كيف تطالب أحدا بالتزام فضيلة
وأنت الذي لا تؤمن إلا بنزواتك»

نجيب محفوظ

لم يكن سي خميس يُؤمن بوجود فصل اسمه الصيف ولم يكن يؤمن بوجود متعة أخرى غير مُتعة جمع المال، كانت هذه أكبر متعة يجب أن يتجند لها أي إنسان حسب رأي سي خميس فهو يستغرب كثيرا من رجل كسي رابح. كيف يستسلم هكذا لرغباته ورغبات أبنائه ويُنفق دون حساب كل ما يملك وما لا يملك من أجل مُتع زائلة وتافهة، حرص سي خميس طوال حياته بأن يُعطي مبررا أخلاقيا لمبادئه وحرصه على جمع المال، نافيا عن نفسه صفة البخل والشح التي يحاول الآخرين بما فيهم زوجته وأبنائه إلصاقها به، تارة يتدثر باسم الدين باعتبار التبذير من عمل الشيطان، وتارة يعتبر ما تعيشه أُسرته وهو يخاطب زوجته وابنه مرحلة بناء اقتصاد أُسري مؤقت يستوجب حالة من التقشف، واعدا إياهم بعهد

جديد يتسم بالرخاء والرفاهية، عندما تتحقق كل الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها.

نجح سي خميس لفترة طويلة بأن يفرض نمط عيشه المتقشف على أسرته، لكن هذه الأيام بعد غزو ثقافة الصحون الهوائية بدأت الأمور تخرج عن السيطرة فعهد الرخاء الذي وعدهم به منذ وقت طويل لم تظهر بوادر قدومه بعد، كلما سُئل سي خميس عنه وعن وعده اعتبر الأمر سابق لأوانه.

- ياخي أنا على شكون نجري ونتعب مش عليكم باش نخليلكم مفرهدين بعد عمر طويل إن شاء الله.

- احنا بابا نحبو نشيخوا كي العباد معندنا مانعملو بالفلوس في البنك نلبسو من الفريب ومشبعناش حتى في كروشنا.

- اسكت ما قل حياك ولد مش متربي.

أصبح لسي خميس معارضين من أبنائه. ابنه ياسين في السادسة عشر من عمره والذي يتعب ويشقى سي خميس كما يدعي دوما أمامه من أجل أن يُورثه هذه الثروة غير مقتنع بوجهة نظر أبيه، والأكثر من ذلك يعتبره بخيلا، تجرأ وقالها له صراحة، دعمته في ذلك أخته غفران ولم يستنكر أحد جرأته ويعتبرها عقوقا، تحصنت زوجته في صمتها وهي تدافع عن ابنها عندما هم سي خميس أن يُعاقبه، مما جعل سي خميس يومها يتأكد من ظنونه في أن مصدر البلاء هي زوجته وأخوه المنجي.

سي خميس إذا حصل وتنازل تحت ضغوط كبيرة تتدخل فيها كل الأطراف لإقناعه بما فيهم أمه العجوز، على أن تقضي الأسرة يوما واحد في إحدى شواطئ تونس القريبة، يكون ذلك وفق شروط مسبقة من سي خميس أولها أن تقوم الزوجة بإعداد وجبة

الغذاء المتمثلة في سلاطة خضراء ومُقلي، خضروات دون لحم، لولا الخوف لأمرها بتحضير بقوليات الشتاء فالعدس والفاصولياء مكونات غذائية هامة عند سي خميس، فهي تحتوي على الحديد والعديد من الفيتامينات متهما الناس الآخرين بجريهم أللا مشروط وراء الأكل الجديد الغير صحي والباهظ الثمن، حسب رأي سي خميس. المحمصة وجبة شتوية رئيسية في طاولة سي رابح الشتوية دوما ينصح زوجته.

- ركزي على الجاري في الشتا نافع للبدن وصحي يا مرا شبيكم ماتفهموش.

- حتى اللحم راهو نافع برشة خميس ماعندك ماتقول فيه.

بعد أن تعد الزوجة الوجبة التي يكون قد اختار مكوناتها سي خميس بعناية فائقة لتتلاءم في الظاهر مع صحة أبنائه التي يحرص عليها وفي الباطن مع ميزانيته المرصودة لنفقات البيت والتي لا يجب أن يتجاوزها تحت أي ظرف وطارئ كان، يكون مطلوب من كل الأسرة بأن يستيقظوا تمام الساعة السادسة صباحا حيث يسلك بسيارته مسالك بعيدة كل البعد عن دوريات رجال الشرطة باعتبار سيارته تجارية وغير مؤهلة لنقل الأفراد، خوف سي خميس ليس لكون الدورية ستعاقبه وستسحب منه رخصته وفق القانون، بل لأن سي خميس يخاف بأن يُضطر لإعطاء رشوة خمسة دنانير لأحدهم إن تم إيقافه.

مرة حصل ما كان يخاف منه حيث وجد نفسه أمام دورية مفاجئة لكن سي خميس لم يتنازل ولم يقوَ على إعطاء الخمس دنانير ادعى أمام الشرطي الفقر المدقع، وبأنه رجل فقير مغلوب على أمره ومضطر استسلاما لرغبة أبنائه الذين لا يراعون وضعه بأن يخرق

هذا البند من القانون الذي يحرص هو على احترامه لولا الظروف والفقر، كاد الشرطي المسكين تضامنا مع سي خميس أن يُعطيه هو خمس دنانير بل طلب منه إن كان يحتاج إلى توصية للحصول على تخفيض لشراء بعض المأكولات السريعة للأولاد من المطعم المقابل فهو مستعد لذلك.

كل هذا، ومع مرور الوقت جعل من ياسين شابا مُتمردا محتقرا لأبيه ولا يحترمه، أصبح يقلد طريقة كلامه وتصرفاته في غيابه ولا يتوانى عن اتهامه بالبخل والشح أمام أصدقائه وهو يسرد أمامهم كل المواقف الطريفة لبخل أبيه، دون إحساس بحرج أو عار حتى ليَظُن المستمع إليه بأنه يتحدث عن شخص آخر ليس أباه أو ربما يمزح إذ لا يمكن لكلامه أن يرقى إلى الصحة.

كان كل ما يهم سي خميس وقتها وفي ذاك الصيف بالذات هو الحسين المغربي أن يهاتفه من المغرب وأن تحمل له المكالمة الخبر الذي ظل لسنوات عديدة ينتظره. في لحظة نشوة وعد ابنه ياسين بشراء دراجة هوائية وبأن يدفع تكاليف اصطيافه مع جمعية الاصطياف في المرناقية إن تم ما ينتظره على أحسن وجه.

الفصل 9

المغرب الكبير العميق

«عندما يلبس الظلم رداء التقوى تُولد أكبر فاجعة»
حكمة

في مطار محمد الخامس بالدار البيضاء تستقبلك لافتة كبيرة. «مرحبا بكم في بلادكم».

يتفحص موظف المطار جوازك بعناية ينظر بدقة إلى المبلغ المسجل على جوازك من العملة الصعبة وعلى قدره تكون الابتسامة أو عدمها كلما كان المبلغ ضخما حظيت بابتسامة كبيرة وترحيب أكبر، هناك حيث انتابت الحسين المغربي مشاعر غريبة وجديدة لم يشعر بها من قبل أحس وهو ينظر إلى نمط عيش الأغنياء من الناس تأكد وقتها بأنه لم يكن يعيش كان يتنفس فقط كان رصيده من مُتع الحياة وهو ابن الثامنة والعشرين صفر أو تحت خط الصفر، لم يعرف من الأكل إلا البقوليات واتباعها، يُعتبر اليوم الذي يأكل اللحم فيه هو وأمثاله عيد. كانوا ينتظرون عيد الأضحى بفارغ الصبر ليأكلوا اللحم، لم يعرف جسمه من الملابس إلا المستعملة منها،

تساءل الحسين. هل بطريقة عيشه تلك يرقى إلى مستوى الانسان؟ لا يعتقد ذلك في داخله ينمو كُره غريب لا يعرف لمن سيوجهه، إن كان سي رابح وهو أستاذ يملك منزلا ومرتبا محترما متزوج وصاحب سيارة يعتبر نفسه ضحية لما يسمونه نظام مُعين، كما يعتبرون حقوقهم مهضومة، ماذا يمكن أن يقول الحسين وأمثاله؟ اعتقد الحسين جازما بأن هذا العالم لا يعترف بوجودهم حتى.

– فكيف سيعترف بحقوقهم؟

أكادير تتزين لاستقبال نجوم العالم العربي. نجوى كرم، راغب علامة، كلهم سيمرون من هنا ساعتين فوق الركح ساعتين فقط كافية ليجنوا ثمار المغرب الشهية أموال ضخمة رُصدت لهذا المهرجان الذي يجب أن ينجح وينافس المهرجانات العالمية بل سيُعمم على أغلب المناطق المغربية. سيُصبح المغرب مع دخول الألفية الثانية بلاد المهرجانات وليس بلاد العدل والمساواة، سيُنَظم مهرجان للسينما في مدينة مراكش الحمراء ستُدنس عاصمة يوسف بن تاشفين عن قصد بالفسق والفجور والمثلية، المغرب يسعى لخلق صورة خارجية ناصعة، ولن يتم ذلك إلا بردم جزء كبير من الصورة القديمة.

في هذا الضجيج المنظم وهذا الجمال الخارجي الأخاذ لن يستمع أحد لصرخات وأنين المغرب العميق المطحون من سكان الأرياف والمدن المهمشة لن تُسلط الأضواء على هؤلاء سيتكلم العالم عن المغرب الجديد الجميل فقط.

في محطة الدار البيضاء الميناء سيُقرر الحسين أن يتمتع قليلا، قام بحجز تذكرة درجة أولى في قطار «عويطة» من الدار البيضاء إلى مراكش وبعد ذلك سيستقل الحافلة التابعة للسكك الحديدية

الفخمة «السُوبراتُور» حرص الحسين في الطريق على أن يتمتع. طلب من نادل القطار في مقطورته الجميلة صُحبة ثلاث أشخاص أخرين فنجان قهوة مصحوب بقارورة ماء معدني، لم يسأل هذه المرة عن السعر تحرر من هذا الإحساس المميت والخوف المرضي عند شرائه أي شيء كان دوما يسأل بخوف ظاهر عن السعر مخافة أن يكون أكثر مما يملك.

– شحال خويا وتصواب معايا.

دائما المغاربة أمثاله يبحثون في شرائهم عمن يرحمهم وعن أسعار زهيدة، في حين تجد الأقلية التي تعيش وتحيا فوق هذه الأرض الجميلة تشتري وتتبضع دون إحساس بالثمن، بل يستغرب أحيانا كيف يصل فنجان قهوة في بعض الأماكن إلى عشرة أضعاف قيمته الحقيقية ومع ذلك تجد المكان مُكتظ بالناس وهي تترشف فناجينها بسعادة منقطعة النظير، ثمن فنجان قهوتهم هو بالنسبة لأمثال الحسين يكفي ليعيشوا به كأسرة كاملة أكل ومشرب ليومين كاملين إن لم نقل ثلاثة. عن أي توازن اجتماعي نتحدث أو يتحدثون.

– مغرب الفقراء والدراويش.

نحن نعيش في عهد موازين وليس توازن اجتماعي. هذا فنجان قهوة لن نتكلم عن الملابس الفاخرة عن زجاجات العطر عن زجاجات النبيذ. نحن لا نعيش نتنفس فقط هم من يعيشون هم من يحيون هم من يعرفون اللذة الحقيقية لهذه الحياة. حرص الحسين في الاستراحات والمطاعم التي توقفت فيها الحافلة الفخمة بين مراكش وأكادير على أن يطلب أغلى الأطعمة التي تُقدم وهو يوبخ نفسه.

– كفى يجب أن أعيش أن أتمتع إنني أموت كل يوم.

ما عاشه الحسين في الطريق إلى قريته لم يكن إلا حلم جميل، ما

إن وصل إلى قرية «الكصيب» مرورا بأكادير وبتزنيت وقيادة ولاد جرار، وما إن شرب ماء القرية ما إن عانق أمه وإخوته ما إن رأى ملابسهم الرثة ومتاع منـزلهم البسيط، لا يفصلهم عن الأرض سِوَى حصيـر حقير لا يتعدى سُمكه سنتيمترات قليلة. يعيشون ملتصقين بالأرض إلى أن يُدفنوا فيها يستنشقون رائحتها صباح مساء في صحوهم ومنامهم، أغلب أواني منـزلهم فخارية بلون التراب لم تصل إليها ريشة الجمال ودُهنه ظلت على طبيعتها تذكرهم دائما بأنهم من التراب وإليه يرجعون. ما إن رأى الحسين كل هذا حتى انتابه ندم شديد على إسرافه للنقود التـي استأثـر بها لنفسه بأنانية مفرطة في الطريق إلى القرية، ما صرفه في رحلة لم تتجاوز ضوء النهار تكفي بأن تعيش به أُسرته الفقيـرة لأسبوع كامل.

- كيف تجرأ؟

ندم الحسين ندما شديدا على كل الخواطر التـي حدثته على التمرد، هذا التمرد الذي سينعكس سلبا عليه فقط، هذا التمرد الذي اقترن ذكره في المغرب بالفتنة، لن يعطي أية نتيجة إيجابية دائما كان مصيـر المتمردين الشقاء واللعنة الأبدية، هذا هو مصيـرهم يعيشون أبطالا فقط في مخيلة التاريخ أما الحقيقة على الأرض فهم عاشوا تعساء يحملون في قلوبهم وعقولهم هموم المنبوذين من الناس في هذا العالم. كان الكل في العائلة ينتظر ماذا سيُقدم لهم القادم الجديد، الكل ينتظر من الحسين، الأب مريض يقترب يوما بعد يوم بخطى ثابته من القبـر، الأم غاب فيها أي حس أُنثوي صارت كغالبية نساء القرية مخلوقات أخرى تفتقد إلى أي حس جمالي، لباس رث أسنان غائبة أيادي محفورة بأخاديد من الشقاء تتشابه إلى حد كبيـر بالأرض العطشى للماء، مباني كلها من الطين،

نحن نعيش في قبور فوق الأرض من التراب، منتظرين أن يتم ردمنا في التراب مجددا.

في أكاديـر الكل يستعد، الطرقات نظيفة المساحات الخضراء معشبة، الشواطئ متهيئة لاستقبال الضيوف، جمال وخيـرات بلادنا يتمتع بها غيـرنا، نحن لنا السردين فقط ولحم الدجاج الأبيض وإن وُجد والبقوليات وهم لهم الباقي الكافيار والنبيذ الحرام علينا والحلال عليهم لهم النساء الجميلات ولنا البقايا.

عليّ أن أبحث عن شيخ، هكذا حدّث الحسين نفسه أول ما وطئت قدماه أرض القرية، هذه هي مهمتي التـي مكنتني من المجيء إلى هنا لم تتغيـر الأمور لازالت على ماهي عليه، كأنني سافرت أمس لازال سي بوعزة وشيخ القرية يتحكمون بـرقاب الناس هنا، الأول بتفويض إلاهي لست أدري من أين استمده والأخر بتفويض مخزني يملك كل الصلاحيات ويملك كل الدلائل التـي تثبت أحقيته بالزعامة السياسة التـي تتوارثها عائلته أبا عن جد، كما يُوّرث كل شيء في بلادي، الحسين ورث الفقر لكنه أقسم بأن يتخلص منه مهما كلفه ذلك.

- أتخلص من الفقر أو أموت هذه هي معادلتي الجديدة.

لم تُدخل زيارة المغرب الفرحة إلى قلب الحسين كما كان يظن ويعتقد، عمقت من أحزانه كان منظر عائلته ومنـزلهم المتواضع الطيني مثيـرا للشفقة، كأنه يـراه لأول مرة كأنه لم ينم هنا لخمس وعشرون سنة مضت، تذكر بيته وسريـره في المرناقية اعتبره قصرا بالمقارنة مع منـزلهم هنا، عليه أن يبحث كل صباح عن مكان يختبئ فيه ليقضي حاجته هنا في مغرب موازين على أمه أن تجلب الماء كل يوم وهي تمتطي الحمار في رحلة يومية تستغرق ساعتين من الوقت

يحدث هذا كله الآن وربما غدا في مغرب المهرجانات والنجوم العالمية التي تُحج إليه الناس من كل حدب وصوب.

في الليل على الحصير حيث يجلسون وعلى ضوء الشموع في جلسة عشق وتسامر مع الفقر، يكون العشاء براد شاي مع الخبز الحافي وإن ابتسم الحظ وقليلة هي الأيام التي يبتسم فيها، يُغمَّس الخبز في شيء من الزيت أو الزبدة. إن كان الحسين يعتبر بأن الفرق بين تونس ومدينة المرناقية يقدر بالنسبة إليه بألف سنة ضوئية فإن الفرق بين قرية «الكصيب» وأكاديمر المدينة أكبر بكثير من ذلك، إذا قُدر لأي شخص أن يزور المكانين فسيعتقد جازما بأنه ربما انتقل من كوكب إلى آخر أو ربما سافر في مركبة زمنية أعادته ألف وخمسمائة سنة إلى الوراء. لا يمكن بأي شكل من الأشكال بأن نتحدث عن وجه من أوجه المقارنة بين المغرب العميق المطحون ومغرب الواجهة الثانية المُشعة.

تحاول الدولة بكل ما أُوتيت من قوة بأن تجعل من الأولى شيئا غير موجود غير معترف به لا ينتمي إلى خريطة البلاد. في المدينة يتحدون عن دور الصفيح هنا نتحدث عن دور الطين والكهوف في المدينة يتحدثون عن رداءة الخدمات الصحية والتعليمية و...و...و... هنا نتحدث عن انعدامها عن غياب شبه تام لكل الخدمات.

في الجهة الأخرى من المغرب الآخر في تونس الخضراء حيث تنعدم أحياء الصفيح ولكن لا ينعدم التهميش والفقر والذي يتخذ هناك أشكالا أُخرى تختلف في كثير من جزئياتها عما هو موجود في المغرب الأقصى، كان سي رابح مصحوبا بعائلته الصغيرة يتمتع بشواطئ مدينة المعمورة الجميلة، لأسبوعين كاملين كانت المتعة

هي الشعار المرفوع. لم يتبقى من المبلغ المُقترض من سي خميس شيء صُرف بالكامل ولم يَحز ذلك في نفس سي رابح كما حز في نفس الحسين بل شكر الظروف وشكر الحسين أيضا لأنه بفضله تمكن من سرقة أيام جميلة كالتي قضاها في هذا الشاطئ الجميل رفقة عائلته.

عندما تكون السيولة المالية متوفرة في بيت سي رابح يتغير كل شيء يصبح الأكل جيدا، تُضاف ملابس جديدة وجيدة تحمل علامات الماركات العالمية ذات الجودة العالية والغالية إلى دولاب جميع أفراد العائلة، يصبح قادرا على تلبية الطلبات التافهة لعائلته. سهرة في مقهى على الشاطئ، عشاء خفيف في أحد المطاعم، مثلجات، مكسرات عندما تتوفر هذه السيولة الكافية لتوفير هذه الأشياء يعم السلام والسعادة في البيت. مريومة تكون على استعداد للتغاضي عن كل شيء حتى عجز سي رابح الجنسي الذي لم يعد ينفع معه المص تصبح مريومة مستعدة للتغاضي عنه. تعوضه المتع الأخرى، ذاك الصيف عاد سي رابح ليدخن «مارس ليجير» من جديد وهو يُقسم بأنه لن يسمح بعودة تلك الأيام السوداء وذلك الدخان الأسود. أيام الضنك انتهت إلى غير رجعة تخيل نفسه صاحب ملايين سيشتري منزلا في ضاحية المرسى حيث يقطن عِلية القوم لن يبيع منزله الحالي سيستأجره كما يفعل جميع الأغنياء.

الفصل 10

تيزنيت

«على يميني مارد اسمه الفقر، وعلى يساري سفاح اسمه الاستبداد، وخلفي نظام يعذبني ويستعبدني منذ قرون خلت، وفي الأمام أرى تمرّد شعب ... ثورة شعب»

لم يكن المنجي وأخيه خميس يفكران كصديقنا رابح ولم يكونا متفائلان، تسرب الشك إليهما منذ الأسبوع الأول. الذي لم يتصل الحسين فيه حسب الاتفاق.

- توصل غادي إن شاء الله تتصل بينا كل جمعة.

اعتُبرا الحسين نصابا آخر فهو لم يتصل إلى حد الآن عشرة أيام كاملة دون مكالمة، بدأ يفقدا الأمل بشكل نهائي وخصوصا المنجي كل يوم يهاتف سي خميس مستفسرا إن كان الحسين قد اتصل. لكن دون جدوى سي خميس ارتاح كثيرا لخطته التي جنبته دفع أي مليم، مهما يكون الأمر فنقوده في مأمن تام، واعتبر سي رابح رجلا مجنونا أحمق كيف يصرف نقودا اقترضها بهذه الطريقة المجنونة حيث سيكون مضطرا لبيع سيارته أو رهن جزء من مرتبه لسنوات أخرى من أجل تسديدها، أية متعة يجدها هؤلاء الناس في هذا الهراء

«اصطياف»، آه كم هو نادم ومتحسر عن مبلغ الخمسين دينار التي اضطُر تحت التهديد بالانتحار ليدفعها كمساهمة ليشارك ابنه ياسين في إحدى المخيمات الصيفية.

لا يُؤمن سي خميس بالاستجمام الذي يتطلب مصاريف كثيرة أية متعة يجدونها على شاطئ البحر ما هذا الهراء لن يتسامح هذه المرة مع سي رابح سيكون صارما معه إذ لم يعد الحسين المغربي سيطالبه بدفع كل ما عليه من ديون في أجالها المتفق عليها لا تمديد، لا تساهل.

– يتشخلع على حسابي يمشي يزمريدز في صدرو بالفارغ عباد منيكة.

بعد خمسة عشرة يوما من البحث المُضنى عن عزام يكون مُستعدا للسفر إلى تونس واستخراج الكنز المطمور دون جدوى قُوبل طلبه بالرفض من كل الفقهاء الذين عرض عليهم الأمر. حزم الحسين أمره لم يعد هناك مُتسع من الوقت لن يعود إلى تونس اشترى من السوق الأسبوعية «لولاد جرار» بقرة حلوب مع عجلها واشترى ما يكفيها من العلف والشعير لمدة ستة أشهر طالبا من أمه وأخيه الاعتناء بها لأنه سيسافر في رحلة بحث أخرى عن عمل هذه المرة لن يسافر بعيدا سيجرب حظه في مدينة أكادير إن لم يجد فيها ضالته سيقصد الدار البيضاء وإن لم يسعفه الحظ أيضا هناك سيقصد مدينة طنجة. لا عودة إلى تونس انتهى كل شيء هناك.

جمع أغراضه في حقيبته ألقى نظرة على البقرة الحُلم وهو يتساءل: هل يسعفه الحظ لتكون هذه البقرة النواة الأولى لقطيع أبقار كما كان يتمنى دوما؟ يحلم بضيعة فلاحية مجهزة كالتي يملكها المنجي وأخوه في مدينة الفحص التونسية.

خمسة عشر يوم من البحث عن العراف الشيخ دون جدوى،

كل من قابلهم الحسين من الفقهاء وعرض عليهم الأمر رفضوا مُتذرعين بذرائع شتى، منهم من هو في غِنى عن مغامرة كهذه، ومنهم من لا علم له بطرق استخراج الكنوز، لم يكن الأمر سهلا كما تصوره الحسين وكما يتصوره هناك كل من المنجي وسي خميس لم يكن إغراء التذكرة كافيا ليحرك مشاعر الرغبة في المغامرة في أحدهم.

في البداية كان العثور على الشيخ المزعوم أمرا مُلحا بالنسبة للحسين ليس لحرصه هذه المرة على الكنز بل لأنه الوحيد الذي يستطيع من خلاله العودة إلى تونس وإلى المرناقية بالتحديد. وقتها فقط أدرك أن ما كان يعيشه هناك طيلة العامين والنصف هو نعيم حقيقي بالمقارنة بما هو موجود هنا من جحيم لا يطاق، كان يتقاضى مرتبا دون عمل حقيقي يقوم به، نصف ساعة من مراقبة وتفتيش فتيات المعمل نصف ساعة من المتعة والتحرش، بعد ذلك يقوم صُحبة مجموعة من الأصدقاء بحراسة إحدى أبواب المعمل المتعددة.

في الصيف يسهرون على كؤوس الشاي الأحمر والأخضر وهم يُقشرون حبات عباد الشمس السوداء إلى منتصف الليل بعدها يتناوبون على النوم، في الشتاء يسهرون على النار الدافئة كأنهم في مخيم شتوي، مسكن لائق لا يدفع مقابله أي مليم وفوق ذلك فهو مجهز بسرير لكل واحد وثلاجة وسخان مائي، صحيح أنهم هناك يعيشون على الكفاف لكن ذلك كان اختيارهم، عندما يذبح الجندوبي عجلا أو مجموعة من الخراف يحرص دوما أن يُمكنهم من نصيب محترم من اللحم ينسون خلال أسبوعين كاملين العدس والفاصولياء.

في عيد الاضحى فضلا عن الخروف الصغير الذي يمنحه لهم

الجندوبي، أغلب فتيات المعمل يجلبن لهم قطعا من لحم الأضحية تُنسيهم البقوليات لشهرين متتابعين بعدها تكون وجبتهم خالية من اللحوم الحمراء والبيضاء مالم يذبح الجندوبي عجلا أو خروفا لاستقبال ضيف كبير أو لنذر نذره.

أعاد الحسين تقييم وضعه في تونس من جديد ليكتشف بأنه كان يعيش في نعيم حقيقي هناك مقارنة بالوضع المزري في الكصيب القرية. الآن هو يحتاج إلى تأهيل بدني ليعاود العمل الشاق في المزارع بعد أن جرب وارتكن إلى الراحة في العمل هناك، كان خطأ فادحا منه، استسلامه لحنين الوطن المنسي المهمش وللمال الذي عُرض عليه من قبل سي رابح وسي خميس، الآن دون العراف لن يتمكن من العودة إلى المرناقية حيث يوجد عمله ومسكنه.

تذكر فتيات المعمل الجميلات والجريئات وكيف كان يستطيع دون مجهود يذكر أن يختلى بإحداهن في أحد المخازن، يكفي أن يتغاضى في المساء عما يُوجد في الحقيبة ليحصل على حب مجاني. منهن من عرضت عليه الزواج مقابل أن تكون سندا له في الحياة.

- مروكي تاخذني والله نعاونك راه.

هنا الجفاف الجفاف ولا شيء غير الجفاف. فكّر قبل أن يشتري البقرة حيث لازال يحتفظ في جيبه بنقود العودة وارجاع المبالغ لأصحابها لكن سي خميس سيطالبه بثمن تذكرة سفره وكذلك أخوه المنجي ثلاثمائة دينار هبة مقابل جلب العراف وليس مقابل السفر. يستطيع العودة إلى تونس لكنه لا يستطيع العودة إلى المرناقية سيكون عليه البدء من جديد في مكان آخر لا لن يفعل سيبحث هنا عن عمل في إحدى المدن الكبيرة في المغرب.

في مدينة تزنيت حيث قرر الحسين أن يستريح قليلا ليكمل

الرحلة إلى مدينة أكادير، وفي مقهى المرجان شارع الحسن الثاني سيستسلم لهواجسه وهو يحاول أن يُحدد استراتيجية واضحة لرحلة البحث عن عمل، تذكر أنه دوما في رحلة بحث عن عمل عن اللقمة عن الماء.

هل هي سخرية القدر؟ سيتشابه الأمر لحد التطابق بين ما حصل في مقهى القدس في المرناقية في تونس، وما حصل في شهر جويلية من سنة 1999 في مقهى المرجان في مدينة تزنيت المغربية، هناك اقتحم عليه سي خميس خلوته لينتشله من ضياعه وهنا اقتحم عليه جارهم كمال خلوته ليرسم له طريقا آخر مليء بالأمل والمال. لم يُقابل الحسين جاره منذ أعوام خلت والأكثر من ذلك فهما لا تجمعهما علاقة طيبة.

فكمال رجل فقيه شاب يكبره بأكثر من عشر سنوات. الوقت الذي يقضيه خارج القرية أكثر بكثير من الذي يقضيه داخلها، ابن قرية «الكصيب» الأيام التي يقضيها في القرية يحرص فيها على مساعدة سي بوعزة، عند تواجده في القرية يكون هو ساعده الأيمن والمتحدث الرسمي باسمه والمدافع عنهُ دون شروط مسبقة، كان هذا كافيا ليدخل في خانة أعداء الحسين مما جعله لحظتئذ لا يرغب في مشاركته جلسته تلك في مقهى المرجان، لكن إصرار كمال ورغبته في استقصاء أخبار القرية كانت أقوى من تذمر الحسين وامتعاضه الظاهر الذي لم يقوَ على إخفائه.

- الحسين هنا والله غبور، فينك يا راجل؟
- هنا خويا مع الدنيا.
- قالو لي كنت في تونس.
- ايه علاش كتسول؟

– مزيان درتي شي فلوس ولا والو؟

– بحالي بحالك خويا كمال انت مابقيتيش تخدم عند سيدك بوعزة.

أراد الحسين أن يستفزه عن قصد محاولا إنهاء الحوار معه.

– عارفك ماكتحملوش حتى هو الخرى حشاك مبغاش يموت.

– اهه كتهدر عليه هكا مخايفش تجيك اللعنة ديالو.

في مقهى المرجان سيكتشف الحسين في كمال رجل آخر غير الذي كان يظنه. سي كمال كما يناديه كل من يعرفه فقيه مغربي حافظ لستين حزب تخرج من إحدى المدارس القرآنية الجبلية حيث يقترن في أغلبيتها حفظ القرآن بتعلم فنون وأصول السحر الأسود، يتعلمون بعد حفظ القرآن بشكل كامل ما يُسمى في المغرب عند العوام من الناس «علم الدمياطي» وهو علم مختص في السحر الأسود، له برامج ومناهج وكتب عديدة، تَخَرّج سي كمال بتفوق لكن ظل الحظ السيء يُعاكسه فهو لم يستطع لحد ذاك الوقت الحصول على عقد «شرط» مع إحدى القبائل الكبيرة التي زارها طمعا في عقد مُغري.

عقد الشرط هو عقد يربط بين القبيلة والفقيه في جل قبائل المغرب يتعهد فيه الفقيه بالقيام بالشؤون الدينية والروحية للقبيلة من تدريس الأبناء وإقامة الصلوات والدفن والعقيقة والسحر ... مقابل حصوله على قطعة أرض في القبيلة غالبا ما تجاور المسجد وحصوله أيضا على نسبة من محاصيل سكان القرية كل عام.

لم يفلح سي كمال في الحصول على الشرط ليس لكونه ليس

أهلا وجديرا به بل لكونه لازال صغيرا ووسيما وأهل القرى لا يستطيعون تسليم أسرارهم وأسرار نسائهم لشاب غِر، غالبا ما يكون مطلوبا في الشيخ الوقار والرزانة وأن يكون كبيرا في السن حتى يبعث بذلك الاطمئنان في النفوس.

ظل سي كمال المتزوج في قرية «الكصيب» والأب لثلاث أبناء يساعد في أحيان كثيرة سي بوعزة البخيل الذي لا يعطيه ما يدفع عنه الحاجة والاحتياج، يساعده ليس حبا فيه، بل لكسب ود أهل القرية في أن يكون خليفة له عندما يموت، وسي بوعزة لا يريد أن يموت، يمتلك أرواح الجن التي يستحضرها حيث يعتقد كمال في أحيان كثيرة عندما يتسرب إليه اليأس بأن سي بوعزة سيعيش ألف سنة أخرى، كان يُمني النفس في أن يصبح عاجزا لكن سي بوعزة رغم تقدمه في السن لازال قادرا على القيام بكل واجباته على أحسن وجه، أمام هذا الوضع فقد دأب سي كمال على الطواف من مكان لأخر بحثا عن عمل يساعد كل من يطلب عونه من الفقهاء ويحضر مواسم الزوايا ومهرجاناتها طمعا في معونات يحصل عليه ليبعث بها إلى الأهل في «الكصيب».

سي كمال لا يستطيع أن يقوم بعمل آخر غير عمل الفقيه شأنه في ذلك شأن أغلب الفقهاء المتخرجين من المدارس الجبلية التي تخرج منها سي كمال. ينتظرون بصبر من لا يمل ولا يكل ودوما في الأخير يأتي الفرج إما من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أو من إدارة الأحباس أو الحصول على عقد شرط مغري في إحدى القرى إذ لم يعد هذا العقد متاحا للفقهاء في المدينة. المتعاقدون في المدن يحصلون على رواتبهم من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

دون أن يشعر شرع الحسين بدوره في سرد حكايته في تونس مع

كل من سي خميس وسي رابح لسي كمال. لم يكن يدُر بخلد الحسين وهو يسرد قصته بأن سي كمال سيوافق على السفر معه، فهو لعهد قريب كان يشك في قدرته كفقيه، بل هذا ربما ما زرعه رجال واتباع سي بوعزة في قرية «الكصيب»، حيث يُنظر لسي كمال كفقيه متمرد لا يمتلك وقار وعلم بقية الشيوخ الآخرين. والأكثر من ذلك فثمن تذكرة الشيخ المزمع استقدامه قد تصرف فيها الحسين وتحولت إلى بقرة، والتي لن يجرؤ أبدا ولن يفكر في بيعها مهما حصل.

استمع سي كمال لقصة الحسين بكل اهتمام، يستوقفه أحيانا كثيرة طالبا مزيدا من التوضيح في نقطة معينة، وخصوصا عندما حدثه عن مكان الكنز الذي جلب معه كيس بلاستيكي يحوي بعض من تربة المكان.

- مازال عندك التراب؟
- ايه مازال في الدار الاما شفوش شي واحد ولوحوا.
- لا خصك تكلمهم دابة قوليهم مايمسوهش.
- علاش أنا مافاهمش شنو هاد التخريبق ديال التراب.
- ماغتفهموش أما المنجي هذاك فاهمو مزيان.
- وعلاش كتسول أنت على التراب اش غدير بيه؟
- غنمشي معاك لتونس وغنطلعوا الكنز وغتولي لاباس أبا الحسين نشوف التراب ونقوليك.

لم يصدق الحسين نفسه هكذا ببساطة بعد اليأس يأتي من يقترح السفر معه إلى تونس كما يدَّعي امتلاك القدرة على استخراج الكنز المطمور والأكثر من ذلك فهو مستعد للسفر، على نفقته الخاصة ولن يُعرض الحسين للإحراج سيدعي أمام سي خميس بأن الحسين

هو من دفع ثمن تذكرة السفر والأكثر من ذلك وعده بحصة الأسد من الكنز المزمع إستخراجه من تونس مطمورة روما سابقا.

- واش تقدر تخرج الكنز سي كمال بصح؟
- تكون انت تيقتي الكدوب ديال سي بوعزة ما فيديش
- والله أنا...

قاطعه الجار كمال وهو يطمئنه

- هههههه أنت ماكتعرفنيش مزيان كنجمد الماء، دابة تشوف بعينيك لا أنا نشرب الماء سخون كيغلي ونحس بيه بارد من الفريجيدير.

طلب سي كمال من الحسين أن يعودا إلى القرية ويمكنه من التراب حيث سيعطيه نتيجة مايسمى «التربيع» وهي عملية يقوم بها الفقهاء باستعمال جزء من تراب المكان المشكوك في تواجد الكنز فيه، أو مباشرة فوق المكان باستعمال أعواد الزيتون أو حبات القمح مع التعويذات وبخور خاصة بطبيعة الحال. سيقوم سي كمال بعملية «التربيع» على هذا التراب ليُحدد إن كان المكان يحوي فعلا على كنز أم لا، غدا سيُخبره بالنتيجة التي على ضوء نتيجتها سيقرر إن كانت إيجابية فهو مستعد للسفر معه دون شروط مسبقة وسيعتبره شريكا له في كل شيء.

- إلا كان فيه كنز ترجع با الحسين لهنا ملك تولي سيد القبيلة ماشي كيما دابة مادها وما مهتم فيك حد.
- واش كتهدر بالصح سي كمال؟
- هيا نمشيو «للكصيب» غدا نرجع ليك مع الصباح إن شاء الله الخبار.

عادت أحلام الثروة لتُداعب الحسين، عاد الأمل من جديد فُتحت نافذة جديدة نافذة كبيرة من الأمل في العيش السعيد والهنيء، لم ينم ليلتها أصبح الحلم قريبا أكثر من أي وقت مضى، والأهم من ذلك أنه يستطيع العودة إلى تونس. وحتى إن تعذر استخراج الكنز فالبرنامج الجديد الذي وضعه الحسين يمكنه من العودة مرة ثانية إلى قرية «الكصيب» حاملا معه ثمن شراء بقرتين يُضيفهما إلى الأُولى والتي ستُخفف عليه ثقل الحوالات الشهرية هكذا اتفق مع أُسرته سينتظرون حوالة كل شهرين هذه المرة. هذا في أسوأ الظروف مالم تتحقق وعود سي كمال بالثروة والتي فقد هناك في تونس كل من سي خميس وسي رابح والمنجى الأمل في الحصول عليها.

أصبح سي رابح يتحاشى الجلوس مع سي خميس الذي يحرص دائما في حديثه إلى التلميح، بأنه لن يتسامح مُجددا في آجال الديون مع كل من اقترض منه مليما أحمر، كان التلميح واضحا ومعروف من هو المقصود به.

- طول بالك سي خميس توا تخلص.

هكذا يجيبه أحد زملائه نيابة عن سي رابح الذي يتظاهر أمام الاخرين بأن الأمر لا يعنيه.

كما أصبح سي خميس أكثر عصبية رغم أنه لم يدفع مليما واحد من جيبه، لكن بعد مرور أكثر من عشرين يوما دون أن يتصل الحسين غَدَا شبه متأكد أن الأخير لن يعود، لم يقف مكتوف اليدين ذهب إلى معمل الجندوبي سأل رفاق الحسين الذين أخبروه بأنه من النادر جدا أن يعود من يترك العمل هنا من المغاربة، وأن الجندوبي قد أعطى مهلة شهر فقط للحسين إن لم يعد خلالها سيتم استبداله بحارس آخر. في حين عادت الهواجس تعصف بسي رابح الذي

غيّر من خُططه وبدأ رحلة البحث عن مدرسة خاصة ليُدرس فيها بداية الموسم الدراسي الجديد، متهما سي خميس بالمبتز والبخيل.

رغم ذلك لم يتجرأ سي رابح أن يخبر مريومة بفشل مخطط الكنز كان الأمل في العثور على الكنز واستخراجه فقط من يجعل مزاجها رائقا، يجعلها تسرح بعيدا تخلق عالما خاصا بها أحلام جديدة أصبحت تتغاضى في أحيان كثيرة أمام فشله والذي يزداد سوءا يوما بعد يوم والمتكرر في اقتحام حصنها، تستبدل نظرات العتاب والتلميحات المستفزة بالتحليق بعيدا بأحلامها وهي تتكلم بصوت مسموع.

تتخيل نفسها في عرس ابنها ملكة بتاجها ومجوهراتها الجديدة التي ستحرص على اقتناءها من أغلى محلات المجوهرات في تونس لتُعوض عن تلك التي باعتها نتيجة الأزمات المتلاحقة التي عصفت بالأسرة في السنوات الاخيرة. لم تعد تستفز سي رابح وتُلمح إلى عجزه منذ أن علمت بموضوع الكنز بل أحيانا تنظر اليه مشفقة حزينة وقبل أن ينام تقبله على وجنتيه كطفل صغير.

- علاش ماتمشيش تشوف طبيب رابح.

- نحشم.

- عندك الحق أما يلزم تمشي ربوحتي مازلت حاجتي بيك راهو وهي تقبله بكل شغف السنين الماضية.

لا يجيب رابح ولا يتجاوب مع قبلاتها يكتفي جبينه بالإجابة وهو يتصبب عرقا، مناقشة موضوع كهذا كفيل بإزعاجه حتى عندما يتبجح أحدهم في المقهى بفحولته أمام الزملاء يكون رد سي رابح عنيفا وغير مُبَرر.

- يزيونا من المساطة والكلام الزايد.

- عجايب سي رابح تقول عليك عمرك ما قلت كلمة زايدة.

يعود سي رابح كل مساء مستاءً يحمل هم ديون سي خميس الذي لا يتوانى عن تذكيره بها كل يوم، تَعَوّد سي رابح مؤخرا بأن يكذب على زوجته تَعَوّد أن يُسوِّق لها وهما جميلا تعيش به تتشبث به ترى فيه الأمل لم يقوَ على صدمتها وهي أيضا على عكس عادتها وأمام طمعها لم تتفطن كما كانت تفعل دوما إلى أن كلماته هذه المرة لا تخرج من الأعماق وأن كل ما يقوله مُلفق يفتقد إلى الروح. ظلت مريومة تحلم بعرس ابنها والذي أخبرته بموضوع الكنز. تقبله الشاب المهندس بفرح معتبرا إياه الحل الوحيد لما تعيشه الأسرة من ضنك منذ سنوات.

- ماني قلتلكم يلزمها حفرة باهية ولا ورقة رابحة زايد الباقي كلو تضييع وقت.

هكذا يفكر اسكندر بل هكذا يفكر آلاف الشباب انحصر الأمل في المعجزات التي لا يمكن أن تبتسم وتظهر للكل، واحد فقط من بين الملايين من يمتلك ورقة رابحة يتقاسمها معه من يسرق فرحتنا كل يوم. واحد من بين الملايين من يبتسم له الحظ ويعثر على كنز مطمور بينما الكنوز الأخرى الظاهرة فوق الأرض وتحته تخرج كل يوم في وضح النهار في براميل البترول وأنابيب الغاز وأكياس الفوسفاط تتمتع بها الطغمة الفاسدة، تتمتع بها وتُسوق لنا حلما مستحيلا نظل نركض ونتسابق ونتعارك من أجل الوصول إليه، لكي لا نفكر في منافستهم في الكنز الحقيقي الذي نمتلك الحق فيه. بينما هم ينعمون وعشيرتهم بخيرات الكنوز الحقيقية نكون نحن خارج الدائرة نبحث عن السراب في أيامنا القائضة.

بلغ اليأس بسي رابح مداه طلب منه رئيس الوكالة البنكية التريث قليلا إلى رأس السنة الجديدة ليمكنه من قرض جديد، والذي لن يتجاوز العشرة الاف دينار لأنه على أبواب التقاعد، حيث سيتمتع بجراية تقاعد وليس مُرتب، كما عليه أن يستظهر ببطاقة تأمين على الحياة كي تضمن الوكالة حقها في حالة وفاته. الكل الآن يعتبره ميتا أو أقرب إلى الموت. أراد أن يعرض سيارته للبيع لكنه اصطدم بمعارضة مريومة الشديدة التي تعتبر وجود السيارة علامة من علامات الغنى لا تستطيع الاستغناء عليها، لن تتحمل نظرات وهمزات الاستهزاء من الجارات ألا يكفي أنها باعت كل مصوغها.

- ياخي مش قلت قريب تفرج وباش طلعو الأمانة؟

- ايه قلت أما يلزم شوية صبر ووقت مريومة.

- احنا صبرنا أعوام جات على ستة أشهر هاذُمْ.

في تلك الأمسية عندما فقد الجميع الأمل عندما تدهورت علاقة سي خميس المطالب بديونه وسي رابح المطالب بمزيد من التأخير، انحصر حوارهما على تبادل التحية فقط، تمام الساعة الخامسة والنصف في مقهى القدس حيث عرف الحسين أنهما سيكونان هناك، اتصل. لم يصدق سي رابح نفسه وهو يرى الترقيم الدولي للمغرب على هاتفه الخلوي «موترولا». قام بقرص سي خميس قبل أن يقوم من مكانه ليجيب بعيدا عن المجموعة انتبه سي خميس للأمر متأخرا عندما طلب منه سي رابح الالتحاق به رمى حجر «الديمنو» بشكل جَلف دون أن يعتذر من زملائه والتحق بصاحبه.

- الو سي رابح معايا.

- ايه الحسين ياخي وينك؟

- أمسك سي خميس الهاتف بل انتزعه من سي رابح بعنف ظاهر.

- وينك الحسين مش عملة هاذي تعملها تخلينا هكا.

- اهلا سي خميس اسمعني قريب يقص.

- باهي تفضل.

عادت الابتسامة وعاد الأمل وعاد التسامح وعادت الرغبة في العطاء عند سي خميس، وقتها فقط اطمأن قلبه لم يعد قادرا على الصبر طلب من سي رابح أن يشحن رصيد هاتفه ليتصل بأخيه المنجي ليبشره بالخبر السعيد وبآخر المستجدات.

لكن الشيء الذي لم يكن في حسبان سي خميس أن زملائه اكتشفوا وانتبهوا لما كان غائبا عنهم وأن هناك سرا بينه وبين سي رابح أكبر بكثير من موضوع القرض، تحول الشك إلى يقين لحظتها أمام الارتباك الظاهر في تصرفات كل من سي رابح وسي خميس، وتحول علاقتهما في رمشة عين من الجفاء الظاهر إلى الود المصحوب بالتحالف والتنسيق، لم يجب سي خميس على استفسارات الزملاء.

- اشنو سي خميس تمثيلية وعرك قدامنا ومشاريع بالدرقة.

تجاهل سؤال السائل لم يتمكن من إخفاء فرحته ولأول مرة في تاريخ مقهى القدس يتكفل سي خميس بدفع ثمن مشروبات كل الزملاء، الذين نسوا أمام هذا الإعلان المفاجئ استفساراتهم وهم يتصايحون من هول الصدمة، كما تجرأ أحدهم وسأل عن صحة سي خميس إن كان في حالة جيدة أو أن ما أعلنه نتيجة تأثير مخدر ما.

- مثبت سي خميس القهاوي نتاعنا على حسابك اليوم؟

- ايه يا سيدي مثبت وقولوا سي خميس خايب وقرناط هيا

تمتعوا لي مع ....

- يحي سي خميس الكريم يحي سي خميس الكريم.... هههههه.

كان الهتاف في باطنه استهزاء أكثر منه إطراء، لكن سي خميس اعتبره إطراء ما بعده إطراء. طلب المنجي من سي خميس القدوم ليلتها إلى الفحص برفقة سي رابح، الذي تحصن هذه المرة بالرفض وعدم توفره على ثمن المحروقات، تكفل المنجي بكل مصاريف التنقل كما وعد سي رابح بالكثير من الهدايا خضروات ودجاج وبيض، كان دخوله محملا بكل تلك الاشياء على مريومة مع علامة السرور والفرح البادية على محياه كافية لتعلن مريومة يوم الأحد القادم عيدا للعائلة.

كانت فرحة سي رابح أكبر بكثير من سي خميس خبر كهذا هو الوحيد الكفيل بإيقاف تهديدات الأخير، والأهم من ذلك مشروع الكنز لا يزال قائما. أكد الحسين ذلك بما لا يدع مجالا للشك، الكنز موجود بعد أن فحص الشيخ كمال تراب المكان أخبره بأن هناك ما يقارب عشر جِرار مملوءة بالذهب الثمين من العيار الجيد.

عشر جرار سيكون نصيبه منها ثلاثة لنفرض أن كل جُرة تحتوي على خمسة كيلوغرامات فقط من الذهب الخالص وهذا مستبعد فالرومانيون كانوا يُخزّنون ذهبهم في جرار كبيرة تتسع أحيانا لدخول رجل بالغ فيها. الغرام وحده الآن يساوي أكثر من ثلاثين دينار.

سي رابح تنتظره ثروة لكن لا يعني هذا أن صديقه خميس ليس رجلا شريرا، لم يجد له هذه المرة عذرا ومبررا لاستفزازاته هو رجل بخيل، جشع، شرير هذا أصبح واضحا وغير قابل للنقاش.

سيعود الحسين رفقة الشيخ في اليوم المتفق عليه سابقا 5 جويلية 1999، ندم سي خميس على شكوكه وتسرعه في الحكم على الحسين، الرجل الطيب في حين أكد المنجي ليلتها والذي نسي شكوكه واتهاماته السابقة للمغربي بالاحتيال، بأنه كان مطمئنا للحسين من النظرة الأولى لأن فراسته لا تخيب أبدا، مُضيفا بأن إحساسه ينبئه هذه المرة أن الكنز سيخرج أخيرا من تحت الأرض ليرى النور، عشر جرار من الذهب، نعم هذا ما قاله أغلب العرافين الذين مروا من هنا صحيح أنهم اختلفوا على العدد لكنهم وهذا الأهم كلهم أجمعوا بأن الموجود تحت الأرض ويحرسه جنود من الجان الأحمر هي جِرار من الذهب الخالص.

الفصل 11

رحيل ملك

«دعا سقراط الفيلسوف اليوناني الشهير جماعة لتناول الطعام في منزله فلما رأى أحد الضيوف بساطة الطعام وقلة أنواعه قال لسقراط: كان يجدر بك أن تزيد اهتمامك بضيوفك.

فقال سقراط: إن كان ضيوفي عقلاء ففي المائدة ما يكفيهم وإن لم يكونوا عقلاء ففي المائدة أكثر مما يستحقون»

اطمئن الحسين المغربي وأصبح إيمانه شبه راسخ بأن أيام سعده قد أقبلت. في الليلة الموالية لمقابلة الشيخ وعودته إلى القرية سمع صوتا يشبه الصراخ يهتف باسمه من بعيد، خرج لِيَجد سي كمال باكيا ينظر إليه بكل حزن ويعانقه.

- مالك اش وقع اصاحبي لاباس؟
- علاش ماتفرجتش في التلفزة؟
- احنا ماعندناش التلفزة، باش باش نخدموها فين هو الضوء؟
- الملك مات، الملك الحسن الثاني مات هو يبكي.

في البداية اعتقد الحسين أن أحد أبناء كمال أُصيب بسوء، لكن أن يهرع إليه هكذا باكيا مُولولا طالبا منه بأن يصحبه إلى قيادة ولاد جرار لتأدية واجب العزاء والسهر هناك، هذا ما لم يخطر على بال الحسين الذي لم يسبق له أن اشتغل بالسياسة لاعتقاده الراسخ بأنها تخدم مصالح أصحابها فقط، لم يفكر يوما في أن يتخذ موقفا مما يجري في البلاد لم يتساءل كالأخرين. إن كانت النخبة صالحة أو طالحة؟ كان أَمْيل إلى الاعتقاد بأن النخبة السياسية شبه مكروهة من لَدُنِ الشعب، لكن أن يرى بأُم عينيه كيف شيّع المغاربة فقيرهم قبل غنيّهم ملكهم وهم يبكونه بكاء من فقد عزيزا على قلبه، فمنهم من أُغمي عليه ومات من جراء ذلك، منهم من رمى بنفسه في نهر أبي رقراق، لم تعد الحياة تساوي شيئا في عينيه بعد وفاة الملك، هذا ما لم يكن يتوقعه الحسين والكثير من أمثاله.

هذا ما يستوجب دراسته فعلية وجادة. علاقة الأسرة المالكة والشعب المغربي الفريد من نوعه شعب متصوف ومتزهد بِطبعه أغلب سُكانه فقراء وتحت خط الفقر ولكن هذا لا يمنع تعلقهم الشديد بملكهم وحُبهم له، من يزور المغرب قد يتأثر في الخارج بخطاب المعارضة والذي هو فعلا موجود وله ما يُبرره على أرض الواقع، لكن عندما يطأ أرض المغرب ويسأل أي مواطن مغربي يجد أغلبهم مُتعلقون بملكهم هذا الحب ألا مشروط للأسرة الملكية نتمنى لو يُقابل بالتفاتة صادقة بعيدة عن أعين الكاميرات لهؤلاء الذين لا يجدون إلا أنفسهم وأرواحهم يُدافعون بها عن هذا الوطن.

في موقف كهذا تسترجع الذاكرة بسرعة المغاربة قبل خمسة عقود خلت وهم يتطلعون كل ليلة إلى القمر الذي أكد أكثر من واحد منهم أن صورة محمد الخامس تُطالعه من خلاله عندما كان

مَنفيا في جزيرة مدغشقر. ظل المغاربة يرون ملكهم على وجه القمر الذي لن تستطيع فرنسا بحال من الأحوال بأن تنفيه إلى خارج البلاد. لن نناقش الغاية من إطلاق مثل هذه الاشاعة الغريبة ومن أطلقها يكفي أن نعترف بأن الكثير من المغاربة البسطاء ظلوا لعقود طويلة وهم يعتقدون بصحتها، ستجد نفس الالتفاف حول الملك الحسن الثاني يدعو شعبه إلى مسيرة مليونية تطوعية فيُسارع هذا الشعب إلى تلبية النداء ويركب شاحنات تنعدم فيها أبسط مقومات الرفاهة والأمان لتقطع به مسافات تجاوزت ألفي كيلومتر وهو يُغني حاملا كتاب الله القرآن، علم البلاد، وصورة الملك ليجسد بذلك شعار المملكة.

الله. الوطن. الملك.

لم ينتظر المشاركين في المسيرة الخضراء مقابلا ولم يُعطى لهم إلى حد الساعة حتى القليل مما يُعطى الآن لنجوم مهرجان موازين من ثروة البلاد التي حرروها بدمائهم، من المحظوظ بالأخر؟ هل الشعب محظوظ بملكه أم الملك محظوظ بشعبه؟

علاقة ستظل تشكل استثناءً عالميا بين علاقة الحاكم والمحكوم لسنوات قادمة.

لم يكتف سي كمال بالقيام بواجب التعزية وهو يبكي مع مجموعة كبيرة من القرويين البسطاء، الفقراء، الذين احتشدوا أمام مقر القيادة في ولاد جرار القيادة والتي مكنتهم من توديع ملكهم بمشاهدة مراسم التشييع عبر تلفاز كبير. لم يكتف سي كمال بذلك بل حرص على أن يُسلم على قائد المنطقة مُعزيا إياه، كما قام أيضا رفقة مجموعة من الفقهاء بإحياء سهرة دينية تتخللها أدعية بالمغفرة والجنة للملك الراحل مصحوبة بتلاوة القران الكريم في مقر القيادة ترحما

على الملك الراحل. خاف الحسين بأن يكون كمال أمام هذا الحدث الجلل الذي هز كيانه أن يَغُض النظر عن السفر إلى تونس، السفر الذي لم يعد يفصلهم عنه إلا أيام قليلة حيث أُعلن الحداد في المغرب وأُلغيت جميع العروض والمهرجانات لذلك الصيف كان المطربون والنجوم الذين تم استدعائهم أكثر الخاسرين من هذا الحداد.

مات الملك فجأة كانت آخر صورة ونشاط له بجلبابه المغربي وهو يشارك «إخواننا» الفرنسيين رفقة الرئيس جاك شيراك فرحة فرنسا بعيد الجمهورية للبلد المُحتل، الذي لم يفكر يوما رئيس من رؤسائه مشاركتنا احتفالاتنا والاعتذار عن الإرهاب والتقتيل والنهب الذي مارسوه لعقود طويلة على شعوب وخيرات المنطقة، ستظل صورة الملك الراحل عالقة بالأذهان صورة كانت تُوحي بأن هذا الملك الذي لا يشك أحد في قوته وذكائه سيُعمر طويلا.

هذا الملك الذي نجى أكثر من مرة بأعجوبة تصل إلى حد المعجزة أكثر من محاولة اغتيال استُخدمت فيها الدبابات والطائرات...، يموت هكذا فجأة بالفعل شكل ذلك صدمة كبيرة للكثيرين. منهم من خاف على مستقبل البلاد بعد هذا الملك الكل يتطلع إلى الأمير المحبوب الذي يتمتع بحب الشعب ببساطته وبأعماله الخيرية الكثيرة. عطفه على ذوي الاحتياجات والمعاقين الخ... طُويت بموت الملك الراحل صفحة مغرب الرصاص، الكل يعقد آمال كبيرة على مغرب جديد تسود فيه العدالة الاجتماعية يختفي فيها التهميش والإقصاء المُتعمد للكثير من الجهات على خلفيات سياسية تاريخية. ويبقى السؤال الذي ستُجيب عليه الأيام والسنوات القادمة مطروحا هل هو عهد حقيقي لمصالحة حقيقية بين مكونات المجتمع؟

رابط سي كمال في قيادة ولاد جرار لثلاث أيام متتالية، ليُؤكد بها لا يدع مجالا للشك بأن الفقيه في المغرب كان ولا يزال وفيا للعرش المغربي عكس رجال تعليم المدارس الحديثة حيث أنتجت المعاهد والجامعات المغربية أبرز المعارضين الشرسين في المغرب. لو استمر نظام الفقيه التعليمي في المغرب اعتقد جازما بأننا لن نسمع للمعارضة صوتا في هذا البلد الجميل، الفقيه كان ولا يزال المدافع الشرس عن النظام دون مقابل دون أن ينتظر الشيء الكثير منه.

عاد سي كمال إلى قرية «الكصيب» أكثر نشاطا وحيوية علامة الفرح والسرور ظاهرة على محياه مما ينبئ أنه تحصل على أُعطية مُجزية.

في المرناقية اهتزت مشاعر سي خميس وسي رابح لسماعهما خبر وفاة الملك ظلا ينتظران بفارغ الصبر مكالمة الحسين للتأكد بأن لا تغيير سيحصل في موعد السفر والعودة إلى تونس. هذه المرة لم يطل انتظارهما اتصل الحسين ليؤكد موعد العودة في تاريخه طالبا من سي خميس تأمين مكان إقامة لائق بفضيلة الشيخ كمال، لأن مدة إقامته قد تتجاوز الأسبوعين إلى شهر، حسب التقدير الأولي للشيخ والقابل للتغيير حسب الظروف وحسب ما ستُسفر عنه معاينة مكان الكنز على الأرض.

سي خميس يعرف مُسبقا بأن ما أعطاه لسي رابح قد صُرف، لم يكن بد من الاستنجاد بالمنجي والذي لم يكن على شاكلة وطبع أخيه حتى ليستغرب المرء أو من يعاشرهما معا كيف يمكن أن يكون أخوين من أب وأم واحدة على هذا التناقض الكبير.

منجي رجل فلاح كريم مُحب للحياة هو في بحث دائم عن المتعة صاحب «محنة» كما يصف التونسيين المدمنين على الخمر أو النساء منجي كان مُدمنا على كِلاهما ما إن تمر فتاة أو امرأة مثيرة أمامه حتى

يتوقف عن الحديث إن كان يتحدث وعن الأكل إن كان يأكل ليلقي نظرة ليتمتع بمنظر جسد المرأة الجميل الذي يعتبره أهم وأبهى لوحة فنية يمكن للمرء أن يشاهدها.

المنجي زائر دائم للبار المشهور في مدينة مجاز الباب «بيشور» وهي ترجمة لكلمة الصياد باللغة العربية، لا يمُر أسبوع أو أسبوعين دون أن يسجل حضوره هناك، ليُجدد نشاطه بليلة خمرية تستمر حتى الفجر ينسى فيها همومه وهموم العمل، وهذ لا ينفي بتاتا بأن المنجي رجل متفاني ومحب لعمله حيث يبدأ يومه في العمل غالبا على الساعة الخامسة صباحا. أب لثلاث أولاد الأكبر فيهم في إيطاليا ويتابع أصغرهم الدراسة في جامعة المنار بتونس في حين فضل الآخر أن يتفرغ لمساعدة أبيه في تسيير شُؤون المزرعة، المنجي الذي يعقد آمال كبيرة على هذا الكنز لرغبته الشديدة فك الشراكة مع إخوته من جهة ولرغبته الأخرى الزواج من حبيبته الجديدة «أحلام» ذات العقدين من عمرها.

كان المنجي أكثر الثلاثة إصرارا على استخراج الكنز كما كان يعرف بُخل أخيه وشُحه، لم يَغِب عنه الغرض الحقيقي من إقحام سي رابح المسكين في المشروع الذي يخص العائلة وحدها لكنه غضّ الطرف أولا لطبيعة الكرم المتجذرة فيه وثانيا للرغبة الملحة في الحصول على الكنز المطمور منذ آلاف السنين، الكنز الذي عجز الجد والأب عن استخراجه الكنز الذي يعرف جل سكان الفحص المجاورين لضيعة المنجي قصته فهو في غنى تام عن خلق مشكلة جديدة مع أخيه خميس البخيل.

في المطار حيث حرص المنجي أن يُشارك كل من سي رابح وسي خميس استقبال الشيخ كمال بعد أن تم حجز غرفة له في فندق

«الخليفة» في شارع المنجي سليم وسط المدينة القديمة في تونس بالقرب من تعاونية موظفي الدولة التي يحرص دوما سي خميس على الاستفادة من كل خدماتها في التعويض على شراء الدواء والتطبيب... وهو بطبيعة الحال غير معني بتاتا بخدماتها الترفيهية الأخرى من برامج اصطياف صيفية للموظفين...

انفرد المنجي بسي رابح.

- اسمع سي رابح ما تخُوش على خويا خميس هاي مائة دينار مصاريف التنقل نتاعك بالله المرة الجاية من غير ماتكلمو كلمني أنا.

- يعطيك الصحة خويا المنجي والله ماك تعرف سي خميس.

- نعرف نعرف من غير ما تقولي إن شاء الله ربي ينوب علينا ونرتاحو اللكل.

- أمين ياربي من فمك لربي.

ارتاح سي رابح لاقتراح المنجي وتفطنه لمعاناته مع سي خميس فصديقه لم يعد يتعامل معه تعامل الصديق مع صديقه بل أوامر المدير لمستخدمه، انضم سي خميس للأشخاص الذين لا يستطيع سي رابح معارضتهم، أولياء وتلاميذ الدروس الخصوصية، ورئيس الوكالة البنكية، ومريومة في المنزل سي خميس الذي أصبح يعتبر سيارة سي رابح إحدى مستعمراته وممتلكاته.

- سي رابح غدوة الجماعة جايين اغسلها الكرهبة وستناني في القهوة مع ماضي ثلاثة.

بحيث لا يعدو أن يكون هو مجرد سائق عليه أن يقوم بغسل السيارة وتزويدها أيضا بالوقود، الحمد لله أن أخوه المنجي تفطن

للأمر قرر سي رابح بينه وبين نفسه بأن يتخلص من خجله وأن يطالب بحقوقه بكل جرأة في الأيام القادمة.

اعتقد الحسين المغربي أنه بمجرد وصوله إلى تونس سيلتحق مُجددا بعمله في معمل الجندوبي، لم يكن يعتقد للحظة بأن عمله هناك انتهى وصار من الماضي. في فندق «الخليفة» في تونس استنكر الشيخ كمال أشد الاستنكار عدم حجز غرفة بسريرين كما اعتبر السكن في فندق كهذا غير مُصنف سياحيا ولا يُقدم ثلاث وجبات في اليوم إهانة كبيرة لشخصه.

كان استغراب الحسين كبيرا من تصرف جارهم كمال فقد تعامل مع كل من سي خميس وسي رابح والمنجي باستعلاء ظاهر، تصرف كما لو أنه ابن الهيثم الذي أُوتي مجامع الحكمة كلها، الغريب في الأمر هو أن الجماعة تقبلت ذلك بصدر رحب معتذرين باعتبار الفندق لا يليق فعلا بمقام الشيخ الجليل واعدين إياه بتصحيح الوضع في أقرب فرصة ممكنة وأن يعتبر إقامته هنا مسألة وقت ليس إلا، هذا ما دفع المنجي بأن يقوم بحجز غرفة أخرى بسريرين في نفس الفندق ويمنح لسي كمال مبلغ خمسمائة دينار ثمن الوجبات الغذائية، لم يلتفت سي كمال للمبلغ معتبر إياه مبلغا تافها غير كاف لتغطية نفقات شخص مثله ليوم واحد. طلب من الحسين استلامه نيابة عنه بتأفف ظاهر.

– عطيها للحسين سي المنجي أما ماشي معقول هكا.

كأنه تقمص دورا آخر أصبح شخصية أخرى لم يعرفها ولا يعرفُها الحسين، هذا هو كمال الذي كان يبكي أمام قائد قيادة ولاد جرار كطفل صغير طامعا في أُعطية لن تتجاوز على أبعد تقدير مائة دينار، هنا يتصرف كملك أمام رعاياه بل مع جميع زواره سيتصرف

من هنا فصاعدا سي كمال على هذا النحو. استهزأ سي كمال من الحسين الذي أراد أن يلتحق بعمله كحارس في معمل الملابس المستعملة في المرناقية.

– واش أنت مسطي ولا اش قالك راسك أنا كنهدر على الملايين وانت مازال كتفكر في جوج فرنك ديال العسة في معمل.

كما طلب منه ألا يتدخل أبدا في عمله كل ما عليه أن يفعله هو أن يصمت ويُنفذ ما يُطلب منه بكل دقة، ألا يتكلم أبدا في حضرة من سيُقابلهم إلّا إذا طُلب منه ذلك ومن سي كمال نفسه حتى إذا ألحّ عليه أحدهم بالتدخل فعليه دائما التزام الصمت والتحصن به.

– اللي صورتو في عامين أبا الحسين غنعطيه ليك في أسبوع وأكثر ترجع للكصيب سبع السبوعة أما سمع كلامي مزيان ومتتكلمش وديما قدام الناس يا شيخ ياشيخ من بعد الخدمة احنا صحاب واخة صاحبي.

– لي تشوفوا شيخ كمال هههه. أجاب الحسين وعلامات الدهشة لازالت مسيطرة عليه.

في تونس اكتشف الحسين كمال من جديد. رجل مُختلف تمام الاختلاف عما يظهر عليه هناك في القرية، رجل مُحب للحياة للمتع وخبير في اكتشاف أماكنها، اكتشف الحسين أيضا مدينة تونس من جديد والتي لم يكن يعرف منها سابقا إلا محطة الجمهورية ومقهى البرلمان التي رفض كمال بشدة بأن يحتسي فيها فنجان قهوة.

– ابعد على كحل الراس المغربي ما تربح منو غير الصداع.

اكتشف مقاهِ تونس الراقية وشواطئها الجميلة، حرص سي كمال على أن يزور كل يوم تقريبا مالم يكن مرتبط بموعد مع سي خميس

أو أحد الزوار الذين بدأوا في التوافد بشكل محتشم نتيجة الإشهار المجاني الذي قام به موظف الاستقبال في الفندق وزملائه لسي كمال بتوصية من الأخير وهو يدس في يديه مبلغ عشرون دينار.

– أنا شيخ معربي معروف بزاف نقضي الحوايج نفك المربوط نجيب الزهر والسعد .... أي واحد يجيني من عندك نعطيك الحلاوة خذ شي بركة دابة خوذ وماتحشمش من عمك الشيخ.

سي كمال يتصرف كرجل غني فهو حريص على أن يستقل سيارة أجرة إلى كل الشواطئ والأماكن التي يزورها في تونس ذهابا وإيابا، شاطئ سيدي بوسعيد الجميل، شاطئ المرسى الذي تغني عليه فريد الأطرش، عشاء في مطاعم الصفصاف، مثلجات سالم الصغير، شاطئ ومطاعم حلق الواد، سيدي بوسعيد.... كان سي كمال يتصرف كأنه يعرف تونس منذ آلاف السنين ينفق دون خوف وهو مُتحرر بشكل كامل من التفكير في النقود والخوف من نفاذها.

– الفلوس الصحيحة جاية ما تخافش تبرع لي مع راسك دابة هادو غي البقشيش.

– واش بصح غطلع الكنز سي كمال؟ واش كاين هادشي بالصح؟

– كتشوف في جاي هنا نلعب تبرع لي مع راسك والكنز اعتبروا في جيبك خمم كيفاش غتصرف منو وصافي فهمتيني صاحبي.

وهو يُربت على كتف الحسين.

لم ينسَ الشيخ الجليل نصيبه من الإناث أيضا، حجز غرفة في الفندق على حسابه الخاص سماها غرفة العمليات، كان يستقبل فيها بين الفينة والأخرى بنات حواء، كان للحسين نصيب وافر من

كلّ مُتع الشيخ ومجونه ساعده في ذلك الأفواج التي بدأت تُحج إلى الفندق في البداية بشكل محتشم رجالا ونساء طمعا في بركة الشيخ وتعويذاته لتتخذ في ظرف وجيز نسقا تصاعديا سريعا. إذ لم تعد تقتصر معرفته على سي خميس وسي رابح والمنجي من الأسبوع الأول أصبح يستقبل زوارا في الفندق رجالا ونساء وكان الحسين هو القابض المالي لسي كمال.

– تلقى في الصالة المساعد ديالي خلصو كيما اتفقنا وما تنساش تطبق لي قلت ليك عليه.

كلام سي كمال مع الحرفاء كان مفهوما للجميع، يحرص على استعمال مصطلحات أقرب إلى اللغة العربية منها إلى اللهجة العامية، لم يتصور الحسين بأن يتغلغل صديقه في المجتمع التونسي وأن يلقى هذا القبول بهذا الشكل السريع والغريب، حرص الشيخ على تقديم نفسه كأحد علماء الأمة يظهر مُترفعا، لا يُخاطَب إلا بالشيخ كمال ويُقدم نفسه على هذا الأساس، يحرص دوما قبل أن يلتقي بزواره أن يكون في كامل أناقته جلباب مغربي أبيض عمامة بيضاء بخيوط صفراء ذهبية على الرأس بالإضافة إلى العطر الفاخر الذي تفوح رائحته منه. في الأسبوع الثاني بدأت المبالغ الكبيرة تعرف طريقها إلى سي كمال، يُكلف كل يومين تقريبا الحسين بمهمة إلى مقهى البرلمان يذهب وحده ليقوم بعمليتين تحويليتين الأولى للسي كمال تكون دائما ضعف الثانية المخصصة للحسين والتي كانت تتجاوز المرتب الذي كان يحرص في السابق أيام معمل الجندوبي على تحويله كل آخر شهر.

غَدَا الحسين في ظرف قياسي وهو مُندهش يُحوّل أكثر من مرتبه السابق إلى المغرب كل يومين، أية مفارقة هذه التي يعيش فيها؟

هل هو حُلم ما يعيشه الحسين المغربي في هذه الأيام؟ تأكد بالفعل بأن أيام سعده قد أقبلت. شهرة سي كمال في تصاعد مستمر كلّ من زاره شَهِد بقدرته وحكمته التي تفوق الخيال في حل المشاكل التي تُعرض عليه، والغريب في الأمر أنه استقبل على انفراد في تلك الفترة كل من سي رابح والمنجي دون أن يعلم أحدهما بزيارة الآخر طلبًا الإثنين من سي كمال والحسين أن يبقى موضوع هذه الزيارة سريا.

الفصل 12

«تربيع» الكنز المطمور

«كلما ازداد الانسان غباوة ازداد يقينه
بأنه أفضل من غيره في كل شيء»
علي الوردي

خرج المنجي من فندق الخليفة وسط تونس العاصمة والشرر يتطاير من عينيه طالبا من أخيه والسي رابح التوقف في أقرب مقهى لوضع النقاط على الحروف، لا يُعقل أن يتحمل هو وحده مصاريف استخراج الكنز بينما يتربص به الاخران ليقتسماه معه. كان المنجي يُمني النفس بأن يستضيف الشيخ كمال عنده في المزرعة حيث جهز له غرفة للإقامة هناك لكن أخاه خميس وقف كالسد المنيع أمام رغبته تلك.

المنجي يعرف الغاية من ذلك فأخوه يخاف أن ينفرد باستخراج الكنز لنفسه وهو لا يثق فيه بتاتا، هو لا يثق في اقتسام المحصول ناهيك عن استخراج واقتسام الكنز. أثناء حصاد المحصول يُرابط هناك لأسبوع كامل يَعُد الصغيرة قبل الكبيرة وفي كل عام يُريد

أن يقتسم معه نصيب أُمه.

– توا خويا المنجي ياخي أمي باش تاكل وتصرف هذا الكل في العام نعطيوها شوية ونقسموا الباقي أنا وياك أكهو من غير البنات.

– خميس هز بايك وخلينا خويان يزي يزي يزي.

لم ييأس سي خميس كل عام يُعاود نفس الموال دون كلل أو ملل وأحيان كثيرة يطلب من أُمه سُلفة لا يُعيدها ولا يفكر في إرجاعها ما عجز عن أخذه والحصول عليه من المنجي يحصل عليه من الأم المسكينة.

في مقهى الغزالة في مدينة باردو طلب المنجي من أخيه الذي يُصاب بالصمم كما تعلق الأمر بمطالبته بدفع النقود، طلب منه ومن سي رابح مبلغ مساهمتهما في مصاريف إقامة الشيخ كمال.

دفع المنجي ثلاث آلاف دينار كاملة بينما لم يدفع سي رابح إلا خمسمائة دينار وسي خميس لم يدفع مليم واحد. هنا استيقظت كل حواس سي رابح وأدرك الغاية من إشراكه في المشروع هنا عرف أن ما سلمه إياه سي خميس لم تكن نقوده بل هي تابعة لأخيه المنجي. ما إن أعلم المنجي أخاه بأنه سيقتطع مبلغ مساهمته من محاصيل المزرعة إن لم يتسلم ما عليه حتى انتفض الاخر كالملدوغ.

– لا تقص عليّ ولا نقص عليك كل حاجة في بلاصتها وما دخلش هذا في هذا نتفاهم اليوم العشية أنا وسي رابح بعد غدوة نجيو مع سي كمال للفحص تجيك فلوسك.

كان الاتفاق المبدئي مع الشيخ كمال أن يرتاح الأخير من وعثاء السفر اليوم الموالي لوصوله لتتم معاينة المكان في اليوم الذي يَليه حيث سيصحبه سي رابح وسي خميس إلى هناك صباحا.

عندما وصلوا إلى الفحص وجدوا المنجي قد ذبح خروفا بالمناسبة السعيدة كاد منظر الخروف المذبوح بأن يُسبب لسي خميس جلطة دماغية لولا إسراع الأخر وإعلامه بأن الخروف على حسابه الخاص ولا دخل له في المصاريف المتفق عليها، أصبح هذا كافيا ليُعيد البسمة ويُزيل اصفرار وجه سي خميس الذي لم يكتف بذلك بل تمنى لو أن المنجي ذبح خروفا أكبر حتى يتمكن من حمل بعض اللحم للأولاد.

– مش كان ذبحت واحد كبير شوية راني هزيت شوية لحم معاي للولاد.

– خميس ماتخافش خويا أمك خلات اللحم لولادك باش تهز معاك باهي هكا فكيتش علينا.

لم يدع الشيخ كمال أحدا أن يُقرر مكانه ما يجب عليه فعله. طلب منه المنجي أن يُعاينوا المكان المنشود في الظهيرة تجنبا لأعين الجيران، رد عليه الشيخ كمال باستهزاء ظاهر.

– نقدر نخدم وقت ما بغيت وما يشوفني حد إلا بغيت.

لم يُخف الجميع اندهاشهم من الثقة الزائدة لهذا الشيخ المغربي الذي يتكلم من فوق برجه العالي والملتصق بمحفظته الجلدية السوداء لا يفارقها أبدا حتى عندما يكون مضطرا لقضاء حاجته يتركها بصحبة مساعده الحسين الذي لم يعد يُسمع له صوت.

لم يتخذ اسكندر قراره بعد. أبدى ترددا كبيرا عندما أعلمه سي رابح بطلب سي خميس صك بنكي آخر بقيمة ألفي دينار، حيث قرر بإيعاز من مريومة بأن يرافقهم إلى الفحص رغم معارضة سي خميس التي لم تنفع في الأخير، فالقرار هذه المرة صادر عن مريومة ولا يملك سي رابح أمامه إلا الإذعان والتنفيذ.

– بابا مهطلو شوية نشوفو المغربي ماه وين يصب ومن بعد يعمل الله دليل.

تفطن الشيخ كمال لنظرة الشك والاستفسار في عيني اسكندر على عكس الجميع لكنه تظاهر بعكس ذلك تماما وعَمِدَ إلى تجاهل الأخير كلما اقترب منه ليسأله واستفساره مما ولد حالة غضب شديدة عند إسكندر، فكر أكثر من مرة في مغادرة المكان فهو غير مرغوب فيه هنا من الجميع لولا إصرار والده ومطالبته بالتريث لغادر اسكندر.

سي رابح الذي تذرع لسي خميس بانتهاء أوراق دفتر الشيكات حيث سيحصل على آخر نهاية الأسبوع المقبل، خبر كهذا كان كفيل بدوره بأن يدفع سي خميس للاعتذار لأخيه أيضا مخترعا عذرا أخر، لا يمكن أن يُعطي سي خميس مبلغا يشك في رجوعه لا يمكن أن يخترق فصلا مهما من القانون الذي سطره لحياته والغير قابل للاختراق.

– المنجي الجمعة الجاية يصبو الشهرية نجيبيلك نتاعك ماتعمل شي في بالك.

– مايسالش خويا خميس أما كان ماجبتهومش الجمعة الجاية الخبار في بالك.

بعد صلاة العصر طلب الشيخ كمال من الجميع التوضؤ حتى غير المصلين وهو يقصد بذلك كل من المنجي واسكندر والتوجه إلى المكان الذي يشك الجميع في وجود الكنز فيه.

– سي منجي إلا عندك حفنة ديال القمح ديال المزرعة إلا جات على خاطرك.

لم يعرف المنجي والآخرين ما الغاية من حفنة كبيرة من قمح المزرعة التي طلب الشيخ كمال بأن يتم إحضارها ووضعها في قطعة قماش حمراء نظيفة استخرجها من حقيبته الجلدية طالبا من الجميع بأن يُرونه أيديهم ليتمعن خطوطها الواحد تلو الآخر بعد ذلك قال بصوت مسموع عندما كان يتمعن كف اسكندر.

– أحسن ماعملت سي رابح كيجبت ولدك معاك طلع عندو خط الكنز.

كان ذلك كافيا ليُعيد اسكندر حساباته ورأيه في هذا الشيخ الذي أعطاه كيس القمح الأحمر طالبا منه الاحتفاظ به إلى حين، جعله الشيخ كمال يُحس بأنه قديس لامتلاكه خط الكنز في يديه فهو شخص مُميز إذن عن بقية البشر يمتلك ما لا يمتلكون بالفطرة.

في الربوة العالية افترش الشيخ كمال جلد الخروف طالبا من الجماعة اشعال كانون الفحم وجلب براد ماء، بعد ذلك عندما بدأ الماء في الغليان طلب من الجميع الابتعاد مسافة خمس أمتار بما فيهم الحسين، ظل لساعة كاملة لا تُسمع إلا تمتماته الكل ينظر إليه باندهاش كبير وهو يشرب من الماء الساخن ويرش به الأرض دون أي إحساس بسخونته ويطوف بالبخور دون أن يتوقف عن التمتمة التي لا يُفهم منها شيء، كأنه يتكلم لغة أُخرى لا تمت لكوكب الأرض بصلة، بعد ذلك طلب من الجميع الاقتراب حيث رشهم بالماء الساخن من فمه على وجوههم، الغريب رغم الخوف في الأول أن يكون الماء ساخنا لكنه عندما لامس وجوههم، كان أبرد من ماء الثلاجة، تقزز كل من سي رابح واسكندر وأرادا أن يمسحا وجهيهما، لكن الشيخ كمال كان لهما بالمرصاد، بحركة عنيفة من يديه نهرهما كأنه ينهر تلميذا يريد أن يأتي عملا شنيعا، كانت أول كلمة

قالها الشيخ كمال مفهومة هو طلبه لإسكندر بان ينثر حبات القمح في أماكن متباعدة بيده اليسرى.

بعد ذلك عاد الشيخ كمال يُتمتم بصوت مسموع هذه المرة أكثر من قبل لا يُفهم منه إلا كلمات قليلة.

- بأمر من.. أطلب منك أيها الجني الأحمر أن.. بأمر من.. أطلب منك باسم الاسم.. أن.. بأمر مني أنا كمال أطلب منك أن..

بعد أقل من عشر دقائق والكل مشدوه وغير مصدق ما يرى أفواه مفتوحة، عيون جاحظة. بدأت حبات القمح تتجمع كسرب نحل مشكلة عاصفة صغيرة ظاهرة للعيان، هنا طلب الشيخ كمال من الجميع أن يتتبعوا حبات القمح التي لم تَطِر بعيدا مسافة ثلاث أمتار على أبعد تقدير لتحط كلها في مكان قريب أعلنه الشيخ كمال بوابة الكنز التي فُتحت له ورأى بوضوح ما بداخلها.

الكل أبدى اندهاشا كبيرا مما رأى، تأكد الجميع وقتها بما فيهم اسكندر بأنهم أمام شيخ حقيقي، أمام رجل يستحق كل التقدير والاحترام كما ندم اسكندر على تسرعه وعدم تريثه. كل نظريات الفيزياء التي درسها سي رابح وقفت عاجزة في مخيلته وعقله عن تفسير ما يجري أمام عينيه إلى أي قانون فيزيائي يمكن أن يُفسر طيران حبات القمح وتجمعها بهذا الشكل في الهواء ونزولها مجتمعة في مكان معين، الحسين نفسه استغرب ما شاهده لم يكن يعتقد بأن الرجل الذي يُشاركه غرفته يمتلك كل هذه القدرات العجيبة. بعد هذا العرض أصبح الكل كالتلاميذ في حضرة العراف الكبير كلامه لا يُناقش ولو حمل في طياته ما يتناقض مع أكبر قوانين الطبيعة، هنا العراف من يتحكم في كل شيء في العقول قبل الجُيوب.

يومها وجد المنجي في الشيخ كمال الضالة المنشودة وقرر أن

يستشيره في كل الأمور العالقة والتي لم يهتدِ إلى حلّها، سي رابح قال في سره وهو يحاور نفسه إن هذا الرجل فعلا يملك قدرات خارقة هذا الذي جعل من حبات القمح تطير كالنحل دون أجنحة فهو قادر على إيجاد حلا لعجزه الجنسي، لا بل هو غَدا متأكدا من ذلك، سي خميس ازداد اطمئنانه وبات يعتقد أن استخراج الكنز لم يعد إلا مسألة وقت فقط ووقت قصير أيضا.

بعد العودة إلى منزل المنجي كانت الفرحة بادية على الوجوه وعلامات الإعجاب والتقدير للشيخ الكريم وكؤوس الشاي الأخضر تدور حيث طلب الشيخ كمال من الحسين إعداد براد شاي مغربي بالنعناع على الطريقة المغربية.

كانت الأعناق كلها مُتطلعة في خشوع لما سيقوله الشيخ الكريم الذي أكد بأنه رأى رأي العين بما لا يدع مجالا لأي شك الكنز المطمور، والذي يتكون من عشر جِرار مملوءة بالذهب يحرسها جان من الجن الأحمر الاشداء، ولحسن الحظ كان هذا هو اختصاصه في المدرسة التي تخرج منها، لأن هذا الاختصاص الصعب الذي يتهرب منه جل طلبة علم «الدمياطي» السحر الأسود التحكم في الجن واستحضارهم وإرغامهم في الكثير من الأحيان بخدمته، لما فيه خطورة على حياة من لا يتقنه إذ يمكن أن يكون عُرضة للتلبس من قبل الجن الأحمر في أي وقت، حيث يكون مصيره في الأخير إما الجنون أو الموت.

الخبر الغير السار الذي لم يكن ينتظره الجميع هو أن الشيخ كمال لا يستطيع إخراج الجرار العشرة دفعة واحدة فهو قد توصل إلى اتفاق مبدئي مع ملك الجن الحارس للكنز على أن يُسلمه فقط ثلاث جِرار في المرة الأولى، وباعتباره لا يثق أبدا في كلام الجن

الذين يُعطون وعودا تحت التهديد فيما هم يستعدون للمواجهة في المرة المقبلة فإنه غير متأكد من أنه سيتمكن من استخراج الثلاث جرار من المحاولة الأولى التي لن تصل تكلفتها ولن تتجاوز مبلغ الخمسة ألاف دينار وفي حالة فشل المحاولة الأولى والتي يتمنى بطبيعة الحال ألا تفشل وسيحرص على ذلك، بأن يستحضر يوم العملية الكثير من الأرواح الغائبة لتساعده على ذلك وأنهم سيرون ذلك بأم أعينهم.

في حالة لم يُمكنه ملك الجان من ثلاث جِرار بناء على الاتفاق المبرم فإنه سيكون مضطرا بعد ذلك إلى سحقهم عن بكرة أبيهم ويستخرج الكنز بكامله وبجِراره العشرة بالرغم عنهم، سيكون مضطرا إلى استخدام مائة غرام من بخور «لبان الذكر» الحقيقي القاهر للجن حيث يفرون من رائحته كالذباب، بالإضافة إلى خمسة قَوارير من ماء البحر الميت المقدس الذي تمت تعبئته وفق طقوس لا يعرفها إلا الشيوخ الكبار ومن أصول يهودية ويكون مختوما بنجمة داوود السُداسية.

إذا توفرت له هذه الأدوات الغالية الثمن سيتمكن بنسبة مائة في المائة من استخراج الكنز الموجود، لم يُخف الشيخ كمال على الحضور أن تهديده هذا وحواره معهم هناك من يستمع إليه الآن من الجن الأحمر والذين يشاركونهم جلستهم تلك لينقلوا ما سمعوا لملكهم، حيث يستطيع هو رؤيتهم بوضوح تام وهو يأمل أنه عندما يصل هذا التهديد لملك الجن أن يُفكر جيدا ويُمكنهم من الكنز من المحاولة الأولى لكي لا يُضطروا إلى صرف مزيد من الأموال ويُضطر هو إلى خوض حرب ستكلفه مجهودا وتركيزا كبيرا، كان سي خميس أول من علق على كلام الشيخ كمال.

- وقتاش شيخ نبداو المحاولة الأولى؟

- الوقت لي تعطوني الفلوس نشري البخور ونخدموا ونعلمكم بعد ثلاث أيام إن شاء الله.

- مانقدروش احنا نشريو البخور شيخ كمال. أضاف سي خميس مستفسرا

ظهرت علامة الغضب على محيا الشيخ كمال ولم يحرص على اخفائها بل بالعكس تفنن في إظهارها.

- إلا كنت تفهم في البخور سي خميس سير شريه بوحدك ومنتحملش أنا المسؤولية وأنا مجيتش هنا باش نلعب.

تدخل المنجي طالبا من أخيه السكوت معتذرا للشيخ الجليل بأن أخاه لا يقصد الإساءة وأن كل طلباته أوامر. كل هذا لم يكن كافيا ليجعل الشيخ يهدأ، أردف باستهزاء ظاهر.

- أنا مفاهمش واحد باش يطلع المليارات وكيخمم في جوج فرانك.

أمام نظرات الجميع المعاتبة لسي خميس لم يجد الأخير بُد من الاعتذار، قام من مكانه وقَبّل رأس الشيخ الجليل طالبا منه أن يُسامحه وبأنه لم يكن يقصد أبدا الإهانة، اتفق الجميع على أن يتم تسليم المبلغ للشيخ كمال في غضون يومين على أبعد تقدير.

في الطريق عادت الهواجس لتعصف باسكندر وهو يقود سيارته «الفيات» لم يكن ذلك ليخفى على كمال الذي كان متأكدا بأن الهواجس تعصف بالجميع وأن الخجل وحده والطمع هو من يقف حاجزا أمام تعبيرهم عم يجول في عقولهم.

يتمتع الشيخ كمال بقدرة خارقة على قراءة ملامح الوجوه.

في ذلك اليوم قرأ علامة الاطمئنان البادية على الجميع عندما انتهت عملية التربيع التي حدد فيها مكان وجود الكنز، كما قرأ في وجوههم علامة الشك والخوف الذي وصل إلى حد الرعب خصوصا في عيني خميس عندما طلب منهم مبلغ تافه خمسة آلاف دينار.

هذا ما دفعه إلى تلبية دعوة سي رابح للعشاء عندما تم إيصال سي خميس إلى منـزله في المرناقية والذي اعتذر عن عدم استطاعته مرافقة الشيخ إلى تونس لارتباطه بالتزامات أخرى طالبا من اسكندر وسي رابح القيام بالواجب، في مفترق طرق «بن يدر» في الطريق المؤدية إلى تونس العاصمة عادت سيارة اسكندر من الطريق الأخرى إلى منـزل سي رابح حيث كان ينتظره هناك عشاء أعدته مريومة مُسبقا.

- اسمع مريومة مانيش عارف ينجم يجي ولا لا خميس وذنيه وعينيه واقفة ويشك في كل شيء.

- بالله رابح اعمل لي عليك والباقي على ربي نحبو يجي ينحي علينا التابعة والنحس.

- والله باش نحاول.

لم تُصدق مريومة نفسها لَمَا رأت الشيخ الجليل في بيتها، عندما أخبـرها ابنها اسكندر بمنظر حبات القمح وهي تتطاير كالنحل قررت أن تتخلص من خجلها وترددها وأن تطلب منه ما تريده بكل صراحة.

شجعها على ذلك قَولُ الشيخ الذي عبـر على طاولة العشاء الممتلئة بكل ما لذ وطاب وسي رابح يطلب منه ومن الحسين أن يعتبـرا البيت بيتهما وان يأكلا دون حرج، قال الشيخ بأنه ارتاح لسي

رابح من أول نظرة أكثـر من الاخرين وهذا ما دفعه لتلبية دعوته على العشاء.

بعد ذلك والشيخ يقرأ كف مريومة حيث أثبت وأكد الشيخ بعلمه كل ظنونها وشكوكها السابقة، أن منزلهم وأولادها قد أصابتهم أكثـر من عين حاسدة، جعلت البـركة تهجر منزلهم. وعدها الشيخ بحل جذري لمشكلتها. لم تكن هذه هي المفاجأة فكف اسكندر الذي حرصت مريومة بان يقرأه ويقرأ معه فنجان قهوته كان يحمل مفاجأة سارة لمريومة قال الشيخ لابنها ما عجزت هي وزوجها عن قوله.

- كنشوف بنت ماشي ديالك سي اسكندر.

- وكنشوف ورقة كتعمرها ديما عمرك ما ربحتي فيها.

اعتـرف اسكندر لأول مرة أمام الشيخ وأمام أمه بأنه غيـر سعيد في حياته وبأنه يتألم، وأن ما قاله الشيخ صحيح لا يـرقى إليه الشك أبدا وبأنه يلعب «البـرومسبور» وهو يأمل كل مرة في أن يـربح مبلغا ماليا يُخرجه من حالة العجز التـي يعيشها.

اسكندر الذي تأسف لأول مرة أمام والديه لأنه لم يستطع أن يُقدم لهما شيئا يُعوضهما عن تعبهما من أجله وبأنه فعلا يتألم لذلك أشد الألم. فكر مرارا وتكرارا بأن يُعيد ترتيب حياته من جديد على أُسس جديدة وصحيحة، لكنه في الأخيـر يقف عاجزا لم يقوَ على الإقلاع عن التدخين، لم يقوَ على الاقلاق عن لعب «البـرمسبور» عن الإقلاع عن شرب الخمر، الإقلاع عن حب أميـرة التـي يعرف مُسبقا بانها لا تُناسبه، اسكندر الذي اعتبـر نفسه بأنه يمشي بقوة الدفع شأنه في ذلك شأن غالبية شباب هذا العصر وبأنه غيـر قادر على الإمساك بعجلة قيادة ذاته.

– لماذا أقف هكذا يا شيخ مُكبلا فاقدا للإرادة لماذا؟

لم يُعقب الشيخ على كلام اسكندر كما لم يعده بحلول. ربما رأى فيه نفسه رأى فيه ابنه رأى فيه الحسين الذي هاجر بلده في رحلة بحث عن الذات. نور الوحيدة في منـزل سي رابح ربما التـي تمتلك إرادتها وتمتلك مقود ذاتها رفضت رفضا قاطعا أن تمُد يدها للعراف، شاركتهم طاولة العشاء من باب الاحترام فقط لتختلي بعد ذلك في غرفتها مستنكرة أشد الاستنكار ما تقوم به عائلتها.

في حين استسلمت الأخت الأخرى لتسرد للعراف عن حياتها كما فعل اسكندر ما لا تسرده لأعز الأشخاص عندها، لم تكن مريومة وسي رابح يعرفان بأن ابنتهما تتألم بصمت هكذا، لم يخبـرهما بذلك أبدا يغيب الحوار الجدي والمهم في أُسرنا بل ينعدم، ولم يكن يعرفان بأن ابنتهما المتزوجة التـي فضلت الاختلاء بالعراف صحبة أمها فقط دون حضور أخيها وأبيها تُعاني هي الأخرى بصمت، ما يشكو منه سي رابح في الستين من عمره يعاني منه زوج ابنته وهو في مقتبل العمر عندما أخبـرت مريومة رابح بذلك لم يصدق ما سمع.

لماذا نتلذذ معاناتنا؟ لماذا نقف عاجزين عن إيجاد حلول لها؟ لماذا نلُفها ونسجنها في زنـزانة من الصمت والكتمان؟ في حين أنها لا تعدو أن تكون مشاكل بسيطة حلولها متوفرة.

الفصل 13

السحر الأسود

إن الفاشلين يقولون:
«أن النجاح هو مجرد عملية حظ»

عندما استقبل الشيخ كمال سي رابح في غرفته في فندق الخليفة طلب منه ألا يخبـره بمشكلته وسبب مجيئه بتاتا لأنه سيعرف ذلك وحده عليه فقط أن يجيب بصدق تام على بعض الأسئلة الصغيرة.

– اسم الوالدة سي رابح؟
– محبوبة بنت حمادي.
– وقتاش مولود
– 25جوان1941
– عطيني يديك اليمنى سي رابح إلا جات على خاطرك.

بعد أكثـر من نصف ساعة والعرق يتصبب من جبين سي رابح طلب منه الشيخ ألا يقلق أبدا وبأن مشكلته أبسط بكثيـر مما يعتقد، ولحسن حظه فقد جلب معه بعض معجون القوة من المغرب.

ثلاث أيام فقط يتبع فيه تعليماته بدقة شديدة ويقوم بتبخير المنزل بالبخور التي سيُعطيه له، كما يجب أن يستحم هو وزوجته في إناء واحد بعد أن يتم تنظيف مكان الاستحمام جيدا وتبخيره. أعطاه الشيخ قارورة ماء صغيرة وعلبة بلاستيكية يوجد فيها معجون ممزوج بالحبة السوداء وعسل ملكة النحل والزنجبيل وبعض الأعشاب طالبا منه أن يتناول ملعقة كبيرة من المعجون كل صباح على الريق وأن يشرب شربة واحدة من ماء القارورة بعد نصف ساعة من تناوله للمعجون، هذا الماء في هذه القارورة والذي يجب أن يُقسم إلى نصفين نصف له والنصف الأخر لزوجته حيث يجب أن تغسل بجرعة واحدة منه قبل أن تنام فرجها ولا يجب عليه أن يقربها أو يُضاجعها في هذه المدة لأنه ستتولد في نفسه قوة سيستشعرها منذ اليوم الأول لتناوله جرعة الماء وملعقة المعجون، عليه ألا يثق فيها فهي خادعة كلما التزم بالتعليمات كانت النتيجة مضمونة بحول الله تعالى.

- اليوم الرابع ضاجع فيه زوجتك سي رابح وتفكرني.

قالها الشيخ مبتسما ومشجعا سي رابح.

كان الخجل باديا على سي رابح بينما وقف الشيخ وهو ينظر إليه مستفسرا إياه إن كانت هذه هي المشكلة التي قدم من أجلها.

- أجاب سي رابح والعرق يتصبب منه بأن الشيخ الجليل على صواب شاكرا إياه إعفائه من ذكر التفاصيل المحرجة.

طلب منه سي كمال اتباع تعليماته بدقة تامة إن هو رغب في استعادة قوته مذكرا إياه أن هذا العمل هو عمل مؤقت ولأنهم شركاء فانه لن يتقاضى من شريكه أجرا.

- باغيك تتصل بي من بعد ثلاث أيام واخة .

غادر سي رابح الفندق وهو لا يدري أيُصدق أو يُكذب؟ لكن مريومة كانت أميل إلى تصديق كل ما يقوله الشيخ كمال.

- انت عندك شك الرجل يديه تجمد الماء يا رابح.

- معناتها لي قريناه احنا مشى في الماء على الدزة هذه.

- علاش تو عرفت انت اخزر للغنيا في البلاد تو تعرف كلهم ماهومش قارين.

- والله عندك حق مريومة القاري هو لحالتو رثة ومزمر توا في البلاد هذي.

في اليوم الرابع تزينت مريومة كعروس تُزف لأول مرة لسي رابح بعد العودة من حمام «السيدة» حيث طلبت من «الطيابة» أن تخلصها من شعر العانة والابطين والأرجل بالحلاوة السكرية الممزوجة بالليمون التي أعددتها مريومة بنفسها سلفا. بعد الحمام عرجت مباشرة على صالة حنان الحجامة طالبة منها أن تقوم بكل ما يلزم لتظهر في أحسن صورة.

- آه مريومة أنت زين وعين من غير قدان تبارك الله عليك الحومة كلها تحكي على زينك، عندك عرس الليلة مريومة؟

- الليلة عرسي وباش نتصدر على الكرسي .... كرسي ربوحتي هههه..

- صحة صحة حتى هو أعز كرسي وأبن كرسي تنجم تتصدر عليه مْرَا الله لا تحرم منه طفلة هههه كرسي نتاع الصالة ليلة وتتعدي أما هذاك هو الكرسي البنين كرسي العمر كل هههه..

في الليل حيث أوت مريومة إلى فراشها مُبكرا على غير عاداتها وهي تتعلل أمام نور بأوجاع الروماتيزم منتظرة وصول سي رابح.

لم تُصدق صلابة عضو زوجها تلك الليلة سمعت نور تأوهاتها، قامت بدق الباب مستفسرة، أجابتها مريومة وهي تصارع من أجل أن يخرج صوتها خاليا من تأوه اللذة.

– شدتني وجيعة الروماتيزم بابابك يدلك في.

– اه يا باهي تفجعت.

لم يسمع رابح صوت تأوه زوجته بهذا الشكل لعشر سنوات خلت. طالبته بالمزيد مما زاد من حماسه، إحساسه بفحولته جعله ينتشي بل يتمتع أكثر وهو يرى سيفه البتار يقتحم حصن مريومة بنفس قوة الشباب.

– آمـــــاااانك ربوحتي ماتخليهش يتفش.

– خوذي الز... شيخي بيه خوذي العص...

– ايه اعطيني الز... اعطيني العص... اضرب توحشتو حتى أنا.

في الصباح حيث استيقظ سي رابح متأخرا كثيرا على غير عادته، كان كمن لعب مقابلة في الركبي، كل مفاصل جسمه تستغيث أحس بفشل لذيذ يُداعب كامل جسمه استسلم للكسل اللذيذ الذي يعقب كل ليلة جميلة كالتي مرت بالأمس، وهو يستعرض في فرح كل مراحل العملية الجنسية التي تجرد فيها ومريومة من كل ملابسهما كان الضوء مُنيرا في الغرفة على عكس الأيام الخوالي التي ضاعت هباء حيث الظلام الدامس الذي كان يُعشش في غرفة نومهما عند كل عملية جنسية.

البارحة تمتع كما لم يتمتع ليلة دخلته بمريومة التي بدورها نتيجة العطش تخلصت من كل خجلها السابق رمت به دفعة واحدة وهي

تتأوه دون خوف أو خجل، لم تسعَ كما في السابق إلى كتم أنفاسها مخافة أن يسمعها أحد بل طالبت هذه المرة بالمزيد ارتوت، غمرته قُبلا، مَصّا، مديحا... لم يرتديا ملابسهما ناما عاريين متعانقين ليلتها أطنب أذنيها بكلمات الغزل والفحش.

– أنت قح ...جتي مريومة.

– آه ربوحتي وريهولي نشوفو نعاود نمصّو السخطة قداش توحشتو.

– مريومة خليني نمص ليك نتاعك.

– زعمة

– حلي ساقك تَوَ تشوفي.

وقف يتأمل منبع الحياة يتأمل البوابة الزمنية التي تقذف كل يوم بآلاف الناس وهي تصرخ إلى هذه الحياة، لدقيقة كاملة وهو يتمعن قبل أن يبدأ، كان رطبا شهيا، كانت هذه رغبته الدفينة منذ ثلاثين سنة خلت، اليوم فقط امتلك الجرأة لتحقيقها، مريومة تستغيث وهو يداعب بشفتيه ولسانه بظرها تحثه على الاستمرار.

–اووووخ ما حلاه زيد ربوح زيد أمانك...

فقد رابح السيطرة على نفسه وهو يسبح بشفتيه في بحر الحياة، نسي نفسه أراد أن يفترسها عضها دون شعور منه، استيقظ ومريومة تطلب منه أن يكف وهي تتأوه من اللذّة والألم.

ليلتها جعلها تضحك بين الفينة والأخرى ضحك البغايا الذي يصل إلى حد القهقهة الممتزج بالرغبة والشبق، سَكرت مريومة دون أن تشرب خمرا، نعم سكرت طالبته بالمزيد اعتلته في المرة الثانية وهي تُسمعه من الكلمات ما لم يكن يعتقد رابح أبدا أن مثلها يوجد في

قاموس مريومة ومُعجمها، كلمات كتلك أعادت إليه روح الدعابة والنكتة التي كان يتميز بها رابح، عادت أقوى مما كانت عليه في السابق.

استيقظت مريومة وعلامة الفرح بادية على مُحياها مُنتشيه نشيطة، جلبت له فطور الصباح إلى غرفة النوم.

-فطور حبي رابح

-إيجا حبي بحذايا نفطرو مع بعض وهو يتحسس فخذها بيديه.

-اوه رابح ماشبعتش البارح وهي تقبله على وجنتيه.

-أنا نشبع منك مريومة أنا نشبع من الشهد لي فيه تي البارح تولدت من جديد أنا.

من شاهد مريومة ذلك الصباح وهي تتبختر في مشيتها سيُقسم جازما بأنها عادت إلى أيام شبابها حتى عندما سألتها ابنتها قبل منتصف النهار إن اختفت أوجاع الروماتيزم.

- شنو بـريت بنتـي تقول كنت نكذب دلكني باباك بالزيت صبحت نطنطن.

- ها هو باهي كيطلع بابا يعرف يعمل مساج ما.

- يعطيه الصحة المرة هذه دلكني بنصيحة ماغشنيش جملة هههه..

بعد تلك الليلة والليالي التي أعقبتها حيث أصبح الجنس مُختلفا تماما عما كان عليه في السابق، تكفي الكلمات والمداعبات الخفيفة الفاحشة أحيانا لتحقق ما لا يُحققه الإيلاج. غَدَا الشيخ كمال شخصا مقدسا من قِبل سي رابح ومن قِبل مريومة التـي لم تنس زوج ابنتها، طالبةً منها وهي تُسلمها عُلبة المعجون وقارورة الماء بأن تتبع نفس

التعليمات التـي اتبعها سي رابح. بطبيعة الحال لم تخبـر مريومة ابنتها أن اباها يعاني أيضا، في حين تظاهر رابح أمام ابنته بأنه لا يعرف عن موضوع عجز زوجها أي شيء.

سي كمال هذه المرة تقاضى أتعابه من الابنة والتي قدرها بمبلغ ثمانمائة دينار سلمتها الابنة بخجل كبير لمريومة، دفعها سي رابح بصدر رحب معتبـرا أن صديقه يستحق أكثر من ذلك يستحق تمثالا. مع هذا الرجل سيودع سي رابح كل عجزه ودون مقابل أيضا اعترف سي رابح بينه وبين نفسه بأن الشيخ كمال كان لطيفا وكريما معه أكثـر بكثيـر من زميله خميس.

- أرجل من الجيفة القرناط خميس.

لم يتعامل الشيخ كمال بنفس الطريقة مع المنجي عندما زاره فقد حرص الأخيـر بأن يدفع المنجي ثمن زيارة سي رابح بالنيابة دون أن يعلم حتى عندما سأله الحسين عن سبب هذا الاستثناء الذي حظي به سي رابح.

- مانعرفش حسيتو أحسن واحد فيهم هو كيستحق المساعدة أما الاخر باغي يتعنظز.

زاد تأكد ويقين المنجي من أنه أمام شيخ كبيـر عالم، لم يطلب منه الشيخ بتاتا أن يُصرح عن سبب حضوره. ذكر له اسم حبيبته وأوصافها كأنه يعرفها منذ زمن طويل، ذكر له إعراضها عنه عدم لمسها إلى حد الآن، ذكر له كيف هي تتنفس الآن قريبة من غرفة فندقهم في إشارة واضحة إلى المنـزل الصغيـر الذي استأجره لها في مدينة تونس القديمة ليُسهل عليها الوصول إلى جامعة «تسعة افريل» حيث تتابع دراستها الجامعية، البيت الذي كان يُمني النفس بأن يكون عش لقائتهما وخلواتهما لكنه لم ينل من ذلك إلا الصد،

تُقبله تُعانقه لكنها لم تُشفِ غليله إلى حد الساعة دائما تتذرع بكل الذرائع لتجعله يحترق أكثر يدفع أكثر.

– اوخ منجي اش اتفقنا نتخرج تطلق مرتك نكون كلي ليك نجوجتي امه امه وهي تقبله قبلة خفيفة على شفتيه.

لم يعد المنجي يُطق صبرا فقد توازنه فقد رغبته في العيش أراد أن يستعجل في اجراءات الطلاق ليتزوجها لكنها تشترط إتمام دراستها، أحلام فتاة ذات ملامح غربية شعر أصفر عينان زرقوان قوام جذاب بشرة بيضاء يتيمة الأب وفقيرة لا تمتلك غير إرادة قوية تريد أن تصل بها وتُحقق بها أحلامها البسيطة في عيشة كريمة لها ولأُمها التي تتعب وتحترق كل يوم لتوفر ما تقدر عليه من أجل أن تُتم دراستها على حساب إخوة آخرين فضلت الأم التضحية بهم وفصلهم عن المدرسة. أصيلة الشمال الغربي.

في مفترق الطرق بمدينة مجاز الباب وهي تبحث عن من يُوصلها إلى مدينة تونس حيث تتابع دراستها، أحلام الفتاة الجميلة الذكية بلقائها بالسي المنجي ذلك اليوم صدفة تخلصت دفعة واحدة من كل مشاكلها وعجزها كما تخلصت من كل القيود التي تُكبلها، لم تعد في حاجة إلى أن تنتظر المنحة الجامعية التي تُصرف للطلبة المعوزين والتي تحرص الجامعة بأن تصرفها بعد ثلاث أشهر من الدراسة كأنها بذلك تقوم بطرد وتعجيز الطالب الفقير بشكل مُؤدب وراق من الجامعة، يستلم المنحة بعد ثلاث أشهر حيث لا يمكن للطلاب الفقراء من أمثال أحلام وهم كُثر متابعة الدروس في الأشهر الأولى لأنهم لا يملكون هم وذويهم إلا تلك المنحة. والتي يكون في غالب الأحيان للأسرة الفقيرة نصيب منها، ماذا يُضير الجامعة أو الدولة لو صرفت المنحة قبل ذلك بوقت كبير لكي يتسنى لهؤلاء الطلبة

تدبير أمورهم ومنحهم فرصة حقيقية لمواصلة مشوارهم التعليمي.

توغل المنجي أكثر في حب أحلام لم يعد يطق صبرا أمام إعراضها وإغرائها فهي تحرص كل الحرص على إغرائه قبل أن تُعرض وتتمنع عليه أصبح استخراج الكنز وسي كمال هما الحل.

– سي المنجي مشكلتك بسيطة جيب لي كلسونها وشوية من شعرها واسم أمها الصحيح عندك تثيق البنات كيكدبوا تأكد مزيان من سميت أمها أما إلا قدرتي تجب لي الحفاظة نتاع دم الحيض ديالها مشات ولات جارية عندك.

كان سهلا عليه بأن يجلب هذه الأشياء بل ساعده الحظ إذ وجد في كيس البلاستيكي المخصص للفضلات حفاظة من دم حيضها، يتوفر المنجي على نسخة من مفتاح المنزل المستأجر حيث يعتقد كل الجيران بأنه أب أحلام حرصت هي على أن تُخبر الكل بذلك في أحيان كثيرة يُطالبه عطار الحومة.

– سي المنجي جات بنتك تبارك الله عليها زين وتربية وأخلاق عندها حسبة عندي في الكراسة قالت لي كي يجي بابا يخلصك.

يدفع المنجي كل ديون أحلام بصدر رحب وهو يسأل ويستفسر عن أحوال ابنته وأخلاقها مُوصيا العطار بأن يكون عينيه وبأن ابنته أمانة في حيهم كانت الهواجس والظنون تعصف بالمنجي فهو كثير الشك في أحلام يفسر إعراضها عنه بارتباطها ربما بأحد زملائها في الجامعة لذلك فقد أوصى العطار بأن يكون عينه التي يرى بها في غيابه وينقل إليه بالتفصيل الممل كل تحركات وزوار أحلام.

– لا سي المنجي بنتك تبارك الله عليها ما عندهاش مع الخُلط جملة.

كان ذلك يريحه فهو إلى حد الآن لم يعثر على دليل إدانة واحد ضد أحلام التي لا تستقبل في منزلها لا ذكورا ولا إناثا، يتضايق المنجي أشد المضايقة عندما يسمع من العطار كلمة «ابنتك» لكن ما باليد حيلة كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي تُمكنه من الدخول إلى المنزل والخروج منه بعيدا عن أعين وأسئلة الفضوليين. وجد الكثير من شعرها في المشط الذي تستعمله. حَمَل إلى الشيخ كمال تبانا جميلا من أغراضها تنفس عبيره كمن يشم وردة فواحة العطر.

-اسمع سي المنجي البنت هادي مبقاتش تشوف في الرجال إلا أنت وغادي نصفحها ليك ما يركبها واحد الا انت حتى إذا مُت بعد عمر طويل.

قالها الشيخ كمال وهو يُغالب ابتسامة ماكرة لم يفهم المنجي معنى كلمة التصفيح لكن عندما شرحها له الشيخ مُؤكدا له بما لا يدع مجال للشك بأنها بعد هذا العمل الذي سيقوم به الشيخ لن تشعر في الرغبة في مضاجعة رجل آخر غيره ولو نامت بين ألف رجل مهما كان إغراءهم وجمالهم وشبابهم، بعد ثلاث أيام بالتحديد لن ترى في الكون رجلا إلا هو نصحه بألا يتصل بها وألا يزورها، هي من سيقوم ذلك بل ستتوسل إليه وهي تشتعل شوقا وحنينا طالبة وصاله.

الوحيد الذي لم يفكر في زيارة الشيخ كمال لأمر شخصي هو سي خميس والأكثر من ذلك فقد تجاوز الموعد المحدد لتسليم مبلغ الخمسة الاف دينار للشيخ، سي خميس تعود أن يكره كل من يُطالبه بالمال يتجاهله يصبح لقائه غير مرغوب فيه بتاتا، أما ما كان يشغل سي خميس أكثر هو تمرد سي رابح المفاجئ، وإشراكه لابنه اسكندر في أمور لا تهمه، كان يُفكر في إبعاده لأنه اكتشف مخططه فضحه

أخوه ابن أُمه وأبيه المنجي الأخ المستهتر مُدمن النساء والخمر، آه لو استطاع أن يتخلص من شراكته فهو يشك فيه كثيرا يغشه لا يُعطيه نصيبه من المحصول كما يجب والأكثر من ذلك يستأثر بنصيب أمه بدعوى أنه هو المتكفل بها، اقترح سي خميس بأن يتكفل بأمه لكنها رفضت.

- رجعني ولدي المنجي لداري إلا قعدت هوني نموت بالجوع.

ما ينفقه عليها في العام أقل بكثير من نصيبها في المحصول السنوي للمزرعة سيشتري المزرعة ستصبح له بشكل كامل لن يتركه هكذا يُضيع إرث الأجداد والاباء على النساء والخمر، سي رابح الذي أعطاه صك بنكي بألف وخمسمائة دينار قابل للصرف في أواخر شهر فيفري، لم يعد يتذلل له أصبح يُخاطبه بكل وقاحة وثقة في النفس لم يعهدها فيه من قبل.

- اسمع اسي خميس الحساب يطول العشرة احنا باش نصرفوا لتوة ستة الاف دينار عطيت منهم خمسمائة باش نكملك شيك فيه ألف وخمسمائة نصيبي من العملية مش هكا سي خميس.

لم يقوَ سي خميس على الاعتراض لكنه في المقابل ظل يُفكر ليومين كاملين كيف سيتصرف مع أخيه المنجي الذي لم يتصل به إلى حد الساعة. لن يتجرأ سي خميس بأن يُعطي مبلغ مالي غير متأكد من رجوعه، الموت خير له من فعل ذلك سيتذرع لأخيه المنجي بذرائع يعرف بأن الأخير لن يُصدقها ولكن يمكن أن يتقبلها، يبقى ذلك رهين بحالته النفسية يجب أن يترصد مزاجه الحسن عندما يسكر المنجي يكون أبعد ما يكون عن تقبل الحديث مع سي خميس يمنحه الخمر جرأة زائدة على أخيه الأستاذ أحيانا ينعته بالبخيل وهو يغالب

ضحكه. يتجرأ على قول وهو سكران ما لا يستطيع قوله وهو في حالة صحو في أحيان كثيرة عندما يستبد الغضب بالمنجي على أخيه سي خميس يسكر من أجله أو بعبارة أخرى يشرب نخب أخيه إلى أن يفقد صوابه ليُواجِهَه ويشتمه كما يحلو له.

– خويا خميس عيش خويا راك باش تموت وتخليهم يتمتعوا بيهم عباد اخرين يزي من الشح والتقرنيط.

بعد أكثر من هجوم أصبح سي خميس يتجنب لقاء أخيه عندما يكون في حالة سكر، لكن الآن يقتضي الظرف مقابلته سيمكنه من مبلغ ألف وخمسمائة دينار فقط. هي في الأخير النقود التي سلمها له في بداية العملية. سيطلب منه أن يقتطع الباقي عندما يتم استخراج الكنز أن يقتطعه من الكنز وليس من المحصول الذي يعتبره سي خميس خطا أحمر.

فكر سي خميس بأن يزور أخيه في الليل سيُضحي بمبلغ العشرة دنانير ثمن البنزين، نعم الأمر هذه المرة يستحق هذه التضحية الكبيرة سيُسلم له المبلغ بحضور أمه كي تكون شاهدة سيُعطيه الباقي عندما يتم استخراج الكنز وليس المحصول سيركز على هذا الشرط أمام أُمه، المنجي لا يملك الخيار لأنه أحرص الناس على الكنز في الظاهر بينما في الباطن فسي خميس أحرص منه بكثير. سيحاول التذرع بأنه غير موافق على إعطاء مبلغ خمسة آلاف دينار للشيخ هكذا دون ضمانات كان باستطاعتهم أن يشتروا للشيخ كل ما يطلبه وسي خميس متأكد أن ما طلبه الشيخ ثمنا للبخور يُساوي أقل بكثير من المبلغ المطلوب. لماذا يفرض الوصاية عليهم؟ كان سي خميس شبه متأكد بأن الأغراض المزمع شرائها أقل بكثير من الثمن الذي طلبه الشيخ المغربي.

في الفحص لم يكن سي خميس مضطرا لاستعمال كل السناريوهات التي تدرب عليها سابقا، وجد آخاه في مزاج أكثر من رائق حتى اعتقد للوهلة الأولى أنه مخمور اقترب منه ليتأكد لكنه لم يشتم رائحة الكحول. قَبِل المنجي المبلغ دون أن ينبس بكلمة واحدة بل وعده في حالة استخراج الكنز بأن يتنازل له عن كل ماله من دين عليه وسيُعطيه نصف المحصول كهدية.

المنجي الذي لم يعد يشك أبدا في قدرة الشيخ كمال على استخراج الكنز، كيف يشك وهو يملك أكبر دليل على قدرة هذا الشيخ التي تصل إلى حد المعجزة، أحلام استسلمت وأصبحت هي من تطلب بتوسل وعيناها تدمعان بأن يتكرم سي المنجي ليقضي ليلة في حضنها وهي عارية كما ولدتها أمها، المنجي الذي تمتع ليومين كاملين بجسد حبيبته الغض الأبيض البكر حيث يرجع الفضل كل الفضل في ذلك إلى الشيخ كمال الرجل العالم الذي لا يقبل الهزل في عمله، صحيح أنه تقاضى مقابل ذلك ألف وخمسمائة دينار أُجرة عمله لكن الشيخ يستحق أكثر من ذلك فعلبة المعجون السحري التي تحصل عليها جعلت منه فارسا في ريعان الشباب اقتحم حصن حبيبته كالفارس افتض بكارتها.

تركها لليلة كاملة تتأوه من اللذة أصبح المنجي يعيش في عالم آخر عالم وردي عالم يملأه الحب تُجاه أحلام والتقزز والاشمئزاز تجاه زوجته ومزرعته، روى عطشه من حب أضناه لعامين كاملين كاد الشوق والشك أن يقتله، لكن الآن قلب أحلام وجسدها ملك له سيستخرج الكنز سيشتري لها سيارة أحلامها سيُسكنها في أجمل الأحياء الراقية في العاصمة، سيسافر معها إلى كل البلدان التي تريد السفر إليها، الشيخ المقدس كمال نعمة بل نسمة صيفية حملت

معه كل الحلول لكل مشاكله، الكنز كما قال الشيخ كمال الصادق والمتمكن مسألة وقت وصبر وتضحية ليس إلا والمنجي يثق الآن ثقة عمياء في الشيخ كمال.

لم يكن المنجي وحده من يثق في الشيخ ثقة عمياء كان سي رابح يشاركه في ذلك أيضا. ظل كل من اسكندر وسي خميس من يحملا داخلهما بعض الشك، عندما قرروا زيارته في الفندق لتسليمه المبلغ ووضع النقاط على الحروف على حد تعبير سي خميس الذي أراد أن يلتزم الشيخ أمامهم بموعد مُحدد لاستخراج الكنز. لم يكن يخطر ببالهم أبدا بأن الشيخ سيصحبهم لشراء مستلزمات الكنز.

- مرحبا أنا منعرفش فين كيتباعوا البخور نمشيو كلنا نقضيو الغرض على عينكم باش ما يقولش شي واحد فيكم الشيخ غشنا.

في إحدى أكبر محلات بيع البخور في المدينة القديمة ما إن استفسر الشيخ على نوع معين من البخور حتى طلبَ منه البائع الانتظار قليلا عاد طالبا من الجميع بأن يتبعوه داخل الدكان، فُتح باب يفضي إلى ممر صغير حيث طلب منهم الدخول إلى مكتب يجلس وراءه رجل في الستين من عمره شعره كامل البياض كان المكتب عبارة عن متحف للجثث المحنطة والمعلقة لأنواع كثيرة من الحيوانات التي تُطالعك وأعينها وأفواهها مفتوحة كأنها تريد أن تنقض وتهاجم كل من تراه أمامها، ذئب محنط، كلب، قط، ثعبان، حرباء... إضافة إلى القوارير المرصوفة بعناية فائقة تحوي أشياء لا يمكن لإنسان عادي أن يُدرك ويُحدد ما بداخلها.

الشيء المميز الأخر في المكان أو المكتب الرائحة الغريبة التي لا تستطيع تحديد طبيعة رائحتها ونوعها، طلب الرجل الأبيض من البائع الذي قابلهم أول مرة مزيدا من الكراسي ومشروبا لكل واحد

من الضيوف مع ثلاث قوارير ماء، رحب بالشيخ كأنه يعرفه منذ زمن طويل.

- لا يسأل عن نوع البخور التي سألت عنها إلا شيخ عارف بها. هل تشرفني بمعرفتك سيدي؟

ظهرت علامات الاستغراب على الكل بما فيهم الحسين الشيخ وحده الذي احتفظ بهدوئه، استمر الحوار الغير المفهوم بين صاحب الدكان والشيخ لنصف ساعة اشتكى فيها التاجر من غياب العارفين بأصول العمل الحقيقي وكثرة الدجالين الذين لا يعرفون قيمة الأشياء الحقيقية.

ظل سي رابح أستاذ مادة الفيزياء مشدوها أمام المواد والمحاليل التي يتم ذكرها أمامه كأنه في حضرة عالمين للكمياء من نوع آخر كيف يتكلمون على تفاعل هذه المواد والنتائج التي تُعطيها وكيف لا يمكن الحصول على النتائج المرجوة إذا تم استعمال عنصر واحد دخيل غير مُتجانس بالإضافة إلى أسماء التعويذات والأوقات التي يجب أن تردد فيها بدقة ودون خطأ مهما كان صغيرا والتي يرتبط ترديدها بتوافق الكواكب والنجوم وصنف البشر والناس التي تنقسم إلى أربعة الترابي، الناري، المائي والهوائي، وماهي الطرق والجداول التي يجب اتباعها لتحديد صنف كل إنسان. وكيف غزت البخور والمواد الافريقية المغشوشة الأسواق والتي لا يمكن أن يُميزها عن الحقيقية إلا عارف وخبير بالمواد المُراد استعمالها في أعمال حساسة وذات تكلفة باهظة، إذ يكفي بأن يضاف عنصر واحد دخيل غير أصلي إلى مكونات عمل معين يكون كاف بأن يُضيع في رمشة عين عمل تكلف إنجازه الملايين. كان البائع يعرف بفراسته ما هو العمل الذي يُراد القيام به.

كان الحاضرون يستمعون بصمت من لا يعرف كيف سيشارك في حوار مثل هذا، ظن اسكندر نفسه في حلم أو في إحدى قصص ألف ليلة وليلة الخيالية، هل السحر الذي يسمع عنه بشكل يميل إلى تكذيبه أكثر من ميله إلى تصديقه يمكن أن يكون كهذا يحمل مصطلحات خاصة به كالتي تعلمها في الجامعة أو كالتي لا يعرف التحدث بها إلا الأطباء فيما بينهم، كان حوار الشيخ كمال والتاجر يشبه كثيرا حوار بين طبيب محنك وصيدلي. بعد ذلك طلب الشيخ كمال من التاجر أن يقوم بتحضير البضاعة، الدواء، الخلطة... التالية والتي لا يمكن أن يُحدّد اسمها أو طبيعتها.

- سي يعقوب الله يجازيك بخير، شوف وش نقدر نلقى عندك هادشي؟

- إن شاء الله شيخ كمال طلباتك موجودة الكل.

بعد ذلك، كان الشيخ يطلب مُسميا أغراضه والتاجر يعقوب يُسجل وهو يومئ برأسه علامة أن ما طلبه الشيخ موجود.

- عندك كحل الجان؟

- شعر عانة المجنون.

- دم النفساء.

- قطرة دم العذراء.

- ماء غسيل الميت.

- لسان الضبع.

- زغب تاج السبع.....

أعطى التاجر يعقوب الورقة لأحد عمال المتجر طالبا منه

تحضيرها بأسرع وقت ممكن، بينما استخرج الشيخ كمال قارورة ماء صغيرة سوداء اللون مختومة بنجمة داوود السداسية، ما إن وقعت عينا يعقوب عليها حتى هب من مكانه كالملسوع واقفا طالبا من الشيخ كمال إعطاءه إياها احتضنها بكل حب وهو يتفحصها غير مُصدق ما يراه.

- للبيع هذه شيخ كمال؟

- لا سي يعقوب، أما شحال الثمن ديالها هنا؟

- نعطيك فيها شيخ إلا حبيت توا ألف وخمسمائة دينار.

وقتها فقط كشف السيد يعقوب عن هويته اليهودية ليقدم للجميع شرحا مفصلا عن هذه القارورة التي تحوي ماء يهوديا مُقدسا، لا يمكن لغير علماء اليهود أن يستخرجه، حيث تُقرأ عليه تعويذات وفق حركة قمرية معينة وبلُغة قديمة جدا تُورث لعرق معين فقط من اليهود، يقال إن نسبهم يعود لأحد الحكماء الذين عاصروا نبي الله سليمان. هذا الماء ذو الاستعمالات المتعددة والخطيرة لا يُباع إلا في أسواق ثلاث في العالم في سوق المغرب والعراق والهند قليل من الفقهاء من يعرف قيمته ويعرف طريقة استعماله إنه ماء النخبة.

- اشنو سي خميس كنت تقدر تشري هاد شي بوحدك؟

- وهو يلتفت إلى سي خميس في غضب ظاهر

استيقظ سي خميس من اندهاشه كالملدوغ، مُعبرا عن أسفه في حين وُجهت صوبه نظرات العتاب من كل من المنجي وسي رابح، طالبين من الشيخ كمال معذرته لأنه لا يعرف ولأنهم كلهم لا يعرفون ولم يكونوا يعتقدون يوما بأن هناك أشياء كالتي رأوها

وسمعوها اليوم.

- نلقى عندك سي يعقوب لُبان ذكر.

- حتى أنا استغربت قلت علاش ماطلبوش لتوا؟

- علاش ماتكلمتش سي يعقوب؟

- أنا عمري ماندخل في حاجة ماتعنينيش.

استخرج الشيخ كمال من محفظته من كيس ملفوف بعناية فائقة تقريبا خمس حبات مستديرة بلون حبات الرمان وبحجمها طالبا من التاجر يعقوب تفحصها وأن يقوم كذلك بوزنها.

ازداد اندهاش التاجر يعقوب وهو يتفحص حبات لُبان الذكر المتلألئة قام بوزنها في ميزان صغير كالذي يُستخدم لوزن وتقييم الذهب.

- هاذو ثلاثة غرام ونصف شيخ كمال.

- قداش الغرام سي يعقوب عندكم هنا؟

- الغرام لُبان ذكر الحقيقي بين الثلاثمائة دينار والخمسمائة حسب العرض والطلب أحيانا يكون مفقودا.

عاد صبي التاجر يعقوب يحمل الأغراض المطلوبة داخل حقيبة جلدية أكثر من أنيقة أعطاها للشيخ كمال الذي تفحص الأشياء كلها بدقة بالغة وعلامات الإعجاب لم تُفارق مُحياه، أعطاه التاجر يعقوب الفاتورة والتي لم يُلقِ عليه الشيخ كمال نظرة بتاتا سلمها لسي خميس.

- قرا لينا سي خميس، شحال فيها؟

بيدين مرتعشتين ووجه أصفر تسلم سي خميس الفاتورة، كان

واضحا أن الشيخ كمال قد أعلن الحرب عليه بشكل مباشر وعلني، أرضى ذلك كل الأطراف بما فيهم أخوه المنجي الذي بدا كأنه يكتم ضحكه في حين أشفي تهكم الشيخ كمال بسي خميس غليل سي رابح.

- فيها زوج ملايين وسبعمائة دينار سيي كمال.

- باهي سي خميس إلا زدنا عليهم القرعة ديال الماء الميت ولبان ذكر شحال تولي.

- أكثر من خمسة ملايين سي كمال.

هذه المرة توجه الشيخ كمال بالكلام لسي يعقوب.

- تعرف يا سي يعقوب أنتم تشكون من الدجالين الذين لا يعرفون القيمة الحقيقية للبضاعة والمواد التي تعرضونها لأنهم يفتقدون إلى العلم والحكمة التي تمكنهم من معرفة طرق وأساليب ومجالات استعمالاتها، ولأنهم لا يهمهم إلا خداع الناس والاستيلاء على أموالهم بالباطل لذلك يسوقون لهم خدمات رخيصة مُغلفة بمجموعة من الأوهام الكاذبة وهذا ما جعلنا نحن أيضا الحكماء الشرفاء الذين تخرجوا ودرسوا الحكمة على يد كبار الشيوخ المعروفين، نشكو من هذه الفئة التي شوهت نظرة الناس للحكمة الحقيقية وجعلتهم لا يُميزون بين الحكمة الحقيقية والدجل، ولأن الحكمة أو ما يسمونه السحر الأسود كان دوما ولا يزال مُقتصرا على النخبة لأنها الوحيدة القادرة على فهم قيمة العمل المقدم لها والقادرة على تقييمه بشكل صحيح دون حسابات ضيقة يشوبها الشك، فأنا أعتبر بأن الشيخ أو الفقيه أو الحكيم الذي يفضل التعامل خارج النخبة يتحمل المسؤولية في كل إهانة تلحق به.

أيد التاجر يعقوب كلام الشيخ كمال وهو ينظر باستغراب إلى سي خميس الذي كان يُغالب خجله والعرق يتصبب من جبينه بعد

ذلك استخرج الشيخ كمال النقود أعطى للتاجر يعقوب حسابه.

– الباقي نتاعي سي خميس، ولا نبيع سلعتي لسي يعقوب؟

– صلي على النبي شيخ كمال ما قصدت شيء.

– اسكت ماتزيدش تكذب أنا نعرف اش يدور في مخك لولا خاطر خوك المنجي وسي رابح والله ما نكمل معاك ضربة.

قام كل من المنجي وسي رابح لتهدئة خاطر الشيخ كمال طالبين منه الصفح على سي خميس، الذي قام هو الأخر معتذرا مقبلا رأس الشيخ كمال طالبا عفوه. عاد إلى الشيخ بعض من الهدوء وإن كانت علامة الغضب لم تفارق محياه وهو يعتذر من التاجر يعقوب، استخرج الشيخ مبلغ خمسمائة دينار أعطاها أمام الحضور لسي رابح.

– هذي سي رابح مصاريف ديال التنقل والطومبيل ديالك.

رفض سي رابح بكل إصرار تقبل المبلغ لكن الشيخ حلف يمينا غليظا جعله يتراجع، ويقبل بالمبلغ الذي جعل وجه سي خميس يزداد امتقاعا واصفرارا، كان الشيخ كمال يتفنن في تعذيب سي خميس، عرف كيف يُكيل له الضربة تلو الأخرى، بل هدد بأن أي تصرف أرعن غير محسوب آخر منه سيجعله ينسحب من إتمام العمل بشكل نهائي.

الفصل 14

المزار

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها *** عند التقلب في أنيابها العطب

عنترة بن شداد

وجد كل من الحسين والشيخ كمال صاحب الفندق ينتظرهما بفارغ الصبر في شارع «المنجي سليم» المكتظ بالمارة والبائعين، صاحب الفندق الذي أصبح يتمتع بعمولة خمس دنانير عن كل زائر يزور الشيخ. هذه المرة لم يكن من وجده الشيخ ينتظر في مكتب صاحب الفندق لم يكن رجلا عاديا، كل العلامات تُشير إلى كَونِه ذا مكانة عالية ليكتشف الشيخ من بعد صدق فراسته، وأن زائره شخصية معروفة ومرموقة في البلاد بعد دخول الشيخ صرف م.س. حُراسه.

– اسمع يا شيخ الا قضيت لـ «م.س.» قضيتو تسمى أمك راضية عليك. قال صاحب الفندق.

– إن شاء الله ربي يقدرني. رد الشيخ وهو يتفحص الجالس أمامه في أُبهة وتغطرس ظاهرين.

طلب م.س. من صاحب الفندق بلهجة أقرب إلى الأمر منها إلى الطلب الخروج وألا يدع أحد يدخل عليهما بتاتا، امتثل صاحب الفندق بذل ظاهر للأوامر السامية الصادرة من لدن سيادته.

لأسبوع كامل نسي الشيخ كمال الكنز وأصحاب الكنز، طلب من الحسين الذي أرسله الشيخ لثلاث مرات متتالية ليجلب له أغراض من دكان أو مختبر يعقوب اليهودي الاعتذار لجماعة «المرناقية» وتأجيل موضوع الكنز لأسبوعين أخرين، الشيء الذي لم يتقبلوه واعتبروه علامة من علامات بداية التملص، وبأن الشيخ يريد التملص من متابعة استخراج الكنز لغضبه الشديد على سي خميس.

- اسمع خميس معادش تتدخل في أمور الشيخ جمله.

هكذا طلب منه كل من المنجي وسي رابح، لم تنفع تطمينات الحسين للجماعة أصروا على مقابلة الشيخ في الفندق لكنه اعتذر عن مقابلتهم.

- صاحبكم جنح يا ذنوبي كان مازال يحكي معاكم، قال لهم صاحب الفندق.

- كيفاش؟

هامسا هذه المرة كي لا يُسمع صوته.

- جاه م.س. شخصيا طلب منو خدمة غاطس فيها ليل نهار كل نهار تجيه كرهبة تهزو وترجعو.

خبر كهذا كاف ليجعل الرعب يتسرب إلى القلوب، سي خميس عندما سمع بالاسم فقط الذي أصبح يطلب ود الشيخ، ندم عن كل بذرة شك في غير محلها تُجاه الشيخ وافقهم هذه المرة وطلب منهم

بأن يرابطوا أمام الفندق لأقناع الشيخ بإكمال العملية.

لم تكن مشكلة م.س. تستحق كل هذا العناء وهذا الاهتمام من الشيخ كمال. كانت مشكلة تافهة بالنسبة إليه وسهلة للغاية لكنه لغرض في نفسه أراد ن يجعلها تبدو صعبة هكذا. كان تحدي ابن م.س. لأبيه في أن يتزوج فتاة لم تقبلها العائلة ورفضه للفتاة المقترحة مشكلة عادية يستطيع حلها عن بعد بتعويذة سهلة يحتاج فيها اسم الابن والأم فقط وبعضا من أغراضه أو أغراض الفتاة المزمع إبعادها كما فعل مع حبيبة المنجي، لكنه تصرف عكس ذلك أولا لحرصه الشديد على أن تتم العملية بأسرع وقت ممكن وألا يبقى شك صغير في نسبة نجاحها لذلك استعمل كل المواد الغالية والكفيلة بإنجاح العملية أضاف أشياء أُخرى، تبخير القصر و.. و.. و.. عندما سأله م.س. إن كان في حاجة لعربون مالي قبل أن يبدأ العمل.

- هذا كلام سي... يتم المقصود وعطيني ليجي على خاطرك سيدي.

بعد أسبوعين كانت سيارة مرسيديس مع الساعة السابعة مساء تنقل كل من الحسين والشيخ لتحملهما إلى بومهل البساتين حيث تنتظرهما هناك مأدبة عشاء فاخرة أقامها م.س على شرفهما احتفالا بنجاح المهمة التي كُلف بها الشيخ. أعلمه السيد بأنه طول اقامته في تونس فهو يحظى بحمايته لن يجرؤ أحد بأن يصل إليه بسوء. لم يكتف السيد بذلك أعطاه مفتاح الفيلا الصغيرة ليتخذها الشيخ مكان إقامته الجديدة إلى حين عودته إلى المغرب، سلمه مع مفتاح المنزل ظرف يحوي على مبلغ مالي بالفرك الفرنسي يُساوي حوالي خمسة آلاف دينار تونسي تاركا بطاقته الشخصية التي يحظى فقط من يحملها ويستظهر بها بحمايته.

بومهل البساتين حي راق في الضاحية الجنوبية لمدينة تونس. في الفيلا الصغيرة المطلة على جبل «بوقرنين» حيث أصبح يُقيم كل من الحسين والشيخ كمال، أبناء قرية «الكصيب» ذات المنازل الطينية في تيزنيت لم يكونا يحلمان مجرد الحلم بأن يدخلا إلى فيلا مؤثثة هكذا فضلا على أن يقطناها، هذه الفيلا التي ستصبح مزارا حقيقيا يزوره يوميا ألاف الزوار طامعين في بركة ولقاء صغير مع الشيخ مُستعدين لدفع كل ما يُطلب منهم المهم أن يحظوا بفرصة للقاء الشيخ الجليل الذي ذاع صيته في ظرف وجيز كحكيم لا يُشق له غبار، قادر على تحويل أحلام زواره إلى حقيقة.

الأكثر من ذلك طول إقامة الشيخ هناك كانت كل الطرق المؤدية إلى الفيلا مُكتظة بالزوار والراغبين في لقائه نساء ورجال شباب وكهول، سيعتقد المار صدفة من هناك بأن هذا الحشد ربما في انتظار إطلالة نجم سينمائي أو نجم غنائي. استُدعيت فرقة كاملة من شرطة المرور لتسهيل عملية المرور فتح م.س. للشيخ بابا لم يكن يحلم به بل مكنته حمايته له من ممارسة عمله بكل حرية وأريحية كان كافيا فقط الاستظهار ببطاقة زيارة م.س. ليتراجع كل من تُسول له نفسه الاقتراب من الشيخ، ولازالت السيارة السوداء تَقِل أحيانا الشيخ ومساعده إلى قصور الطبقة الحاكمة ممن هم في حاجة ماسة لخدمات الشيخ حتى قيل إن السيدة الأولى بجلالة قدرها كانت ترغب في فرصة للقاء الشيخ بل هناك من ذهب بعيدا وأكد هذا اللقاء.

لم يعد سماسرة مقهى البرلمان قادرين على استيعاب المبالغ المراد تحويلها بشكل يومي إلى المغرب، تدخل م.س. شخصيا ليُسهل للشيخ الجليل بشكل قانوني تهريب أمواله إلى الخارج، أصبح الشيخ مُهابا ومعروفا تحُج الناس إليه من كل مكان ومن جل المدن

التي ذاع سيطه فيها. أحيانا يكتفي بإطلالة على الجموع المنتظرة في الخارج ليباركهم بمائه الساخن الذي يشربه أمامهم ويرشهم به من فمه الطاهر والجموع تتسابق لتحظى بقطرة لعلها تكون الكافية لإبعاد التابعة والحسد عنهم.

في تلك الفيلا الصغيرة وقبل أن تُصبح مَحجا للكثير من أبناء تونس سيستقبل الشيخ جماعة «المرناقية» كما أصبح يُناديهم، حيث أصبح يتأفف من مقابلتهم، حرص الشيخ بأن يدع الظرف المملوء بأوراق الفرنك الفرنسي فوق الطاولة ليتمكن الجميع من مشاهدته، الآن تغير كل شيء اكتسب الشيخ مهابة جديدة جعلت من محدثيه ينتقون عبارتهم بعناية فائقة وهم في حضرته، لم يلُمه أحد على عدم التزامه بالموعد المُتفق عليه، اختلقوا له من الأعذار ما لم يخطر على بال الشيخ نفسه الذي لم يكن في نيته أبدا الاعتذار عن تأخره.

- إن شاء الله غدوة تجيني طومبيل مع العشرة ديال الليل نكون عندكم.

لم يكن كل هذا ما قاله الشيخ اشترط بألا يتدخل أحد في عمله، وجود اسكندر مهم وضروري، يجب أن يكون الجميع على طهارة تامة وسيقوم باستخراج الكنز باستعمال طريقة «الجلب».

هذه الكلمة التي سمع عنها كل من المنجي وسي خميس الكثير ويجهلها سي رابح، لا يستعملها إلا الفقهاء المتمكنين لكن غالبا ما تكون الغاية منها حسب ما هو مُشاع النصب على أصحاب الكنز وبأن يستأثر به الشيوخ المغاربة لأنفسهم، حيث يقومون بتحويل مكانه إلى مكان أخر، وكلمة الجلب تعني بأن يقوم الفقيه عن طريق طقوس غاية في الغرابة باستحضار الكثير من الجن والأرواح الغائبة وإجبارها على جلب الكنز المراد استخراجه

إلى حيث يوجد ويجلس هو ويشترط في من يقوم بهذه العملية بأن يكون مُطلعا ومُتضلعا حيث يستشهد كل الفقهاء الذين يقومون بهذه العملية ضد كل من يُشكك في وجودها وإمكانية حُدوثها بالعالم الذي عنده علم من الكتاب والذي أحضر كرسي عرش ملكة بلقيس للملك النبي سليمان بطريقة الجلب، وهو لم يـرتد إليه طرفه ولم يقم من مكانه.

هذه المرة لم يمتقع وجه سي خميس فقط شاركه في ذلك أخوه المنجي، لكن لم يقوَ أي واحد منهما على أن ينبس بكلمة واحدة، كان تهديد الشيخ بالانسحاب لازال يطن في أذانهم. في الطريق حاول سي رابح بأن يُطمئن الجميع بعد أن فهم المقصود من عملية استخراج الكنـز بالجلب لكن دون جدوى هذه المرة المنجي نفسه لم يطمئن.

- توا ينجم يهزو الا مهداهش ربي قدام عينينا وبـرا اضرب لو على الطيارة.

- تكلموا تدخل الحبس أضاف خميس مؤكدا كلام أخيه المنجي.

- ياخي للدرجة هذه خائفين؟ تساءل سي رابح.

- ياخي واش تعرف شنو معناتها م.س ولا تتبهلل سي رابح.

- زعمة يعرفوا بالمجد ولا حيلة.

- ظاهرلي تخرف ماريتش الفيلا الماصو نتاع الفلوس البوليس واقف تعس عليه تقول عليه وزير مش عزام آش تحب أكثر من هكا.

لم يعد سي رابح هو المكلف بإيصال الشيخ ومساعده إلى مدينة الفحص، وصل إلى منـزل جماعة «المرناقية» في الفحص في سيارة

رباعية الدفع تحمل أرقام أجنبية على الساعة التاسعة والنصف ليلا وجد في استقباله الجماعة كلها التـي كانت تتساءل لوقت قريب وتشك في مجيء الشيخ الحدث.

صرف الشيخ سائق السيارة، طالبا منه ألا يبتعد كثيـرا وأن يعود عندما يتصل به. الشيخ الذي كان حريصا على إظهار هاتفه الجوال، الذي لم يكن وقتها من السهل في تونس الحصول عليه، تحتاج إلى طلب وانتظار قد يصل إلى أشهُر، لكن الشيخ حصل على هاتف جوال وشريحة بسهولة شأنه في ذلك شأن عِلية القوم في البلاد. تمعن سي رابح منظر كل من الحسين والشيخ وهما ينـزلان من السيارة الرباعية الدفع كشخصيتين مهمتين.

فتح الحسين الباب للشيخ الذي كان يجلس في المقعد الخلفي للسيارة، شأنه في ذلك شأن الشخصيات الكبيـرة والمعروفة، هيئتهُما التـي تغيـرت كثيـرا عن أول لقاء لهما به، اكتسبت بشرة الحسين السمراء صفاء ولمعانا من تأثيـر الأكل الجيد والراحة إضافة إلى الملابس الجديدة والغالية، لم يعد ذلك الشخص الذي شاهده أول مرة ذو الأسنان الصفراء والوجه الكالح والملابس الرثة، في ظرف وجيز لم يتعد الشهر صار إنسان آخر يشبه كثيـرا جاره لسعد، بينما ازداد الشيخ لمعانا وبياضا جلبابه الأبيض واللحية السوداء تتخللها شعيـرات بيضاء جعلته يبدو كملاك، إضافة إلى طريقة وأسلوب تعامله الذي يحرص بأن يظهر به كأنه حكيم هندي.

يتكلم دوما بصوت يكاد يكون منخفضا كأنه يهمس أو يُتمتم إحدى تعويذاته زادت ثقته بنفسه بل تجاوزت الحد الأقصى، سيارة رباعية الدفع مع سائق يأمر سي كمال فيُطاع يتسابق الكل لإرضائه، تُقام له المآدب وتُجلب له الهدايا ساعة في المعصم سويسرية الصنع،

هاتف نوع «إريكسون» آخر صيحة في عالم التكنلوجيا، زمن التعويذات هذا، ذكره الاثنين بجاره لسعد كيف ينـزل من سيارته الرباعية الدفع وهو يحمل في يديه هاتفه الجوال ومفاتحه، يأمر صبي محله التجاري بإنـزال الأغراض التـي اشتراها وإدخالها للمنـزل لم يكن يتبضع كالآخرين صناديق الفاكهة بكل أنواعها وذات جودة عالية، نصف خروف، صندوق بلاستيكي من السمك الأبيض، أكياس بلاستيكية لملابس من ماركات عالمية لا يحلم سي رابح وعائلته بمجرد الدخول لتلك المحلات فضلا عن الشراء منها.

ثلاثون سنة من التعليم وهو يتسارع مع اللقمة، فقط أصبحت كل مشترياته من الملابس المستعملة، الحسين تجاوز ذلك بسرعة البـرق العساس المغربي في معمل الجندوبي تفوح منه رائحة العطر النفاذة الغالية ثمن قارورة عطر الحسين العساس تساوي نصف مرتب سي رابح، من أين تخرج الشيخ كمال أي علم يحمله يجعل منه شخصا مُهابا يطلب عِلية القوم وُدّه، لا ليس عِلية القوم فقط من تطلب قُربه جُل الناس تطلب ذلك نحن أيضا من دفع تكاليف سفره وإقامته من أجل أن نحظى ببعض علمه كل الناس الفقراء والأغنياء يطلبون ود الشيخ كمال زمن الشيوخ بلا منازع.

- عندك بورطابل شيخ علاش ماقلتناش نتصلو بيك.

- لا انت سي رابح نعطيك الرقم ديالي فكرني من بعد هههههه.

طلب الشيخ من الجماعة إفراغ الغرفة المُستقبلة لمكان الكنـز عن أخرها، لا يـريد أن يجد فيها أي شيء، قام كل من المنجي وأبنائه واسكندر بالعمل المطلوب، بعد ذلك طلب إناءً كبيـرا ونظيفا وضع فيه قليلا من ماء قارورة داوود ذات النجمة السداسية وبعض البخور بعد أن تمتم على الإناء قرابة النصف ساعة، قام بإضافة ماء

البئر وهو يتمتم لقرابة ساعة أخرى كاملة.

طلب من اسكندر بأن يُعيد وضوئه مُجددا أمامه وأن يقوم بسكب الماء في الغرفة بيده اليمنى التـي تحمل خط الكنـز. بعد تنظيف الغرفة بذلك الماء حيث قام بعملية التنظيف الشيخ واسكندر لوحدهما ولم يُسمح لأحد غيـرهما دخول الغرفة حيث قاوم اسكندر خوفا وصل إلى حد الرعب، وهو يستمع إلى تمتمات الشيخ التـي لم تتوقف طوال عملية التنظيف.

طلب من المنجي بأن تُفرش الغرفة بحصيـر نظيف بعد ذلك اختلى الشيخ بنفسه في الغرفة لنصف ساعة تقريبا، طلب بعد الخلوة من الجميع الدخول، كانت الغرفة كلها مفروشة بثوب أخضر اللون، جلس الشيخ في وسط الغرفة مُتربعا بلباسه الأبيض منحني الرأس، طلب من اسكندر أن يجلس على يمينه والحسين على يساره وطلب من الكل التزام الصمت وعدم التفوه بكلمة بعد أن تبدأ طقوس الجلب، عندما تستقر الجرار على الأرض سيكون اسكندر هو الوحيد صاحب الحق في لمسها لأول مرة وسيفعل ذلك عندما يطلب منه الشيخ بنفسه إمساك الجرار وإنـزالها. اسكندر الذي بدأت فرائصه في الارتعاد وأسنانه تصطك.

قام الحسين بإعداد الكانون بفحم خاص سلمه له الشيخ وهو يحثه على اتباع تعليمات اشعاله بحذافيـرها وكما علمه سابقا، عند دخول الحسين وهو يحمل الكانون المُشتعل أمر الشيخ بإغلاق الغرفة بإحكام مُحذرا بأن أي شخص يقوم فقط بطرقها أو أي كلمة تصدر من أحدهم سيضيع كل العمل الذين هم بصدد إنجازه.

- فهمتوني ولا نعاود لي ما يقدرش يصبـر يخرج.

- باغي نسمع دابة فهمتوني ولا لا

- ايه سي كمال توكل على الله

أجاب المنجي نيابة عن الجميع

دخل الجميع في صمت رهيب وقلوبهم تخفق وهي مُحملة بآمال السنين الماضية وأحلام المستقبل، بينما انخرط الشيخ في وضع بخوره الواحدة تلو الأخرى كل نصف ساعة يُضيف شيئا إلى النار المشتعلة وهو يتمتم.

- جلجاميش باسم الاسم الأعظم أمرك أن...

- يا مالك الجان...

كانت كلمة جلجامش الأكثر وضوحا في كل كلامه، تمام منتصف الليل طلب الشيخ من الحسين أن يقوم من مكانه ليُكحل أُعين الحاضرين بكُحل الجان كما علمه بالضبط وألا يتفوه أحد بكلمة.

- حتى ليحرقتو عينيه مايتكلمش وما يمسهاش واضح.

كان وقع الكحل على أعين الجميع كالإبر لدقيقة كاملة والدموع تنهمر كأنهم في بكاء حقيقي، بعد ذلك اختفى كل شيء أصبحت الرؤية واضحة بشكل كامل رغم الظلام والأضواء المطفأة. كان آخر ما وضعه الشيخ في الكانون المشتعل هو بخور «لُبان ذكر» بعد ذلك طلب من الجميع الاستعداد وهو يُنادي.

- جلجامش أمرك الآن الآن.....

هل يمكن أن يختلط الحلم بالحقيقة أو أن الكحل عبارة عن نظارة ثلاثية الأبعاد تنقل لك صور خادعة تظهر كأنها حقيقة لا تقبل النقاش لا يمكن لتلك الصورة التي ظهرت فجأة بذلك الشكل المخيف المرعب والعجيب أن تكون غير حقيقية. لا يمكن

للإنسان أن تخدعه حواسه هكذا إذا كانت العين تحت تأثير الكُحل فلا أظن أن الاذن يمكن أن تكون قد سمعت أصواتا مفبركة. في البداية كأن عاصفة حدثت داخل الغرفة اتخذ دخان البخور المنبعث من الكانون شكلا لولبيا متصاعدا من الأرض إلى السقف، كانت الرؤية واضحة لا يمكن أن تعتقد أو نعتقد نحن الأربعة من تشاركنا الرؤية والسمع في تلك الليلة بأن ذلك مجرد حلم، إذ يستحيل أن يشترك أربعة رجال في حلم واحد بكل تفاصيله الدقيقة. بعد العاصفة في الغرفة كانت الأصوات المصاحبة لنداء وأوامر الشيخ واضحة كأنها تقول نعم، أو لبيك، حاضر، شيء من هذا القبيل.

نحن قادمون، شيء من هذا القبيل لا يمكن أن تُميز مُرادها، لكنك لا يمكن أن تُخطئ أو تشك في وجودها وسماعها، بعدها بدأت عاصفة البخور تنقشع بشكل تدريجي حيث ظهرت في وسطها ثلاث جرار من الطين القديم مملوءة بالذهب، كان المنظر يخلب الألباب ويسحرها بدأت تقترب بشكل تدريجي من الأرض كأن هناك قوة تحملها غير مرئية تحرص على وضعها بكل لطف، لحظتها وأفواهنا مفتوحة قلوبنا ترتجف امتزجت داخلها أحاسيس شتى بدأت الفرحة تطرد الخوف، الذي كان لوقت قريب مُسيطرا على الصدور وجاثما عليها، عيوننا جاحظة تُتابع بلهفة غريبة الجرار وهي تسبح في فضاء الغرفة، ونحن ننتظر هبوطها، فجأة دون سابق إنذار سمعنا صوت سي خميس وهو يصيح بصوت مرتفع قائما من مكانه.

- الكنز الكنز الكنز الكنز نتاعي وهو يحاول الإمساك به.

بسرعة البرق تبخر كل شيء كأنه سراب، اختفى كل شيء في رمشه عين عمت الجلبة والضوضاء الغرفة لحظتها فقط اكتشفنا

بأننا نتنفس بصعوبة وأن رائحة البخور تكتم على أنفاسنا بينما صاح الشيخ غاضبا وهو يسب سي خميس الذي قام أخوه بصفعه أمامنا وركله.

- أنت واحد جيعان بهيم وماكش راجل وباش تموت جيعان.

سي خميس الذي بدا للحظة كالأبله لم يعرف ماذا يفعل بل لازال يتساءل.

- باهي باهي يا خي وينو الكنـز وينو الكنـز وينو الكنز وهو يولول.

لم يقف عند ذلك بل أمسك بتلابيب الشيخ مُتهما إياه بجلب الكنـز وتحويله إلى مكان آخر مهددا إياه بأنه لن يتركه حيا إذ لم يُعيد له كنـز أجداده.

- رجع لي كنـزي يا دجال يا حرايمي ماكش باش تعديها عليا تحب تهزو رجع ليّ كنزي وينو كنزي كنز بابا وجدي.

دافع الحسين بكل ما أُوتي من قوة عن الشيح في حين أصيب الآخرون بالذهول، كأن كلمات سي خميس قد نبهتهم إلى شيء كانوا غافلين عنه أيقظت فيهم بذرة الشك التـي لم تفارقهم والتـي شاركهم فيها هذه المرة كل من سي رابح واسكندر.

لم يتغلبوا عليها إلا بعد أن شاهدوا سي خميس يقع أرضا بعد أن دفعه الحسين بشكل قوي وهو يمسك بخمس قطع ذهبية وجدها مرمية على الأرض.

- سي المنجي عاجبك خوك ولا شنو؟

لم يهتم الجميع بكلمات الشيخ كانت الأعين كلها منصبة بذهول إلى يدي سي خميس وهو يمسك بالقطع الذهبية الخمس.

- ها هو طاحو كعبات طاحو كعبات الكنز عندو فركسوه شوفوا وين هزوا.

- كان خليتنا نكملو راه جبدناه كامل الله يهديك وصافي، أضاف الشيخ.

كمن استيقظ من حلم مزعج هرع المنجي وابنائه اللذين وقفا ينتظران تصرف ابيهما ليحذوا حذوه. هرع المنجي طالبا من أخيه أن يكف عن ترهاته وأن الشيخ بـريء من اتهاماته وأن يُمكنه من القطع التـي وجدوها باعتبار الشيخ بـريء لأنه اشترط في الأول بألا يتكلم أحد ونبّه أن في حالة حدوث ذلك سيبطل العمل فجأة وهذا ما حدث. تحول غضب سي خميس إلى بكاء ونواح وهو يطلب المغفرة والسماح من الشيخ. تدخل كل من اسكندر ورابح كأن الجميع تذكروا فجأة تحذيـر الشيخ السابق.

هاتف الشيخ سائق السيارة طالبا منه المجيء بسرعة، كانت الساعة تشيـر إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل تجند الكل لإقناع الشيخ بالعدول عن قرار مغادرته المزرعة اقترح عليه المنجي المبيت عنده إلى الصباح ريثما تهدئ أعصابه لكن دون جدوى.

الفصل 14

أحلام مريومة وهواجسها

«إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره،
وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه».
علي بن ابي طالب

لم يغمض لمريومة جفن تلك الليلة في أول الليل كانت مُتحمسة تنتظر بلهفة دخول زوجها وابنها محملان بالذهب، حملها خيالها بعيدا اليوم سيُودعان الضنك إلى غير رجعة، غدا ستُشرق شمس جديدة في حياتهم تصورت منزلهم الجديد في إحدى الضواحي الراقية في مدينة تونس حيث يُصر اسكندر على أن ينتقلوا للسكن في حي المنزه بينما لازال رابح متشبث بالسكن في ضاحية المرسى لا يمكن أن تتخيل مريومة نفسها بعيدة عن ابنها الوحيد، لذلك قرروا في الأخير نزولا كما جرت العادة عند رغبة إسكندر بأن يشتروا منزلان متجاوران في حي المنزه لكي تتسنى لها رؤيته كل يوم فهي تنتظر بفارغ الصبر زواجه تُريد أن تُربي أحفادها من ابنها أن تراهم يكبرون بين يديها، استبعدت هي ورابح فكرة الحج في العام الأول سيؤجلان الموضوع إلى السنة الموالية، رابح الذي عاهد مريومة بأن

يتفرغ لها هذه السنة سيُنسيها كل سنوات الحرمان التي مرت بها. سيتقدم بطلب عطلة دون أجر هذه السنة، لن يُزاول مهنة التدريس بعد، يكفي، أكثر من ثلاثين سنة وهو يستنشق غُبار الطباشير والسبورة السوداء ومشاكسة التلاميذ التي تسوء أخلاقهم عام بعد عام، لم يعد الأستاذ يتمتع بالهيبة التي كان يحظى بها سابقا.

أصبح التلاميذ أكثر جرأة ووقاحة، تصل أحيانا إلى حد الإهانة والاستهزاء من الإطار التربوي. ما يقلق مريومة هو موضوع أميرة خطيبة اسكندر أحست بأنها على اطلاع كامل بموضوع الكنز، أصبحت أكثر لُطفا وأقل تعجرفا معهم من السابق تُساعد مريومة في المطبخ والأكثر من ذلك اشترت لها هدية بمناسبة عيد الأم، معتبرة إياها أمها الثانية هي لا تتصرف على طبيعتها، هذا ما تأكدت منه مريومة الخبيرة بالنساء، فهي تعرف مدى ضُعف ابنها أمام هذه الحرباء التي تتلون في ألف لون، الشيء الذي أدخل الطمأنينة إلى قلبها وجعلها تُؤجل مُفاتحة اسكندر في الأمر. نبوءة الشيخ كمال بأنها لن تكون من نصيبه نعم لقد وعدها بذلك وهذا يكفي في المرحلة الحالية لم تقف مريومة عند هذا الحد فهي في بحث دائم عن عروسة جديدة لابنها اقترحت عليها ابنتها البكر زميلة لها في المدرسة لكنها لم تُعجب مريومة التي تريد لابنها فتاة أية في الجمال والأخلاق، ستتفرغ مريومة لكل هذه الأمور بعد أن يكون الكنز حقيقة ثابتة.

بعد منتصف الليل بدأ القلق يتسرب لمريومة اتصلت أكثر من مرة بهاتف زوجها المحمول دون جدوى لا يُجيب لا هو ولا إسكندر، بعد الثانية صباحا كان القلق والخوف قد سيطر عليها تماما، استحضرت قصص المعارك والجرائم التي وقعت عند

استخراج الكنوز بين الشركاء أنفسهم وصلت في أحيان كثيرة إلى القتل، لم تنسَ بأن هذا الخوف هو الذي دفعها إلى إشراك اسكندر في أمر أبيه وجَعله مرافقا له، رغم معارضة سي خميس هذا الذي لا ترتاح له مريومة أبدا. زوجها وابنها هما الغريبان بين عائلة واحدة بل في مزرعتهم البعيدة والنائية.

تمام الساعة الثالثة صباحا تخلصت مريومة من كل أحلامها المادية بل لم تعد راغبة في الكنز بتاتا، كل ما تُريده وتمنته في تلك الساعة وهي تبكي أن يعود إليها زوجها وابنها سالمين، اتهمت نفسها بالغباء والجشع لسماحها لهما بالدخول في تجربة ومغامرة كهذه، كيف غابت عن ذهنها كل الأخطار التي سمعت عنها، يا لها من امرأة جحوده طماعة عاودت الاتصال دون جدوى أصبحت شبه متأكدة بأن مكروها قد أصابهما ترددت كثيرا في ايقاظ نور التي لا تعلم شيئا عن هذه الأمور.

ظهر سي رابح واسكندر تمام الساعة الرابعة والنصف صباحا، حيث بدأ نور الصباح بدحر ظلام الليل، كانا مُتعبين مُنهكين اسرعت إليهما مريومة وهي تجفف دموعها وتحمد الله على سلامتهما مستفسرة مطمئنة.

- لاباس فجعتوني طيحتو لي الماء في الركايب اش عملتلكم علاش ماتردوش على اليلفون.

كانت مريومة تبكي وهي تتحسس كل من ابنها وزوجها بكاء الفرح بلقائهما كأنهما كانا في سفر بعيد وعادا منه.

- خلينا مريم عيش اختي توا.

- اختي يا شومي خرجت مرتك رجعت وليت اختك من وقتاش؟

– والله ضامرة.

اسكندر لم يتكلم دخل مباشرة إلى غرفته وأغلقها في غضب ظاهر لم تسمع منه أُمه إلا كلمة واحدة، رددها أكثر من مرة، بل كان يرددها طوال الطريق إلى المرناقية.

– بهيم بهيم.

حيث استغربت واستنكرت مريومة قوله ذاك، ظنت في الأول أنه ربما يقصد أباه.

– على شكون يحكي ويسب يا رابح؟

– خميس البهيم يا مريومة ضيع علينا الكنز الليلة، ببهامتو كان بين يدينا شفناه يا مريومة خليني بغصتي بالله.

أعطاها سي رابح قطعتين ذهبيتين، حيث قَسَّم سي كمال بعد أن هدأ إكراما للمنجي وسي رابح فقط الخمس قطع واحدة لكل شخص، رغم اعتراض المنجي هذه المرة باعتبار اسكندر وأبيه يمثلان شخص واحد لكن إصرار الشيخ وتمسكه كان أكبر من إصرار المنجي بينما لاذ سي خميس بالصمت لم تترك مريومة زوجها ليخلد للنوم وهي تتحس القطعتين غير مصدقة.

– ما تقوليش هذا هو الكنز رابح أكهو.

مريومة هي الأخرى بعد سماعها للقصة وهي لا تنفك عن تحسس القطعتين الذهبيتين، لم يعرف النوم طريقه إلى جفنيها شاركت زوجها سهره وحيرته، فالشيخ الذي رضي بإعادة المحاولة مرة أخرى نزولا عند شفاعة سي رابح فقط.

– على خاطر سي رابح غنعاود معاكم والله لو ماكنش هو لا ضربت فيها ضربة وهداك خميس مابقيش باغي نشوف وجهو

متفقين.

لم يشترط الشيخ عدم رؤية خميس فقط كان هذا مقدورا عليه لإعادة المحاولة مرة أخرى، لكن الشيخ يحتاج هذه المرة إلى مائة غرام من لبان ذكر وعشر قوارير من الماء اليهودي المقدس و... و... و... حيث تتجاوز التكلفة الاجمالية تسعون مليون أي ما يقارب تسعون ألف دينار تونسي.

– أنا غادي غنستناكم سيمنة ترجعوا عليّ موافقين ولا لا.

الكل بعد ذلك حمل المسؤولية لخميس كان الكنز قريب جدا لكنه بتهوره وجشعه أضاعه، طلب منه أخيه أن يدفع نصف المبلغ الذي طلبه الشيخ.

– اسمع معادش تمثل ودروش علي برا جبد فلوس من البنك.

لن يرحمه المنجي هذه المرة حسب تعبيره، ما كان يُقلق سي رابح واسكندر أن المنجي وأخيه يستطيعان تأمين ما طُلب منهما في ظرف وجيز لأنهما يملكان مالا. سي رابح لا يملك شيء ولا يمكن لسي خميس أن يقرضه مبلغ ثلاثون ألف دينار.

– ماعندنا مانعملو بيه رابح فك علينا الغنسي ربي ما كتابش.

قالت مريومة بعد تفكير طويل.

– قلت لولدك قالي لا.

– يا بابا الكنز شفناه بعيننا وعندنا منو زوج قطايع بين يدينا الراجل ماهوش يتمنيك البهيم صاحبك فسد الحكاية.

هذه المرة كان اسكندر هو المصر على إعادة المحاولة طلب من أحد أصدقائه التوسط لأبيه في الوكالة المركزية للبنك من أجل

التسريع في منح القرض والذي لم يكن كافيا. في سوق اليهودية لبيع السيارات يوم الأحد عُرضت سيارة سي رابح للبيع لأول مشتري واقترض الخمسة آلاف الأخرى من سي خميس الذي انهارت كل دفاعاته أمام بريق الذهب الذي تمتع برؤيته لثواني معدودة وتحسس قطعة منه، حيث أكد له كل الخبراء الذين عرض عليهم القطعة بأنها قطعة أثرية ذهبية تعود للحقبة الرومانية، أقسم سي خميس وهو يسحب من البنك مبلغ أربعين ألف دينار دفعة وأحدة بأنه لن يدخل معهم المرة القادمة غرفة العمليات سيبقى بعيدا.

المنجي الذي كان يُمني النفس بإتمام شراء الشقة التي اختارتها أحلام في ضاحية باردو في تونس والتي دفع فيها مُقدما واتفق مع المحامي على بدء إجراءات الطلاق من زوجته التي لا تعلم شيئا عن الموضوع والتي تتجند كل صباح برحابة صدر يحمل داخله قلبا مفعما بالحب والعطاء دون انتظار مقابل حيث تكفي كلمة شكر في أحيان كثيرة ابتسامة ربما. تتجند لتُهيئ كل ما يطلبه زوجها من أطباق ومأكولات للضيوف وبعدها تتابع أعمال المزرعة.

المنجي لم يفكر يوما بمكافئة زوجته حتى الابتسامة كان يبخل بها عليها كانت كلماته لها أوامر يجب أن تنفذ بل في أحيان كثيرة لا يناديها باسمها.

-اهاذيكا

-يا مخلوقة

المنجي الذي كان يَعُد الساعات والدقائق من أجل الاقتران بحبيبته التي لم يُصدق قبولها الاقتران به قبل أن تتخرج من الجامعة حيث يرجع الفضل في ذلك إلى الشيخ الجليل.

المنجي لم يستمع ابدا لصرخات ضميره التي تهتف مستنكرة

ظلمه لزوجته أُم أولاده رفيقة رحلة الشقاء، المنجي الذي أسكت هذا الضمير مقنعا إياه بانه سيُعطي لزوجته السابقة وابنائه منها نصف الكنز ويحتفظ هو لنفسه فقط بالنصف بعد ذلك تراجع واعتبر النصف كثيرا عليهم وقرر بأن يعطيهم الثلث والثلث الاخر لأحلام منبع السعادة.

أقنع نفسه بأنهم يستطيعون تدبر أمرهم بالثلث بينما هو في مقتبل حياة جديدة يحتاج للمال والكثير منه، وعد أحلام بشقة وسيارة دفعة واحدة، كما سيقوم بصبغ شعره وتركيب بعض أسنانه، تنتظره أشياء كثيرة. أصبح أكثر إصرارا على استخراج الكنز من قبل، باع بعض أبقاره وسحب باقي المبلغ من البنك ليؤمن حصته من المبلغ الذي طلبه الشيخ.

عندما زار الأصدقاء الأربعة مدينة بومهل البساتين في الموعد الذي حدده لهم الشيخ لتسليم المبلغ المتفق عليه، لم يتمكنوا من الدخول بسيارة اسكندر عبر النهج الذي يسكن فيه الشيخ، كان مكتظا على أخره بالناس الراغبة بمقابلة الشيخ، كل الحديث كان يدور عن الشيخ وعن قدرته وحكمته الكل يلهج بالشكر وهو يستعرض قصص من سبقوه وحظوا بلقاء الشيخ، كيف تبدلت حياتهم، حتى المرضى منهم بأمراض مستعصية اعتقدوا بل أكدوا بأنهم لم يعودوا يشعرون بشيء اختفت آلامهم فجأة كما ظهرت فجأة، عندما سُمح للأربعة بدخول الفيلا كانت صيحات الاحتجاج تَصُم الاذان من الجموع المنتظرة في الخارج والتي اتهمت الزوار الجُدد بعدم احترام الصف والأولوية ورشوة الحارس. لم يعد الحسين هو المساعد الوحيد للشيخ هناك ما يُقارب أربعة أشخاص كان عليهم أن يمروا عليهم كلّهم ويستظهروا بهويتهم والغرض من الزيارة،

وهل هي بناء على موعد سابق مع الشيخ الذي لم يعد هو من يجيب على المكالمات الهاتفية، بعد أكثر من ساعتين من الانتظار في إحدى غرف الفيلا المكتظة بالزوار سُمح لهم أخيرا بمقابلة الشيخ.

- ع السلامة سي كمال تبارك الله تونس مبروكة عليك.

- لا سي رابح أنا مبروك على تونس وعلى التوانسة.

- أنت كلك بركة شيخ أضاف المنجي.

في حين لاذ كل من اسكندر وسي خميس بالصمت بينما اعتبر سي رابح كلامه جرأة زائدة وصلت إلى حد الوقاحة، ومع ذلك لم يستطع أن ينبس بكلمة. خميس الذي أصر بأن يرافقهم وأن يشهد بأم عينيه نقوده التي انتظر ساعتين كاملتين في غرفة الانتظار ليُسلمها للشيخ الذي تظاهر بعدم رؤيته بل لم يكلف نفسه عناء الرد على تحيته. اعتذر الشيخ بالتزاماته الكثيرة وبأن هناك الكثير من الناس من عرضوا عليه استخراج كنز مماثل، ونظرا لضيق الوقت ولارتباطه بالتزامات دولية أخرى في كل من فرنسا ودول مغاربية أخرى وعربية، فقد قرر وهذه بشرى لكل التونسيين بأن يفتتح مكتب قار في تونس سيزوره كل شهر أو شهرين حسب جدول أعماله، أما بالنسبة للكنز فإن مكتبه سيتصل بهم في الوقت المناسب ليعلمهم بموعد استخراجه الذي يجب أن ينتظر توافق الكواكب والنجوم لا مجال للخطأ هذه المرة.

- إن شاء الله صافي كونوا هانيين اعتبروه مجبود بحول الله الا بقينا حيين.

- ربي يطول لينا في عمرك شيخ.

- أمين سي المنجي ربي يخليك أما إلا جات على خاطرك

وقتاش زعمة.

- دابة نتُوما عارفين من هنا جوج سيمانات غتتصل بيكم السكرتيرة ديالي تعطيكم الموعد إن شاء الله.

- سيدنا الشيخ لا حبينا نتصلو بك كيفاش.

- هههههه انت تشوف سي المنجي ماعنديش وقت باش نحك راسي في الليل نمشي لقرطاج راهو.

وهو يهمس

- عند المعلمة الكبيرة.

صعق كل من رابح واسكندر لمنظر الجموع التي تنتظر في الداخل والخارج زيارة الشيخ، الناس في الخارج والداخل مزيج مختلط بين ما يُمكن تسميته المثقف أو صاحب شهادة عُليا وبين الجاهل، الغني، الفقير، الرجل، المرأة، شباب وفتيات في مقتبل العمر.

القاسم المشترك بين الجميع أنهم يحملون بداخلهم آلام ومشاكل ربما أُغلقت كل الأبواب لحلها في الخارج أو لم تعد تُدَرّس في برامج تعليمنا منهجية التفكير الصحيحة لم نعد نُفكر في حل أي طارئ يعترض طريقنا كل شيء جاهز الألعاب جاهزة الملابس جاهزة أُكلات جاهزة حلول جاهزة لماذا إذن نُرهق أنفسنا في التفكير في حين أن هناك من يُفكر بالنيابة عنا، قد سُطرت حياتنا لخمسين سنة قادمة، هم فقط من يرون كيف يجب أن نعيشها نحن لا نملك إلا التنفيذ.

منظر كهذا يجعلك تُعيد التفكير ألف مرة فيما نحن فيه. رجال ونساء بسيارتهم تركوا أعمالهم منازلهم منهم من رابط هنا ليوم كامل

طامعا في لقاء مع الشيخ معتقدا بأنه الكفيل بل الأمل الوحيد المتبقي لحل ما عجز عن حله لسنوات، أصبح ممكنا حله في خمس دقائق بتعويذة بِرشّة ماء ساخن من فم كمال الذي يرشه عليهم وهم يتلقونه بكل سرور وانشراح دون أدنى إحساس بالتقزز والقرف إنها البركة التي تخرج من فمه وليس شيئا أخر. حاول اسكندر جاهد أن يعد المبالغ التي يجنيها الشيخ كمال في اليوم الواحد، سي المنجي هو الوحيد الذي يعرف كم تُكلف زيارة الشيخ عشر دقائق أو أقل، فحص الشيخ يتجاوز الخمسمائة دينار فلتذهب كل الشهادات الطبية والجامعية للجحيم. بينما نظر سي رابح بكل إشفاق إلى لمرابطين أمام منزل الشيخ وهو يتساءل: أيمكن أن يكون كل من ينتظر هنا لقاء الشيخ يعانون عجزا جنسيا؟ إذا كان الأمر كذلك فيجب أن ندق ناقوس الخطر وهو يتحسس عضوه حامدا الله في سره أن معجون الشيخ كمال لم ينته بعد.

اتصل مكتب الشيخ بعد مرور ثلاث أسابيع على آخر زيارة لجماعة «المرناقية» للشيخ. كان الاتصال هذه المرة بسي خميس حيث أكد المكتب موعد زيارة الشيخ لمدينة الفحص على الساعة العاشرة ليلا.

انتظر الأصدقاء الأربعة إلى حدود الساعة الثانية صباحا ولم تظهر بعد سيارة الشيخ سيطر الشك المصحوب بالهلع على القلوب.

– علاش باش يجي الكنز هزو من نهارتها وماصدقتونيش.

– اسكت خميس بالله اسكت عيش خويا الي فينا مكفينا. أضاف المنجي.

في حين تحصن كل من اسكندر وابيه في صمتهما، وهما يشعلان السيجارة تلو الأخرى، تخلص اسكندر ليلتها من حرجه في التدخين

أمام أبيه، الذي لم يجد هو الاخر حرجا في أن يطلب من ابنه سيجارة عندما نفذت علبة سجائره ناوله اسكندر العلبة في صمت مريب.

في تمام الساعة الثالثة قرروا الذهاب إلى بومهل البساتين ليستطلعو جِلية الأمر. وإن كانت قلوبهم تُحدثهم بأن الأمر انتهى لكنهم ظلوا متشبثين بالأمل لأخر لحظة. هناك أمام الفيلا المطفأة الأضواء حيث وجدوا الشارع المؤدي إلى المنزل خالي من الحشود.

كانت تنتظرهم سيارة شرطة ليس لتُنظم المرور هذه المرة ولكن لتقبض على زوار الشيخ الذي صدر في حقه أخيرا منشور تفتيش، سبقه قبل ذلك هاتف تنبيه من أصحاب القلوب الرحيمة والوطنية التي سهلت له مغادرة البلاد. في مركز الشرطة لم يكن سي كمال المقبوض عليه كانت الضحايا هي المتهمة وهي المقبوض عليها على ذمة التحقيق. وهي التي تُستجوب.

الشرطة التي تغاضت عن كل أعمال سي كمال لشهر كامل بل قدمت له الحماية وسهلت مرور الناس إليه، الآن تعتبره مجرما يجب القبض عليه، الآن فقط استمعت إلى الاف الشكاوى المسجلة ضده مُتهمة إياه بالاستيلاء على أموال الغير بالنصب والاحتيال دون وجه حق، بعد أن غادر مُحملا بما خف حِمله وغلا ثمنه يُفتح ضده تحقيق لملأ الفراغ ليس إلا.

عندما سمع المنجي بخبر مغادرة الشيخ للبلاد لم يقو على النهوض من كرسيه استدعيت سيارة إسعاف حيث حملته مباشرة إلى مستشفى «المعهد الوطني للأعصاب المنجي بن حميدة» إثر تعرضه لجلطة دماغية ليخرج من المستشفى على كرسي متحرك، لم تزره أحلام أو أحلامه، هناك تبخرت واختفت مع اختفاء الشيخ، هجرته عند سماعها ما حل به لم تأخذها الشفقة عليه، هرعت إلى

صاحب الشقة لتتفق معه في أحد مطاعم المرسى باقتسام المقدم الذي منحه إياه المنجي سابقا بصحبتها، لم يكتف صاحب العقار بمنحها نصف المقدم كان أكثر كرما من المنجي نفسه، منحها شقة صغيرة مؤثثة دون إيجار في نفس العمارة وبعقد مسجل تنتهي صلاحيته بانتهاء مشوارها الجامعي والعقد بطبيعة الحال قابل للتجديد بشكل ألي ما لم يعترض أحد الطرفين في الآجال المحددة، عقد إيجار شقة مدفوع الأجر مقابل أن يزورها صاحب العقار بين الفينة والأخرى.

أحلام التي عرفت طريقها ومشت فيه دون خوف أو تردد ودون أن تلتفت إلى الوراء حيث يجلس المنجي على كرسي متحرك تُساعده زوجته في قضاء حاجته والاهتمام به كأنه طفل صغير يكتفي هو أحيانا دون أن ينبس بكلمة بأن يذرف دمعتين حارتين على خده. انقشع الضباب غاب الحب برحيل الشيخ حتى ابن م.س بدأ يشعر بالندم لهجره حبيبته السابقة أصبح يعيش داخل ذكريات حبها. زوجته الحالية والتي لا يعرف كيف ومتى تزوجها عبارة عن خيال امرأة يشاركه المسكن والعيش فقط أما القلب والأحاسيس فقد تجمدت في مكانها، يستطيع أن يقدم لزوجته كل ما تطلبه إلا الحب فهو ملك للأخرى التي هجرها، لازال غير قادر على التصديق بكونه هو من اتخذ قرار هجرها دون سبب.

الفصل 15

الرحيل واللعنة

«ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه إلا الموت»
الحسن البصري

حَمّـه «البوسطاجي» رجل أسمر طويل يعرفه جل سكان مدينة «المرناقية» لا تُخطئه العين دائم الدوران على دراجته الصفراء وهو يُوزع الرسائل عل السكان بهمة ونشاط، حمّه «البوسطاجي» يعرف جل سكان «المرناقية» لا يحتاج في أغلب الأحيان إلى قراءة العنوان يكفي بأن يطلع على الاسم ليعرف أين سيجد ضالته أو صاحب الرسالة، خبرته الطويلة مكنته من أن يعرف طبيعة الرسالة ويُميز بين التي تحمل أخبار سارة أو حزينة، يحرص عل أن يُؤدي عمله بإنسانية منقطعة النظير، أحيانا قد يطرق حمّه باب أحدهم في الليل في وقت غير وقت العمل ليحمل إلى الأسرة بشرى سارة رسالة تعيين وانتداب في الوظيفة العمومية أو وصل حوالة من الخارج أو خبر عن غائب طال انتظاره وأحيان أخرى قد يترصد صاحب الرسالة ليسلمها له يدا بيد لا يضعها حيث يجب أن تُوضع يحرص بأن يُسلمها للمعني بالأمر شخصيا لأنه يعرف بأنها تحمل تنبيها إعلاما شيئا يجب أن يطلع عليه المعني بالأمر وحده تجنبا للأحراج

وحرصا على الستر. حمّه «البوسطاجي» رجل محبوب من أهل المدينة لا تراه إلا ضاحكا مبتسما في وجه الجميع رجل يحب عمله ويعمل بتفاني منقطع النظير.

في عصر ذلك اليوم من عطلة الربيع دخل حمّه «البوسطاجي» إلى مقهى القدس باحثا عن سي رابح لمعرفته المسبقة بأن هذا وقت ارتياده للمقهى، كان سي رابح مُستسلما غارقا في خلوته يلتمس الدفيء في دخان سيجارته يجلس وحيدا مهموما غير مبال تماما بما يدور حوله أو في الخارج أيقظه من غفوته وسرحانه حمّه بكل لطف.

- أهلا سي رابح ماحبيتش نجيك للدار قلت نجيك هنا خير.

- أهلا حمّه خير لاباس.

- لا لا لاباس ما تعمل شيء في بالك عندك جواب ماحبيتش نخليه في الدار ليتفجعوا الجماعة.

- اش فيه حمّه؟

- لا لا شيء هاهو صحح لي هنا وإن شاء الله ربي معاك وربي يخلص الوحايل.

وقع سي رابح كالمذهول على ثلاث أوراق لحمّه «البوسطاجي» الذي غادر ا في تأسف ظاهر على حالة الأستاذ المعروف في المدينة والذي ساعد في أوقات كثيرة أبناء حمه دون مقابل.

إعلام بحكم

حكمت المحكمة الابتدائية بتونس غيابيا على المتهم رابح الورغي بالسجن لمدة سنتين من أجل جناية إصدار شيك بدون رصيد.

كانت الرسائل الثلاث كلها تحمل إعلام بحكم لسنتين المجموع ست سنوات.

ابتلع سي رابح ريقه بصعوبة بالغة بل أحس بتسارع نبضات قلبه وعدم قدرته على التنفس، أراد أن يطلب المساعدة لكنه لم يقوَ على الكلام، جبينه يتصبب عرقا، بحث فوق الطاولة عن كأس الماء لكن يديه لم تقوَ على رفعه تصلبتا أراد أن يقوم من مكانه ليقع على وجهه محدثا ضجة جعلت كل من في المقهى يهُبّ لنجدته.

عندما وصلت سيارة الإسعاف، كان سي رابح جثة هامدة، تنزف ببطء شديد مُشكلة بركة من الدم أمام الكرسي الّذي كان يجلس عليه، الرسائل الثلاث متناثرة أمامه، قهوته لم يكتمل رشفها بعد، سيجارته لم تنطفء بعد، لكن روحه المتعبة غادرت تعبت رفضت أن تسكن لوقت آخر هذا الجسد المتعب كلت... حظر رجال الشرطة فُتح تحقيق في المقهى، جاءت مريومة حافية القدمين عارية الشعر تكبر وتشيخ مع كل خطوة تخطوها في اتجاه المقهى، حيث احتضنت جثة زوجها رفيق دربها كانت قدميها تنزف اختلط دمها بدم زوجها لطمت خدودها نثرت شعرها قالت فيه كلاما، لا يشبه الشعر، لا يشبه كل المرثيات التي سمعناها وصفته بكل الأوصاف الجميلة، كلامها كان يخرج من مكان ليس القلب، ليس العقل، وليس اللسان، كان يخرج من الروح من روحها التي سكنت ونامت جنبا إلى جنب أكثر من ثلاثين سنة من أنفاسهما التي اتحدت لتشكل نفسا واحدا، قالت له: لقد رحلت لقد غدرتني برحيلك المفاجئ، غدرتني وأنت ليس من طبعك الغدر، لم يكن هذا اتفاقنا لقد وعدتني بأن تهتم بي في أيام تقاعدك أن تتفرغ لي، لماذا رحلت هكذا؟ كم أتمنى لو تفارق روحي جسدي لأرحل معك الآن، أُريد أن أرحل معك. مريومة التي انتزع من حضنها رجال الحماية المدنية جثة زوجها بالقوة لم تُصدق أن زوجها الذي خرج ماشيا على قدميه، أصبح جثة هامدة، فتحي «الحماص» لم يصدق

مَرّ سي رابح من أمامه منذ وقت قصير، توقف عنده واشترى علبة سجائر من نوع «حلوزي الرديء» النادل أُصيب بصدمة، هو من قدم له لدقائق خلت فنجان القهوة، كان تقرير الطبيب الشرعي واضحا، مات نتيجة ذبحة صدرية مفاجئة.

في جنازة مُهيبة لم تشهد المرناقية مثيلا لها، إلا في توديع أشخاص قلائل كان من بينهم سي رابح، حرص جل السكان على توديعه إلى مثواه الأخير، انطلقت الجنازة من المسجد الكبير الذي اعتاد سي رابح أن يصلي فيه أغلب صلواته، الآن سيُصلى عليه، انطلقت لتمُر في طريقها إلى مقبرة المدينة أمام المعهد الذي أفْنى سي رابح عمره في التدريس فيه وتعليم التلاميذ علوم الفيزياء، تخرج على يديه دكاترة في الطب في القانون... أساتذة أطباء مجرمون لصوص...، القاضي الذي أصدر حكمه بالسجن والموت على سي رابح، ربما تتلمذ يوما على يد سي رابح، ودّعه التلاميذ والأساتذة والجيران وُري جسده التراب غير بعيد على معهد الفارابي حيث تبعد مقبرة «المرناقية» عنه بأقل من ثلاثمائة متر.

اسكندر الذي تفاجأ بخبر وفاة والده اختلط عليه الأمر وهو الذي لم يتعافى بعد من صدمة هجر أميرة له، عاد بعد أسبوع من فشل عملية استخراج الكنز إلى العمل ليتفاجأ بعدم وجدوها، أخبره الجميع مستغربين عدم علمه بأنها في إجازة. في المساء عندما عرج على بيتهم استقبلته أمها بجفاء ظاهر دون أن تُكلف نفسها عناء الترحيب به كالعادة طالبة منه الدخول، اخبرته من الباب بأن ابنتها انهارت لأنه غير قادر على توفير احتياجات فتاة في مثل مستواها الاجتماعي، ولم يعد بمقدورها التنازل أكثر هي الآن في فترة نقاهة خارج البلاد. أميرة التي التقاها اسكندر قبل وفاة أبيه بيومين والتي قدمت استقالتها من العمل عن طريق رسالة عبر البريد

الالكتروني ولم تعد إلى الشركة ابدا كموظفة ومستخدمة فيها.

أميرة التي عاشت لثلاث سنوات على نفقة وحساب اسكندر كان هو من يشتري سندويتشاتها، رموشها المزيفة، مساحيقها، ملابسها، أحيانا حتى حفاظات حيضها، هو السائق الذي يُوصلها صباح مساء من المنزل إلى العمل دون أن يُطالبها كما طالب أباه بثمن وقود السيارة. أميرة لم تكن في فترة نقاهة في فرنسا بل كانت هناك في مهمة عمل رفقة أبيها لبعث أول مركز اتصال دولي في تونس أميرة التي كان يتشارك معها اسكندر كلّ تفاصيل حياته الصغيرة والكبيرة التي تخصه، كانت تحتفظ لنفسها ببرامجها ومخططاتها لم يكن هو جزء من هذه البرامج والمخططات.

أميرة التي زارتهم في الشركة وهب مديرهم لاستقبالها مع أبيها كمن يستقبل وزيرا، لم تكلف نفسها عناء السلام عليه وسؤاله عن أحواله تجاهلته اعتبرته إنسانا عاديا لم يسبق لهما أن التقيا كأنه لم يضاجعها أبدا كأنه لا يعرف تضاريس جسدها، كأنها لم يسبق لها أن اعترفت له بحبها وهي تبكي، اسكندر الذي لم يكن يعرف ولم يكن يعمل إلا من أجل تحقيق رغبات وأحلام أميرة، اسكندر الذي لم يكترث ويهتم لحال أبيه وهو يراه يموت يوما بعد يوم قبل أن يسقط في الأخير ورسائل الحكم بالسجن بين يديه حيث قرأها جل رواد المقهى.

اسكندر لا زال يطمع في سي رابح وهو ميت اعتبر بأن أباه أحسن صنعا بموته، لأن موته هو الكفيل بإعادة المرتب المستعمر والممزق كاملا إلى يد مريومة، ستتكفل شركة التأمين بدفع القرض للبنك، والأكثر من ذلك ستصرف دولتنا الكريمة منحة ما يُسمى برأسمال الميت بعد الوفاة هذا المبلغ الذي يُراهن عليه إسكندر، لبعث مشروعه الجديد الذي لم يقم بدراسته ومعرفة إمكانية نجاحه

من عدمها، كل ما يهمه أن يبعث مشروعا مماثلا لمشروع أميرة، مركز للاتصال يُنافس فيه مشروعها يفكر ببعثه برأسمال وفاة سي رابح الذي تصرفه الدولة عند وفاة الشخص، ليتمتع بها الميت في قبره أو لكي يُرشي بها ملائكة العذاب في القبر، أو ليشتري بها مكان في الفردوس، الدولة تتذكر موظفيها ومن أفنوا عمرهم في خدمتها عندما يموتون تصرف لهم منحة الموت لا تصرف لهم منحة التقاعد، منحة الحياة، منحة السعادة، لم تختار الدولة من المنح إلا منحة الموت. قدرها اسكندر بحوالي اثنى عشر ألف دينار، انفرد في اليوم الثالث لوفاة سي رابح بمريومة ليضع اللمسات الأخيرة لمخططاته لكن هذه المرة كانت نور له بالمرصاد.

– اسمع تحب مريم تعطيك حقها أُمورها أما أنا دويو.

– سكر جلغتك قبل ما نجي نكسرها ليك. وهو يقوم من مكانه مُهددا.

– حدك غادي خطوة زيادة تمسني نشكي بيك للبوليس، لي كنت نعمل بخاطرو مات توا كل واحد يأخذ حقو أوكي، يزيك من الأنانية ماتحشمش على روحك بابا مازال عينو في القبر ماتفقستش وأنت تفكر في روحك والفلوس.

تسمر في مكانه قرأ في عينيها إصرارا غريبا لم يعهده فيها سابقا، لم يعتقد اسكندر للحظة بأن نور الفتاة ذات الستة عشر ربيعا قادرة على مواجهته بهذا الشكل. كان لنور ما أرادت لم تقوَ مريومة على الوقوف ضد إرادتها ورغبتها بكل الوسائل التي اتبعتها لم ينفع معها لا الترغيب ولا الترهيب، هي صاحبة الحق الأكبر في رأسمال الوفاة حسب القانون كان طريقها واضحا وضوح الشمس في ذلك العام حيث حصلت على شهادة البكالوريا بميزة حسن، استحقت عليها التكريم من إدارة المعهد الذي رأى في تكريمها تكريما لسي

رابح الذي لم يحظ ولا يحظى هو ولا زملائه بالتكريم أحياء وأمواتا.

سي خميس هو الوحيد الذي اعتبر موت سي رابح خسارة جديدة له لن يتمكن الآن من تحصيل أمواله، لن يتمكن الآن من مقاضاة زميله رابح انتقل إلى جوار ربه، اعتبر سي خميس بأن زميله رابح غدر به بموته، الوحيد الذي كان يريد منه أن يبقى حيا ليس لحبه فيه ولكن لرغبته في أن يسترد ماله، كان يحثه على بيع منزله بل عرض عليه شرائه لكنه رفض أن يبيعه مفضلا الموت على فعل ذلك، الذين شاهدوا سي خميس بعد ذلك كان حُطام رجل ليس حزنا على زميله وليس لإحساسه بالذنب لأنه رفض إمهاله مزيدا من الوقت كما رفض قبول استرجاع ماله بالتقسيط

– اسمع سي رابح خمم كيفاش باش ترجع لي فلوسي باش نصب الشيكات راهو.

أفقده خسرانه للكنز توازنه وصوابه لفترة وعندما عاد إلى رشده أو هكذا تخيل الجميع عاد أكثر جشعا من قبل لم يتقبل بأن يخسر ماله وثروته بهذا الشكل. الذين شاهدوا سي خميس بعد ذلك بصحبة «النوس» رجل ورمز مدينة «المرناقية» الذي يُكفر عن آثام سُكانها كل يوم. الرجل الأبله العاقل ربما الذي يحرص على ضرب نفسه بنفسه كل يوم دون رحمة كأنه يُكفر بذلك عن أخطاء وخطايا أبناء مدينته بالنيابة، لا يمكن أن ترى «النوس» دون أثر لكدمات زرقاء على وجهه وعينيه طوال حياته وكل يوم لم يتوقف قط عن صفع وجهه ولكمه دون رحمة تُذكر. يتوقف ليأخذ استراحة في ركن من أركان المسجد العتيق أو المسجد الكبير وبعد ذلك يعاود جولته في شوارع المدينة وهو يلطم نفسه. كان سي خميس يجري وراءه حافي القدمين وهو يصيح.

– وينو الكنز شكون هزو شكون، المراركة خذاو لي كنزي.

في مكان آخر غير بعيد عن مدينة المرناقية وفي قرية أخرى ربما أصغر بكثير من المرناقية في نفس الوقت الذي كانت فيه مريومة تبكي زوجها رفقة أبنائها كان هناك موكب أخر، موكب تُزف فيه عروسة الحسين لمنزله الجديد في قيادة ولاد جرار، صنع كمال الفقيه والحسين المغربي من مآساة وشقاء الناس الذين مدوا لهما يد المساعدة واستضافوهما صنعا من مأساتهم سعادتهما، تُزف عروس الحسين بمال سي رابح، الحسين الذي ظل لوقت كبير ينتقد الدجل والدجالين، أصبح يباركه بل أصبح منهم.

كان الشيخ كمال هو من عقد قران الحسين وزوجته عقد القران وهو يرتدي جلباب أبيض ويرتل كلمات مقدسة، في حين لا يعدو أن يكون شيطانا متنكرا. الحسين الذي كان يشكو من الظلم كان يعتبر ما سُلط عيله وعلى أمثاله من تهميش واستئثار طبقة معينة بثروات البلاد ظلما، لكنه الآن يعتبر ما قام به بطولة وعملا رائعا يفتخر به، يُنم عن ذكائه وفطنته، نحن لا نرفض الظلم ولا نُسميه كذلك إلا عندما يُمارس علينا، لأننا لم نمتلك الفرصة لنمارسه على غيرنا وعندما، نمتلك تلك الفرصة ينقلب اسمه بقدرة قادر إلى بطولة انتصار، وأحيانا نتجرأ لنضفي عليه صبغة قانونية وأحيانا أخرى عندما يستبد بنا الجهل ويبلغ مداه نتجرأ ونضفي عليه صبغة إلاهية مقدسة، بحيث تكون العدالة الإلاهية هي التي ارتضت ذلك وجعلتنا نحن مفوضين بتطبيق أحكامها، وبموجب هذه الأحكام نحن من يُقرر من يدخل الجنة من النار، نحن من يُقرر الحلال من الحرام.

أصبح سي كمال كما سيصبح اسمه لاحقا فقيه قرية «الكصيب» وريث سي بوعزة، المتوفي في حين لازال الحسين ينتظر وفاة شيخ القرية العجوز ليخلفه ويرثه هو الاخر ليمتد بذلك أطول تحالف في تاريخ

المغرب الحديث والقديم، ليمتد حبل التحالف بين الفقيه والسلطة.

عندما زار الحسين مدينة المرناقية للمرة الثانية سنة 2025 على الساعة الخامسة والعشرون، لم تتغير كثيرا عما تركها عليه سنة 1999، لم تشمل التنمية لا شوارعها ولا سوقها البلدي والأسبوعي الذي ظل على ما هو عليه، التغيير الذي سجله هو كثرة المقاهي والمخابز والمساجد التي فرضها وجود أحياء جديدة، كما أصبح اسمها مقترنا هذه المرة بالسجن، لأنه تم تدشين سجن كبير فيها ضواحي قرية سيدي على الحطاب.

عندما زار الحسين المرناقية للمرة الثانية في تلك السنة لم يكن في رحلة بحث عن عمل، لم يهرب من المغرب بعد أن حصد الجفاف محصوله الزراعي وأتى على بقرتيه، عاد يبحث عن السكينة عن راحة الضمير الذي استيقظ فجأة استيقظ على إثر موت ابنائه الثلاث في حادث سير مُروع في سيارته وهو في طريقه في رحلة استجمام إلى مدينة أكادير حيث مهرجان موازيين.

نجى هو وزوجته فقط ليتعذبا، اللعنة هذه المرة لم تأتِ على البقرتين أتت على ما هو أعز وأغلى ما يملك، أتت على فلذة كبده وهو عائد من المقبرة مُحطم الفؤاد، اعترض طريقه سي رابح بوجهه الشاحب بظهره المنحني بشعره الأشيب اعترض سبيله مُطالبا بحقه مستفسرا عن ذنبه، كل الليالي الموالية لموت أولاده لم يعد يرتاح الحسين لا في صحوه ولا منامه أصبح طيف سي رابح رفيق وحدته أحيانا يتصوره جالسا أمامه تحت شجرة الياسمين في مقهى القدس والحسين يحاول جاهدا بأن يدافع عن نفسه، أن يُلصق التهمة كاملة بكمال المغربي، أن يُثبت لسي رابح بأنه ضحية الفقر والجهل، أن يعذره أن يسامحه، لكنه عندما يتذكر أبنائه، يتحول فجأة يبحث عن سي رابح يُهدده تارة ويستعطفه تارة أخرى يطلب

منه بأن يُعيد له أبنائه، مستعد هو بأن يتنازل عن كل ما يملك أن يعود للكوخ الطيني القديم، يفترش الحصير لكن أن يكون أبنائه بجانبه، يستهزئ منه سي رابح بل يتهمه بالجنون يشاهد الحسين أحيانا أبنائه ويسمع صوتهم وهم يلعبون مع سي رابح كأنهم من صلبه بل سمعهم مرة ينادونه بابا بابا بابا رابح.

قرر الحسين العودة إلى المرناقية في اليوم الذي سمع فيه خبر مقتل كمال المغربي في إحدى دور البِغاء في مدينة أكادير، قتلوه وهو عار تماما وانتزعوا عضوه الذكري وجدوه دون عضو ذكري، رفض أبنائه أن يُقيموا له بيت عزاء، لم يتبع أحد نعشه لم يحرص أحد على توديعه، في جنازته استأجروا من حفر له حفرة ودفنوه فيها، لم يغسله أحد ولم يترحم على روحه أحد.

عاد الحسين إلى المرناقية حيث اعترض سبيله في الطريق شيخ كبير بملابس رثة يصيح.

– وينو الكنز وينو فلوسي هزوهم المراركة.

تمعن فيه الحسين جيدا عندما سمع كلمة كنز ليعرف في الأخير بأنه سي خميس الأستاذ.

لم يكن يجري وراء «النوس» هذه المرة والاخير هو يلطم رأسه لم يكن أمامه «النوس» رمز القرية الذي فارق الحياة، شيعته «المرناقية» إلى مثواه الأخير في جنازة تشييع ولي صالح. كان الحسين هو من لطم رأسه ووجه وهو يمشي وراء سي خميس الحافي القدمين الذي لازال يبحث عن كنزه المفقود. لم يتعرف سي خميس على الحسين حاول الأخير بأن يشتري له رغيف خبز أن يُعطيه بعض المال لكن سي خميس رفض لنصف يوم كامل والحسين يتبع خطى سي خميس لعله يقبل بعض أُعطياته، لكن إصرار الأخير كان صارما وغريبا

حتى الناس استغربوا فسي خميس اعتاد أن يتقبل أُعطياتهم بصدر رحب وخصوصا عندما يداعبونه ويُعطونه أكلة ملفوفة على أساس أنها كنز، كان يقبل عليها بكل لهفة وحب لكنه لم يتقبل من الحسين أُعطياته، الذي بكى لطم رأسه وهو يتذكر أبنائه الثلاث، لكن كل ذلك لم يشفع له عند سي خميس ليقبل أُعطياته.

في مقبرة المرناقية القديمة التي اكتظت بزوارها ولم تعد قادرة على استقبال المزيد، جلس الحسين فوق قبر سي رابح صعق عندما قرأ تاريخ وفاته الموافق لتاريخ زواجه حينها فقط عرف أن أساس بداية حياته بُني على قبر، وأن ما حدث كان نتيجة طبيعية للبداية التي استهل بها حياته، تمنى لو يقوم سي رابح من قبره لو يسامحه لو يغفر له غفرانه الوحيد الذي يستطيع أن يُعيد السلام إلى روحه.

اعتذر له طلب منه بكل الأسماء بأن يسامحه أن يغفر له لكن لم يجيبه أحد في منزل سي رابح حيث تعرف عليه إسكندر، وهَمّ بطرده اشفقت عليه مريومة المرأة العجوز، فتحت له باب منزلها من جديد أخبرها وهو يقبل يديها رأسها بأنه من قتل زوجها، بأنه قتل ابنائه أيضا بأنه مُجرم يستحق الشنق بكى لطم خدوده طلب السماح طلب الغفران، بكت مريومة الطيبة لبكائه مسحت على صدره وقلبه قبلت رأسه. انهار الحسين من جديد قبل رجليها ورأسها يديها اعتبرها امرأة قديسة أخبرها بأنه أحس بالطمأنينة عندما لامست ومسحت بيديها الكريمتين صدره، قلبه أحس بغشاوة انقشعت عنه أعادت كلماتها بعض الأمل لروحه المعذبة، اقترح على اسكندر أن يطلب منه ما يشاء. لكن مريومة رفضت بشدة معتبرة أن ذلك المال يحمل لعنة الاف السنين لا يجلب إلا الدمار والهلاك والعذاب.

عزيــز شــراج

عزيز بن عبد الخالق شراج، كاتب وباحث مغربي، من مواليد مدينة تيفلت سنة 1975، شكّل التاريخ وعلم الاجتماع البحر الذي كان ولا يزال يحلو له الغوص والبحث فيه، بالإضافة إلى التفاعل مع كل ما يدور في الساحة السياسية والعربية من تقلبات وغليان، وقد ألقى في هذا الإطار العديد من المحاضرات. كما شارك في مجموعة من الملتقيات والمنتديات. وله عديد الأنشطة الثقافية مع جمعيات مختلفة.

هاجر إلى تونس في الحادي عشر من سبتمر 2001 ليستقرّ فيها. لم يُثنه اشتغاله بالتجارة والأعمال الحرة عن متابعة كل ما يدور في الساحة الأدبية حيث قدم عديد الاصدارات لكتاب تونسيين ومغاربة، وكان يتفاعل مع ذلك بالعديد من المداخلات عبر الإذاعات التونسية.

ظلّ قارئا نَهما ووفيا لكل المدارس الأدبية على اختلاف أنواعها، ابتداء من المنفلوطي وجُرجي زيدان، جبران خليل جبران، مرورا بنجيب محفوظ، يوسف السباعي، احسان عبد القدوس، طه حسين، العقاد... تأثر كثيرا بكل من عبد الرحمان منيف، جبرا إبراهيم جبرا، دوستو يفسكي، جرجيو قسطنطين، غابريا غارسيا ماركيز، نيكوس كازنتزاكي، والصافي سعيد..

جاءت كتاباته ومؤلفاته لتُجسّد الرواية الإجتماعية التاريخية، أضافت الإقامة في تونس إلى كتابته روحا جديدة جعلت منها كتابة هجينة حول التراث المغاربي لتُجسّده في صور عدّة. تنقلك في رحلة مزدوجة لتغوص في عالمين مختلفين، تنقلك تارة لتشاهد عن كثب حياة الأزقة والمجتمع المغربي، وتارة لتُعاين عن كثب ما يدور في الأنهج التونسية. تمتزج الأحداث لتشكل لوحة مغاربية غنية وجميلة.

من مؤلفاته

- رحلة بجواز سفر داغشي، منشورات سوتيميديا - تونس، جانفي 2018.
- العراف والكنز المطمور، منشورات سوتيميديا - تونس، جانفي 2018.

له ثلاث أعمال بصدد الإنجاز، ستصدر قريبا عن دار سوتيميديا للنشر والتوزيع تونس.